الأرقَــم

(الجزء الثاني)

الكتاب : الأرقم (الجزء الثاني)

المؤلف : محمد صاوي

تصميم الغلاف : إسلام مجاهد

التدقيق اللغوي والتنسيق الداخلي : هند محمود

رقم الإيداع : 2019/27402

الترقيم الدولي : 978-977-778-201-2

الطبعة الأولى : 2020

20 عمارات منتصر – الهرم – الجيزة

011-27772007 | 02-35860372

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

للنشر والتوزيع

محمد صاوي

الأرقم

(الجزء الثاني)

«لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى»

رواية

ن للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روحٍ صعدت إلى السماء مبتسمة، وخلَّفت وراءها قلوبًا تنبض حُبًّا وألمًا..

إلى أبٍ غاب كثيرًا فتألم كل من تركه..

ألا مِن لقاءٍ قريب؟!

ألا مِن حضنٍ اشتياق؟!

ألا من لحظةٍ تسامُر نتجادل فيها معًا كما كنا في الأيام الخوالي؟!

رحلتَ وتركتَ القلب تكويه نارٌ حامية..

فيا مَن حُفِرت في الذاكرةِ مدى الحياة..

لا تنسَ أن تتفقَّد رعاياك، فنحن ننامُ على أمل لقياك، نتمنى حلمًا خاطفًا أو لحظةً نرى فيها ابتسامةً تزين وجهك، هي كفيلةٌ بإسعادنا عَقدًا دون شقاء..

نفتقدك، وننتظر لحظة أن نراك، ولكن طالَ الانتظار.. فاعلَم أننا نعيش على هذا الأمل، ولن نهمد إلا عند اللقاء.

عزيزي القارئ..

قبل أن تُكمِل الخوض في سيرة (الأرقَم)، أودُّ منك العودة إلى «الجزء الأول» ومراجعة الفصلين الثاني عشر والثالث عشر، كي لا يفوتك شيء..

وليستوعب عقلك ما هو قادم!

شكرٌ خاصٌّ جدًّا لصديق العمر والدرب (شريف إبراهيم عيسى) على ملاحظاته الغالية والقيِّمة، والتي دونها لما انتهَت هذه الرواية..

تنويه!

الأحداث التاريخية التي وردت في هذه الرواية

ليست حقيقيةً بالكامل..

وأي أفكارٍ في الرواية لا تتناسَب مع ديانتك،

فهي ليسَت قناعات الكاتب،

وإنما قناعات الأشخاص المُقدَّمين في الرواية.

مقدمة

منذ البداية، ونحن متيقنون تمامًا بوجود نهايةٍ للخلق «القيامة»، وأن لها علاماتٌ صغرى وكبرى.

سينتشر الملحدون والكفار، وسيحاولون تشويهَ جميع الديانات، ولكننا نعلم قبلًا أنَّ مصيرهم إلى جهنم..

لذلك اطمأنَّت قلوبنا بوجود الفردوس الأعلى جزاءً لكل مؤمن، أن هنالك خيراً في المنتصف سيكون ظاهرًا، أن في ظل كل الانهيار سيقف المؤمنون شامخون في الصخر ينحتون، صامدون أمام العواصف، يعتكفون، يناجون ربهم، يستغفرون، يسبحون، ويصلُّون..

ولكن الحقيقة لم تنكشِف كاملة، فتساءلنا!

هل سيشهد المؤمن يوم القيامة؟

أم سيخص الله ذلك اليوم لمن يحملون الضغائن في قلوبهم، لمن يمارسون كل أنواع الشر والفساد دون خجلٍ أو خوفٍ من مُلاقاة الخالق، لمن لا يعترفون بوجود القيامة، للذين لوَّثوا كل العقول، للذين يقتلون، يسرقون، أو يزنون على الملأ ولا يخافون؟

هل تعتقدون أن ذلك اليوم المهيب سيمر على البشرية كأي يومٍ آخر، أم سيكون عقابًا لمن يستحقه؟!

نحن بصدد مواجهة مراحل تطور شرور الإنسان منذ بدء الخلق حتى يومنا هذا..

البشر مع مرور الزمن قَتلوا، ظلموا، أشعلوا الفتن والحروب، نهبوا كل خيرات الطبيعة، ونشروا الفساد. الناس في غفلةٍ والنهاية تقترب!

نعلم جميعًا أننا نحمل في دواخلنا الضغائن والغل والحقد على أنفسنا قبل الغير!

في زمنٍ بُتِرت فيه الفضيلة والحُسنى، وانتشرت فيه الرَّجعية والعُهْر والفساد، وانهارت كل العقائد الدينية الصحيحة، واختلَّت كل الموازين، تغلغلَت في دواخلنا الصفات الخبيثة، وسكن القلوب الحقد والقسوة..

الشهوة تملكت منا، والسرقة والقتل أدوات الفخر في مجتمعنا، والزنا صار أيسر الطرق بالنسبة إلى بعضنا، والطيبة والنبل قد دُفِنا، والفخر أضحى بالخبائث السافلة!

مجتمعٌ فاسدٌ وبشرٌ انتهكوا كل المعايير القَوِيمة، ودهسوا بأقدامهم كل ما هو جميل..

حان الوقت لرفع الستار عن قلوبكم السوداء، لمواجهة نفوسكم غير السوية، لأن تعترفوا أنَّ قلوبكم لم تعُد نقية..

هنا تُكشَف حقيقتك، هنا تعلم ما بداخلك، هنا تعرف كيف أن الإنسان شيءٌ مقزز. الطباع الحميدة ليست من صفاتنا، نحن الشرُّ يسير على الأرض، نحن من لوَّثنا كل شيءٍ منذ ظهورنا، العالم جميل دوننا، نحن البشر وحوشٌ تنهش الدنيا..

بين جنباتِ هذه الرواية، ستتعثر وتتخبط بمُفجِعات ابن آدم، ستُدَسُّ عيناك داخل الواقع المظلم الذي تبصره يوميًّا وتحاول التغاضي عنه، لا تجمُّل بين صفحاتها، لا شيء سوى الحقيقة فقط، حقيقة نفوسكم المتسخة.

إن لم تكن مستعدًّا لمواجهة الجزء الأسود بداخلك..

فلا تقرأ!

قطعة من اللحم

ليلٌ مهيبٌ يصرخ صمته انتفاضًا من غضبِ البشر، فلا صوتَ إلا السكوت، لا نباحَ ولا نهيق، لا صريرَ يطِنُّ بين الحقول، لا هديلَ حمامٍ يشدو ولا صياحَ ديكٍ يُجَلجِل فرحًا، ولا شيخًا عجوزًا يُؤذِّن في مكبر الصوت مُعلنًا عن فجرٍ حانَت ساعته..

لا شيءَ سوى نبضات القلوب المستترة بين السواد، نبضات يرجوها أصحابها أن تصمُت فلا يُفتضَح أمرهم..

دموعٌ غزيرةٌ لا عزاء لها، أمواتٌ يسكنون أحشاءَ غيرهم بدلًا من قلوبهم، فلا عزيزَ ولا غالٍ، لا حبيبَ ولا مُحِب. فقط بطونٌ تصرخ مستنجدةً من جوعٍ يهتِك أوصالها..

منازل مُهدَّمة وريحٌ تعصف في الأجواءِ مسببةً صوتًا مُقبِضًا مخيفًا، يتناثر التراب فوق الأشياء زاحفًا على الجدران..

لا نور، ولا كهرباء، بل ظلامٌ دامسٌ يُعمي الأعين.. لا بشر، لا حيوانات، لا حشرات، ولا حياة.

فقط موتٌ يغلف الأرجاء، الشوارع مُقبِضةٌ قاتمة..

الكُل مات!

من عاشَ منهم أضحى شبحًا يتلصَّص على الموجودات ليلًا ليسد صراخ بطنه التي لا تهمد لحظة عن تعنيفِ أنفاسه..

وفي وسط الصحراء، بعد أن صارت معظم الأراضي جرداء بلا زرعةٍ واحدةٍ وبلا قطرةِ ماء، يقبع كهفٌ مهيب، يجلس في ركنٍ ما من أرضه ولدٌ نحيفٌ رقيق البنية، جسده عظمٌ دون لحمٍ يكسوه، شعره طويلٌ أشعثٌ مجعدٌ غير نظيف، ملابسه رثة ممزقةٌ إرَبًا، وجهه

مُلطَّخ بالسواد جرَّاء القاذورات التي تغزوه، أظافره سوداء قاتمة طويلة حادة مقززة، قدماه حافيتان وجراحهما تتصدَّع ألمًا في دواخله..

تكوَّم مُتخفِّيًا خلف صخرةٍ ضخمةٍ حاضنًا قدميه والرعب يهتك أوصاله، يَذرِف دمعَه دون توقف، فلا مُؤنِس سوى زمجرته الكئيبة، وعيناه تدوران حول محورهما بلا ثبات؛ خوفًا من ذلك الرجل الهائج الذي يحوم حوله في الكهف كزوبعةٍ عاصفةٍ غاضبة، يبحث في كل صوب قابضًا على بطنه ضاغطًا عليها، في حين يسكُن يدَه حجرٌ صغيرٌ ثقيلُ الوزن. أخذ يتلفَّت حوله بتشتتٍ واضحٍ على معالم وجهه، يبحث عن الولد بشراهة، كأنه «زومبي» لا يتحكَّم في نفسه..

يُعنِّف الرمال بقدميه، يزيح الهواء بيديه كالمجنون، ويسير هائجًا غير منتظم الخطوات..

نحيل الجسد، هزيل الوجه، دميم الهيئة، مُغبَر الشعر، غير مهندم، قبيح النظرة، ذو رائحة كريهة عطنة مقرفة، ومليءٌ بالندبات كأنه يخوض حربًا يوميةً يستنزف فيها ما تبقى له من قوة. لا تختلف هيئته كثيرًا عن الولد الصغير ذي الخمسة عشر عامًا، كأنهما قد خاضا الحروب الجسدية والنفسية نفسها معًا.

رغم اهتزازه واختلال حركاته، كان يعافر للوصول، يعافر للخلاص، ... للحياة. فهو على وشك الموت، وبداخله صراخ العالم أجمع من حزنٍ وخوفٍ وجوعٍ لا يخمُد، فترادفَت حاله مع حالِ الولد، ولا اختلاف هنا سوى السعي والنيل؛ الرجل يبحث والولد يختبئ..

ظل يركض بين جدران الكهف، يبحث عن مبتغاه، لا يكَل ولا يمَل، فقط يبحث بعينين جاحظتين، خائفتين، وثائرتين..

في حين جلس الولد يبكي دون صوت، يستنفِد مشاعره الباقية، فما عاد يملك ما يَمُتُّ إلى الإنسان بصِلة، بعد أن قاسَى وعاش ما لا يتحمله بشر، فكان عجوزًا في سنه الخامسة عشرة. يسمعُ صراخَ الرجل المكسور، فيتخبط قلبه في قفصه مُنذِرًا بموتٍ قريب.

وفي ظل انهيار حصون الولد التي تهاوَت غصبًا، سمع وَقْع خطوات الرجل يقترب منه، فصرخ قلبه خوفًا بنبضٍ يلكُم قفصَه الصدري بلا هوادة، إذ كلما اقتربت الخطوات دنا معها الموت. ظلت الخطوات تقترب حتى لاصقت الصخرة التي يجلس الولد خلفها، فتوقف الهياج، وتسمرت القدمان، وساد الهدوء. ثوانٍ مرت ثقيلة فكانت كفيلة بهدم قلعته الخَرِبة، حاول التماسك، في حين طغى هدوءٌ جارِف صحبته أنفاس الرجل مخترقةً الهواء كنيرانٍ متأجِّجة. ضمَّ قدميه أكثر في محاولةٍ لاستمداد القوة منهما، تمنى أن تطول اللحظات، فتلك هي لحظاته الأخيرة الباقية، حاول أن يُهدِّئ من روعِه وأن يتنفس برويَّة، وتذكر تعليمات والده عن كيفية السيطرة على خوفه وابتلاعه، ثم حاول مجددًا أن يتمالك ذاته. مرَّت دقيقةٌ كانت كافية لسحب روحه؛ هو يعلم جيدًا أنه لم يتبقَّ له إلا القليل، ولكن الموت أسهل على الروح من لحظات انتظاره..

أغمض عينيه، والتقط نفسًا عميقًا، وفي لحظةٍ خاطفة، سُحِبت قدمه اليسرى، ليصرخ بصوتٍ مهولٍ ارتجَّت له الصخور!

نظر إليه الرجل، وبعد أن جثا عليه بركبتيه بثقلٍ لا يتناسَب مع وزنه، تقابلت الأعين الدامعة معًا، المُعذِّبة والمُعذَّبة، القاتِلة والمقتولة، الجارِحة والمجروحة، القوية والضعيفة، وكل معاني البطش والطغيان وعكسها. لينسدل ستار انعدام الإنسانية، وينصَب الجحود على قلبٍ ما عاد يشعر..

وبأعين مليئةٍ بالدموع، نظر الرجل في وجه الصغير، وبفؤادٍ ينزف دمًا وروحٍ تئن وجعًا قال بصوتٍ متهدجٍ يلهثُ بالألم:

- سامحني يابني!

ثم هوى -دون تفكير، دون شعور، ودون تأنيب ضمير- بالحجرِ الثقيلِ على رأس الصغير، لتتفجر الدماء في وجهه فيتلون بالأحمر القاني وترتسم عليه علامات الوحشية المُعزَّزة من شيطانٍ عاصٍ مريد! أعاد الكرة مرارًا دون تمالُك أعصاب، حتى إن رأس الولد تهشم كاملًا إلى أن صعدت روحه البريئة إلى السماء..

تملَّك الرجلَ بكاءٌ مجنونٌ ممزوجٌ بدافع البقاء، واختلط بمشاعره المتضاربة بداخله لتُكوِّن هالة مكثفة من الجحود حوله، فتبدل الضعف والهزيمة والانكسار إلى جبروتٍ طاغٍ وجَبلٍ بلا سَفحٍ على وشك الانهيار.

ترك الرجل الحجر جانبًا في حين تتنافس دموعه على الانهمار فوق الجثة، ولكن يده سبقَت كل شيء، وأمسكت بكتفِ الولد الصغير، ليتبعها هو بفتحِ فمه عن آخره، ثم اقترب بأسنانه من جثة المسكين وقضم قضمةً بنهَمٍ لم يعتَده من قبل، فهزم الجوعُ مشاعرَ الأب التي سكنَت قلبه، وسيطر عليه حتى نهش من لحم فلذة كبده بلا ذرة تأنيبٍ للضمير.

فعاش لحظات الجشع والطمع والظلم والشر..

ومع ذلك، علم في قرارة نفسه أنه على مشارف عَيش لحظات الانكسار والخوف والألم، والتي ستهتك روحه وقلبه بتشفٍّ بعد ابتلاعه لحمَ ابنه كي يستكين في معدته نارًا تقتله.

وبعد أن امتلأت بطنه من لحمِ المسكين، تراجع إلى الخلف مرتعبًا خائفًا، يضم جسده إلى نفسه منكسرًا، يتابع ببصره جثةَ الهزيل النائم على الأرض ساكنًا مجبورًا، والقهرُ قد تملَّك من دواخله، فنزفَت دماءُ الجحودِ من قلبه وأضعفته..

قام من رقدته، ومشى على الأرض يتسابق ناظراه يمينًا ويسارًا مع الدمعِ الغزير المُستمكِن منهما، سارَ كالفيضان الهائج، قلبه يقتله، ومشاعره تجبره على الاستسلام للبكاء. تحرك داخل الكهفِ بين ممراته، غير مصدقٍ ما حدث، لقد قتل ابنه، هشَّم رأسه والتهَم كتفه، فقط من أجل البقاء. وكيف سيحيا بعد أن أزهقَ روحَ من تقاسم معه كل لحظات الفرح والترح!

ظل يسير حتى خرج من الكهف هاربًا كالمجنون، فوقعت عيناه على شجرةِ تفاح مثمرة مزروعةٍ أمامه، كأنه لم يُبصِرها عند دخوله، وبجانبها عين ماءٍ تُغدِق فيضها، فصُعِق للحظاتٍ قبل أن يمسح عينيه، سحب من الهواء ما يشبع رئتيه قبل أن يركض، في حين تخبطت مشاعره بدواخله، لم يعلم أيفرَح أم يستمر في البكاء، ثم سقط على ركبتيه بجانب

عين الماء، وغمسَ يديه في المياه غير مصدق، اعتقَد في باطنه أنه يحلم، وبعدما تأكد أن ملمسَ المياه الناعم يدقُّ مستشعرات أنامله، قرَّبها من شفتيه، كاد يرتشف الرشفةَ الأولى، رشفة الحياة، ولكنه شعر أن الدنيا قد انقلبت فجأة، الأرضُ صارت سماءً والعكس، إذ انكفأ على وجهه..

هناك من خبطَ رأسه بحجرٍ ثقيل ففُتِحت دماغه، اعتدل بعد سقوطه، ليُبصِر عجوزًا في سنِّه الستين، يقف مرتكنًا إلى عكازٍ خشبيٍّ بدائي الصنع، وجهه ذو لحيةٍ كثيفةٍ ناصعة البياض، وملامحه حادة..

جثا العجوز على ركبتيه، قرَّب وجهه من وجه ذاك النحيل، كاد ينطق الأخير بكلمة، لكنه فوجئ بضربةٍ أخرى على فمه بالصخرة، ضربة هشَّمت أسنانه حتى ابتلعها، وأُتبِعَت بعدة ضربات، حتى إن الرأس كاد يتهشَّم، ليصمت الرجل إلى الأبد. وألقى العجوز بالحجر بعيدًا، ثم استند إلى عكازه، وعاد بجسده إلى الوراء، ثم انغمس بهدوءٍ -كما ظهر- بين جنبات الكهف.

(١)

«لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى»

«الإله هو من يستطيع أن يهَب مَن يريد الخلود..
ولكن، ما هو الخلود؟ أن يعيش المرءُ حتى الموت؟ أم أن يموت حتى يعيش؟!»

السامري إلى الأرقم

الخلود..

المشهد غير مرتب..

المشاعر ثائرة وغير مهندمة!

ملَك الموت يقف حزينًا مُشمِّرًا ساعديه ويوشك على التقاط أرواحٍ كُتِب عليها هجر أجسادها الآن.

ينظر إلى من ظهَر من العدم، إلى ذلك المجهول الذي قُدِّرَ له قلبُ كل الموازين..

الحياة على وشك الانتهاء، هو يشعر بذلك..

دواخل الإنسان سوداء، لا طيبة هناك، الشر متربع على عرشه في أزهى عصوره، وها قد جاء من سيعبث بأوتار مشاعرهم الدفينة فتثور شرورهم غضبًا..

الأجواء مشحونة وغير مستقرة، والمشاعر متضاربة في قلب هذا وذاك؛ بين خوفٍ وانكسار، غضبٍ وانتصار، وبين تنفس عبق الحياة بعد انهزامِ الموت واحتضار الفَناء..

جثةٌ دُفِنت منذ آلاف السنين، عادت لتتنفس، فأذهلَت العقول بمعجزة الخلود..

كل فردٍ من الموجودين حمَل عقلُه معلومةً صغيرةً على قدرِ معرفته واستيعابه، حتى ذلك الذي ماتَ لينول الخلود، لا يعلم سوى ما عُلِّم..

غزَت الرهبة قلوبَهم جميعًا وحتى مَن كان له دورٌ في سيناريو إعادته إلى الحياة منذ الوهلة الأولى، إذ إن مجرد نظرة منه قادرةٌ على اقتلاع الروح من جسدها في طرفة عين، ولذلك تراجعَ الجميع عن موضعه، فأتى تصرف البعض ناتجًا عن رعبٍ من مجهولٍ عاد من قبره بعد موته، وتصرف البعض الآخر كان تعظيمًا وإجلالًا له..

ابتعد الشيطان (برقان) بعدما نفخ في البوق، وتلفظ بكلماتٍ بثَّت الحياة في قلب جثةٍ قُبِرَت منذ دهور، ثم اختفى بغتةً كأنه ذاب في الهواء، لتجحظ أعين الموجودين من معجزاتٍ تحدث وتُرهِب الأبدان. لم يُعطِ (جابر) بالًا لما حدث لـ(برقان)، فهو يعلم أنه شيطانٌ مريد، فقط علَّقَ ناظريه على (الأرقم) العائدِ من جحيم الموت، إلى خلود الحياة. سقط من يديه كيس الرمال الأسود من هول الحدث، انتثرَت ذراته أرضًا فتفرَّعت فزِعة، وما زال بصره متمركزًا نحو جثة (الأرقم) التي صارت تحرك رأسها باستمرارٍ في دوائر منتظمة ناظرةً إلى أعلى، لم يستطِع تسليط عينيه عليه أكثر، فخشعَ بجسده ناظرًا إلى الأسفل مُطأطأً الرأس منحنيًا إلى الأمام، ثم ركع فوق الرمال التي تناثرت أرضًا، ووضع يده اليسرى عليها ليستند ويحاول الثبات إذ أعجَزه عن الحراك كِبَر سنه، وما إن لامسَت يده الرمال حتى شعر بشيءٍ قد اخترقَ دواخله، كأن سكينًا قد رُشِق فيه، حاول تمالُك نفسه حتى يبدو أمام (الأرقم) الخادمَ المطيعَ الذي ركع فور ظهوره، فنجحَ في ذلك رغم موته كمدًا من الألم.

اتسعت عينا (غريب) في ذهولٍ ورعبٍ هتك مشاعره كلها دفعةً واحدة، وفرد ذراعه الوحيدة التي يمتلكها إلى الخلف، ثم شُدَّت أعصابه وتصلَّبت أصابعه، وبأظافره تشكَّلت حركة لا إرادية، فتشبث بالأرض وقسمات وجهه على وشك التَّفتت خوفًا..

زحف (بدر) إلى الوراءِ واستمر يزحف والرعب يكتسح بدنه خليةً خلية، في حين تخبَّط عقله داخل جمجمته في أفكارٍ مرعبةٍ تخبره ببشاعة ما تسبَّب فيه، بل شعر في أعماق

قلبه أنه في اليوم الفَصل للعالم أجمع، وأن ما سيحدث تِلو تلك اللحظات سيكون أبشعَ مما يتصوره عقله!

انتفض جسد (أكرم) وتراجع مُسلِّطًا ناظريه نحو التابوتِ باعثِ الهول والمُنذِرِ بالخراب، وحاول لملمةَ شتات المتبقي من نفسه في حربٍ ضروسٍ هو خاسرها..

أمسك (جاسر) بيد (عمر) وقد تملكه خوفٌ عُضال، إلا أن الأخير ارتعش فور لمسه إياه وقد تذكر اعتراف أخيه بشذوذه، فسحب نفسه وابتعد عنه مشمئزًّا، وإذا بهما يعودان بظهرهما إلى الوراء مشدوهين لما يجري أمامهما..

وفي الوقت نفسه، كانت (سارة) لا تزال تتفقد سقف القصر بعينين باهتتين على وشك الانطفاء، ولم تكن تملك ذرة وعي واحدة تُنبِّئها بما يحدث حولها، إذ إن كل ما كشفته عيناها لها فقط هو جثة زوجها المُعلَّقة في قصر والدها كما الزينة المقززة والموجعة للقلوب.

أفاق (الأرقم) من سباته فطغى صوت أنفاسه مُعنِّفًا آذان مَن حوله كأنه قد خرج من سباقٍ لتوِّه، في حين اندفع الغبار من أنف جثته التي تشتاق إلى رحيق الحياة ورائحتها. أفكار وذكريات تتخبط في عقله العظيم عن (السامري) الذي أثبت نظرياته وأهداه الخلود على طبقٍ من ذهب، صحا ناظرًا إلى السقف فأبصر نجوم السماء تتراقص أمام عينيه كأن لا حاجز بينه وبينها، وظل يلفُّ رأسه كحرباء محاولًا استعادة قواه ليعتدل..

لم يُلقِ نظرةً واحدةً إلى عين أحدهم، وخفتت كل الأصوات حوله عدا أصوات الأنفاس الخائفة..

في حركةٍ بطيئة، ثنَى ظهره إلى الأمام يُطَقطِقه ليشُدَّ عوده، وفردَ ذراعيه أمامه حتى طالتا قدميه داخل التابوت، ثم اعتدل فكان كما كلبٍ يتمطَّى ليفرد جسمه الكسول، فشدَّ نفسه أمامًا وخلفًا، وحرك ظهره كموجٍ يتكسر، ثم جلس نصف جلسةٍ لينحني بركبتيه كما

الراكع، رأسه إلى أسفل ويداه مُلقَيتان بجانبه، كأنه يستعيد قوته بعد ركنتهِ التي طالت إلى آلاف السنين، وحدث كل ذلك أمام أعين الحضور الفزِعين فيما عدا (جابر)، والذي ظل شاخِصًا بصرَه أرضًا دون حراك..

في أثناء استواء جسده على طول ركبتيه، التفَّ حول نفسه في أنصاف دوائر، يمينًا ويسارًا، في حين ظلت يداه ممددتان في وضعهما إلى أسفل. ظل هكذا لبضع ثوانٍ قبل أن ينتفض انتفاضةً أقامت وضع جسده كله وانتهت بوقوفه على قدميه منحني الجسد إلى الخلف كـ«الزومبي» مهزوزًا غير متزن، ثم شرع يمزق القماش البالي الذي يغطي جسده بالكامل، حتى بدا جسمه عاريًا يكسوه جلد الثعبان الذي لبسه بعد أن سلخه (السامري). كان ما يزال مُنحنيًا إلى الخلف ولكن رأسه مثبتٌ إلى الأمام، فعدل انحناءة جسده ليكون بالجنب، ثم رفع قدمه اليمنى وألقى بها خارج التابوت عازمًا على الوقوفِ ثم أتبعها باليسرى، ليهتز جسده يسارًا ويمينًا كأنه الحي الميت الذي تعود الروح تدريجيًّا إلى كل عضوٍ فيه مثل المصل الذي يتغلغل ببطءٍ داخل خلايا جسدٍ عليل.

وقف خارج التابوت، ثم انتقل بناظريه إلى (جابر) وتقدم خطوتَين إلى الأمام، فشعر (جابر) بحرارة جسده الحارِقة وقد احتوته بقُدرةٍ عجيبة. أخذ (الأرقم) يتأمله لدقيقةٍ تامة، فارتعش (جابر) في وقفته إثر قربه منه، وجحظت أعين الأبناء في رعبٍ كاد يمزقهم حينما تفرَّسوا قسمات جسده وملامحه..

التقط (الأرقم) نفَسًا عميقًا مُحمَّلًا بريحٍ مُشبَّعةٍ بعبير الدنيا، ثم انتقل بناظريه نحو أولاد (العطار) الماثلين أمامه جاحظي الأعين غير مصدقين ما يحدث، وقد أوشكت عقولهم على التلف. تفرَّس في كلِّ واحدٍ منهم على حِدة، قبل أن يقول بصوتٍ جهور مهيب مرعب تقشعر له الأبدان:

- لو كنتُ مكانَكم، لقتلتُه.

ثم صوَّب عينيه نحو (جابر)، والذي تسمَّر راكعًا وهو يتألم من شيءٍ لا يعرف سببه، فيما يتخبَّط نبض قلبه كما طبول الحرب بعدما سمع كلام (الأرقم) الذي زادَه خوفًا، فشعر أن دواخله تغلي كالبركان الثائر..

صمتٌ طالَ أحسوا فيه أن الأمرَ أعظم من أن تُفسِّره عقولهم، وتلك الجملة لـ(الأرقم) أخذت تجول في إدراكهم لربما يستوعبون، لكنه فاجأهُم بجملةٍ أخرى وجَّهَها -في هذه المرة- إلى (جابر):

- ولو كنتُ مكانَك، لفعلتُ قبلَهم.

بعد أن ألقى كلماته المُبهَمة، اعتدل بجسده وسار متجهًا نحو باب القصر، فدفعه وخرجَ دون أن ينظر للحظةٍ إلى الخلف..

رحل هكذا دون سابق إنذار، وترك خلفه الفتنة التي أشعلها بين الأب والأبناء المزيفين، تركهم مذهولين مرتعشين خائفين وأعينهم تتقابل في ذعرٍ ورعبٍ ورجاء..

والكثير من القلق.

****

«وما الذي تستطيع روحي فعله لشخصٍ يدّعي الألوهية؟!»

الأرقم إلى السامري

المعجزة الأولى..

خيَّم الليل على الموجودات كالوحشٍ مُلتهمًا في ظلاله الجميع، وبسط جناحيه على السماء فشقَّه القمر من المنتصف، وهرول مهاجمًا الفراغات ليصبغها بالأسود الحالك، في

حين انسدَل شعاع النور من القمر قاصدًا جسد (الأرقم) الذي يسير ثابتًا ويلُف على جسده عباءةً تغطيه من رأسه حتى أخمص قدميه، والتي كانت غريبة الشكل لم ترِد في أيٍّ من الأزمان أو الثقافات المختلفة..

سار (الأرقم) متنقِّلًا بين الأزقة فلا يصطدم بالعوامِ من الناس، كان ينساب باحترافية جاسوسٍ امتلك موهبة التبخُّر، لا يتلفت حوله، يمشي بانتظامٍ ويتوقف من الحين إلى الآخر قبل مرور أحدهم حتى لا يُصيبه بالفزع، كأنه يعلم بمروره مسبقًا، حتى وصل إلى وسَط المدينة..

لدغت الساعة بعقاربها الثانية بعد منتصف الليل، ومع ذلك، تعج الطرقات بالناس في كل مكان، فوسَط المدينة صاخب مدى اليوم لا يهدأ، وهنا خرج (الأرقم) من أحد الأزقة فمشى بين السيارات دون توقف، كأنه يُعلِم الناس بوجوده. تعرقلت حركة المرور وتخبطت الصفائح الحديدية ذات الأربع عجلات في حادثةٍ لم ينتج عنها ضحايا، حتى إن مالك إحدى المركبات العمومية أخرج رأسه من نافذتها، ثم تحدث بلكنةٍ يغلبها الاعوجاج نتيجة المخدر الذي شلَّ لسانه، موجِّهًا كلماته نحو (الأرقم) المتسبب في الحادثة:

- يا حمار يا ابن الحمار!

لم ينتبه أحدٌ إلى السائق من هول المشهد وخاطف الأنظار الذي يسير وسْطهم كالملكِ على الدنيا وما فيها، فازداد غضبه لحركة السير التي شُلَّت تمامًا، وضغط على دواسات عربته وأحكَم مِقوَدها بعنفٍ محاولًا التملُّص من بينهم، وفي طريقه احتكَّ بسيارةٍ من آخر صيحة، فرمق مالكَها بنظرةٍ غاضبةٍ وعيناه تكادان تنزفان دمًا لشدة احتقانهما بالسخط، وبقسمات وجهه الغليظة أقسمَ في دواخله بأن يترجَّل على قدميه ليُطيح بكل من يعترِض محاولَته للفرار، وعندما تصادمت عيناه مع مالك السيارةِ الحديثة، أغلق الأخير النافذة السوداء القاتمة خوفًا من الاشتباك مع ذلك المعتوه المُخدَّر..

ترجل بعضُ الناس من سياراتهم فوقفوا في ذهولٍ تامٍّ ناظرين إلى ذي الرداء العجيب الذي ظهر من العدم، إلا أنهم كانوا لم يروا ملامحه بعد، ولو فعلوا لأصابتهم نوبة صرع ممتزجةٍ بالرعب فأردتهُم مقتولين!

انهالَت مزامير السيارات تتعارك في محاولةٍ لفتح الطريق الذي أُغلِق بلا رجعة، مما أثار انتباه «أمين شرطة» ذي جسدٍ بدينٍ متكوِّر، والذي كان يقف على رأس الطريق وبجانبه «عسكري مرور» بدا عليه التغرُّب عن بلدته الريفية وأنه جاء يتخبط في طرقات القاهرة الموحشة من أجل تأدية الخدمة العسكرية الإجبارية..

أنهى (الأرقم) سيره بأن وقف فوق كوبري عالٍ يمر فوق مياه النيل، تسلَّق سورَه ووقف عليه بثبات، ثم أظهر يديه اللتين تشبهان الثعابين أمامه، وشرع في تحريكهما راسِمًا موجات متعرجة في الهواء، ففتح البعض أفواههم في ذهول، وضحك البعض سخريةً مما يدور، في حين أخرج البعض الآخر هواتفهم المحمولة والتقطوا صورًا وسجلوا مقاطع فيديو لما يحدث أمام أعينهم كأنهم يتابعون مشهدًا كوميديًّا..

استمر الوضع لنصف دقيقة، ثم استدار (الأرقم) بجسده مواجِهًا الناس، فاقترب «أمين الشرطة» ليوقف هذا المجنون عنْ ما يفعله، وما إن اقترب منه حدَّ الالتصاق حتى سقط وشاح (الأرقم) -الذي يتوارى خلفه- في أثناء التواء رأسه مع حركات يديه، ففُزِع البدين من وجهه المرعب الذي كاد يسلبه روحه من نظرة عين، وعاد إلى الخلف خطوتين في خوفٍ وذهول، ثم سحب مسدسه من جيبه وسلطه نحو (الأرقم) رغم فراغ خزان المسدس من الطلقات، فهو يحمله كمجرد زينة ولاصطناع الوقار كي يعلم الناس بسُلطتِه، ولم يستخدمه لمرةٍ في حياته منذ أن تسلَّم مقاليد عمله..

شرع (الأرقم) في التلوِّي بجسده كله، فسقط رداؤه بأكمله أرضًا وظهرَ جسمه ذو الجلد الذي يشبه جلد الثعبان في نقوشه. انقبضت أفئدة المتجمهرين حوله، ولكن البعض منهم كان لا يزال يقترب، والبعض الآخر انسحب ليستقل سيارته، ومَن لا يملك واحدةً

ساقَ قدميه نحو منزله في فزعٍ غير معهود، في حين لم يُعِر (الأرقم) انتباهًا لأحدهم، واستمرَّ فيما يفعله..

وإذ فجأة..

تصلَّب جسده، ثم وضع يديه على صدره على هيئة حرف (X) في الوضع الأوزيري كما الذي يُحنِّط عليه الفراعنة موتاهم، نظر في أعينهم نظرةً أدخلت الرَّوع على قلوبهم، ثم همس بصوتٍ خفيض ولكنه كان ذا ترددٍ اخترقَ آذان الجميع، فأخبرهم بما لم يفهموه، بما سيكون له أثرٌ حتمًا عظيمٌ في المستقبل القريب:

- فلينقلِب الزمان، ولتلتهموا ما تبقَّى من بطونكم، على أمل النجاة!

وبعد أن نطق كلماته، ألقى بظهره بلا التفاتٍ صوب النيل، لتبتلعه المياه في غمضة عين! اقترب الناس مهرولين نحو السور ينظرون إليه، ولكنه كان قد اختفى، وتبع ذلك حدثٌ من أبشع ما مر على تاريخ «مِصر»، إذ دون سابق إنذار، وبإرادةٍ ومعجزةٍ خارجةٍ عنْ ما في استطاعة البشر، شرع منسوب المياه يقل تدريجيًّا وبسرعةٍ مهولة، وبدا أن النيل يجف. جحظت أعين الناس، وتملكهم خوفٌ رهيبٌ كاد يقتلهم رعبًا وهم يتابعون نهايتهم بأنفسهم، ولكنهم لم يستوعبوا ما هم مُقبِلون عليه، حتى أوشك مجرى النيل على أن يجفَّ كليًّا. وبينما هم في ذهولٍ مما يجري، لاحَ من تحت المياه جسدٌ نائمٌ غارقٌ مفتوحةٌ عيناه عن آخرهما وكان متخذًا وضعية ملوك الفراعنة، إنه (الأرقم) الذي حضر من العدم لينشر بينهم الفزع..

استمرت المياه في الجفاف حتى ظهر جسده كاملًا، وتوقف الأمر الذي أرهب أبدانهم، إلا أنه لم يتبقَّ غير القليل من مياه النيل، والتي ستكفي استهلاك أهل مصر لمدة لن تتعدى بضعة أسابيع قبل نفاد آخر قطرة. حينها وقف (الأرقم) فنظر فوقه إلى أعين مَن ارتسمت معالم الموت بداخلهم، ثم نطق بصوتٍ ضخمٍ هز كيانهم، فتقلقلَت أرواحهم في مخادعها مُحاوِلةً الخروج بعد ما سمعته من كلماتٍ مرعبةٍ رفعت مستويات الرهبة في قلوبهم إلى أقصاها:

- إن كنتم تظنون أنه حان وقت الفزع، تمهَّلوا؛ أوانه لم يعُد ببعيد.

وبعدها رحل من فوره بسرعةِ الضوء، فاختفى نهائيًّا وترك الناس مذهولين غير مصدقين ما حدث ومحدقين في القليل المتبقي خلفه من مياه النيل!

فنهشت الأفكار عقولَهم عن نهاية عالمٍ ربما بدأت قيامَته.

****

«كنزٌ لا مُجدٍ ولا نافع، لمن ظلم، لمن سرق، لمن قتل، ولمن كفر.. ولو أخذ الكنز بشر، فنسلٌ من نسل سارق، سبعةٌ عددهم، لا يحددهم هو، يحددهم القدر.. من غير النسوة، وإن كان، فالنساء يحرُسن، والرجال يُدفَنون عند بدور القمر»

السبع ورقات

العائلة..

الصمت والقلق زادا الموقف مهابة، والتوتر والارتعاش اللذان غزَوَا القلوب تسبَّبا في انهيار كل الحصون، فلا ثبات، ولا معين، ولا شعورًا حسَنًا سوى الخوف المرير. زمجرات القلق والرعب قد شلَّت الأجساد، والذهول ارتسم على مُحيًّا الجميع دون إرادةٍ منهم فاجتاحَ قسماتهم وشكلها كما أراد.

عائلة اتَّبعت نزواتها وأفعالها الشريرة فكُتِبت نهايتها سوداء، وخُطَّ قدرها بالمعاصي فجاءت النهاية صادمةً لاذعةً على غير المتوقع، مما صعقهم لشدة المفاجأة..

أحلامهم السرمدية عن المالِ وجنانِ الأرض والسعادة المُطلَقة ساقَتهم دون شعور نحو أفعال السوء بلا مبرراتٍ مباحة، الملذات هُيِّئَت لهم على صورة أراضٍ تجري من تحتها الأنهار، وكل ذلك كان قناعًا تستَتِر خلفه لتغريهم تباعًا، أما الحقيقة أنها الجحيم تستوي أسفلهم.

عقولهم تتساءل عنْ ما يحدث، عنْ ما يدور حولهم، إن الأهوال التي لحِقَتهم وعاشروها أسفل الأنقاض قادرةٌ على إتلاف أدمغتهم، ولكنهم يحاولون التماسُك..

صمتٌ حالكٌ كسا الأرجاء ظلامًا، ولا صوت سوى لَهَثات الأنفاس الثقيلة التي غطَّت المكان، فيما تتقابل أنظار الجميع الحائرة مع بعضها بعضًا، يُنقِّبون فلا يجدون للحقيقة مستقرًّا..

هنا تحدث (غريب) لأول مرة، فقضَى على السكوت المُطبِق على نفوسهم، وقد خرجت كلماته غريبةً كاسمِه ليست مفهومة:

- كنت عايش بروح ميتة، ودلوقتي ميت بروح عايشة.. أنا دلوقتي فاهم حاجات كتير، وكل اللي فاهمه مخليني جاهل!

لم ينتبه إليه أحد، كأنه يتحدث مع نفسه.

اعتدل (جابر) من ركوعه بعد رحيل (الأرقم)، والذي صارت كلماته ترن في أذنه لتنفيذها، فيما أحدثَت نبضات قلبه ضجيجَ طبول المعارك لتثور داخل صدره، وزاغت عيناه يمينًا وشمالًا تتفقدانِ أبناءه -أو ذريته المزيفة- والهلع قد فتكَ بوجوههم.

ضغط على عكازه، وشعر بألمٍ فظيعٍ قد تمكَّن من جسده، وحين رفع يده التي لامسَت الرمال أمام عينيه، أبصر شيئًا غريبًا، إنها تتعفن كأنها يد ميت! الألم يغزو جسده كما الدم يسري في عروقه، عقله يصرخ، نبضه يتهاوى، وجسده يتعفن؛ شعر أنها النهاية، تلك اللحظة التي سيتحدَّد بعدها مصيره، وهو الذي يعرفه قبل سنواتٍ طوال، لكن لا فارِق، إذ إنه المُقرَّب من خادِم الإله، وسينول -بلا شك- الجزاء الحسَن.

رمقه (بدر) -في أثناء وقوفه- بعينين تبحثان عن إجابات، بعد أن أضحى كَهلًا عجوزًا ولكن بجسدٍ مشدودٍ بعصبٍ من حديد، وعقله يلُف حول نفسه كما عقرب الثواني للساعة يُذكِّره بجملة (الأرقم) المهيبة، وشروره تتلذَّذ بالتلاعب باندفاعه الوشيك، فتغلَّب عليه الغل والكُره، وانتظر لحظة الحركة الأولى ليتفجر كالبركان! لكنه لم يستطِع منعَ لسانه من نطق كلمات التعجُّب خاصته، ولذلك قال مستغربًا في أثناء نظره إلى والده باحتقار:

- كل اللي حصلنا ده، علشان نطلَّع واحد مدفون حي! أنا مش فاهم أي حاجة!

ثم نظر إليهم جميعًا وعيناه تطقَّان شررًا وغلًّا وقسوة:

- ومش فارق معايا إن أنا أفهم.

تحرك (أكرم) خطوتين إلى الأمام، وقد رُسِمت على قسمات وجهه البلاهة والنفور وعدم الفهم، وتذكر أنه ما زال عِربيدًا لا يملك قرشًا واحدًا، وأن كل ما حدث له لا عائد منه، وتناسى ما يحدث الآن من غرائب تُلهِب العقول، وما مرَّ عليه مضَى كأنه حلمٌ وأفاقَ منه، ثم تمتَم متسائلًا فتحدث مع نفسه وقد غلبه الجنون:

- فين الكنز؟ هو الكنز أب اتدفن طلع عايش؟! ولا الكنز كان في الرحلة زي الحواديت البايخة القديمة اللي كانت بتتقال.. ولا ده مش كنز أصلًا، واحنا طلعنا ضحية سحر سخيف؟!

لم ينتبه (جابر) إلى أيٍّ من حديث أبنائه، فهو يشعر بألمٍ رهيبٍ جراء تبدُّل خلايا جسده بالكامل، كأنه جثةٌ على وشك الفناء. استندَ إلى عكازه، وتحرك خطوةً ثقيلةً إلى الأمام، كاد يسقط أرضًا، وتساءل من دواخله عنْ ما يحدث له، تلفَّت حول نفسه، ومن حيث لا يدري هجم عليه عطشٌ مهول، فقال بصوتٍ خفيض:

- مَيه!

وبعد أن تلفظ بكلمته، تفقدَّه أبناؤه -بتعجبٍ زادهَم رهبة- في أثناء رفعه يده اليسرى في نطاق بصره، لتكون الفاجعة، إذ إن إصبعًا من أصابعه سقطت أمام عينيه،

ليتبقى أربع أصابع فقط، هكذا، دون أي فعلٍ قد حدث! جحظت عيناه وأعين الحاضرين، وقد شعر بالألم يهتك جسدَه يريد إزهاقه، واشتمَّ رائحة عفنٍ تفوح منه، لتتفشَّى نحو أبنائه وتُعنِّف أنوفهم فاشمأزوا منه، كأن ذلك عقابٌ من الخالق عنْ ما فعله في حياته. تملك منه عطشٌ مهيب، فقال مرةً أخرى دون إرادةٍ منه:

- مَيه!

لم يكن يبالي بما يحدث لجسده، هو فقط أراد التخلص من ذلك الشعور المميت، أراد أن يرتشف بعض الماء. تنقل بناظريه بحثًا عن أي زجاجةٍ يسكنها ماء، حتى وقعت عيناه على واحدةٍ ملقاةٍ على الأرض، فألقى بعكازه وركض نحوها بهلَعٍ، سقط أرضًا بالقرب منها قبل أن يصل طرفُه إليها، كاد يمسكها، لولا أن (بدر) دهس الزجاجة بقدمه ثم ركله في وجهه، ليتراجع إلى الخلف ويقع على ظهره متألمًا، ورغم ذلك لم ينطق سوى كلمةٍ واحدة:

- مَيه!

تحامل على جسده ويديه اللتين تتعفنان، وزحف مجددًا نحو زجاجة الماء، ليركله (أكرم) في وجهه هو الآخر، فتهشمت أنفه وتساقطت الدماء منه بغزارة، كأنه احتاجَ إلى كل تلك القسوة ليشعر بالألم، إن جسده يضجُّ بالوَصَب وهم لا يشعرون..

صرخ (جابر) بصوتٍ خفيضٍ في أثناء تعلُّق ناظريه نحو زجاجة الماء، ولكنه لم يندفع تلك المرة، إذ رمق درجَ القصر بعينين دارَت بهما الدوائر، وبدا عليه أنه يفكر في شيءٍ لا تُحمَد عقباه. سحب عكازه في حين سقوطه على الأرض، واستند إليه محاولًا الوقوف، فنجح بعد كبيرِ مجهود، ثم شرع في تبديل خطواته بحذرٍ وارتعاشٍ واضح ليسوقَ نفسه نحو درج القصر فاستقلَّه، في حين لم تزل الصاعقة تُفتِّت استيعاب الأبناء، والكُره قد تملك كل ذرةٍ في قلوبهم، فصاروا على وشك ارتكاب جريمةٍ ستُنزِل عليهم الغضبَ طوال حياتهم.

وصل (جابر) إلى نهاية الدرَج بعد أن بذل أكبر مجهودٍ قد امتلكه يومًا، فقد تخبَّط من الدرجةِ إلى الأخرى حتى شعر في بعض الأحيان أنه لن يصل إلى مبتغاه. سلك الممرَّ

المؤدي إلى الغرف الإحدى عشرة، سار فيه إلى أن توقف أمام غرفته، أخرج مفتاحها بأصابعَ بالية، ثم رشقَه في قفلها بصعوبةٍ قتلته، ولفه ليُصدِر بضع تكَّاتٍ علامةً على الترحاب، ففُتِحت على مصراعيها ودلف إليها على مرأى منهم جميعًا.

أغلق الباب خلفه، ووقف أمام السيدة الجالسة على الفراش أمامه، يتفرسها، فيما تنظر هي إليه بخوفٍ وألمٍ وانكسارٍ ممزوجين بحقدٍ وغلٍّ وكرهٍ طَغَوْا عن الحد المعقول. تقدم باتجاهها مستندًا إلى عكازه، ورفع يده ليجذبها نحوه بقوة، فصفعته بأقصى غضبها على وجهه، ليتراجع إلى الخلف متألمًا، ثم دفعته بقوةٍ ليتعرقل ويسقط أرضًا، وصرخت استنجادًا قبل أن تركض نحو الباب وتفتحه، لتخرج من الغرفةِ وتستقل الدرج إلى أسفل..

فغرَت أفواه الأبناء جميعًا وجحظَت أعينهم عندما خرجت السيدة من باب الغرفة، سيدة في الثلاثين من عمرها، بدا على كتفها جرحٌ عظيمٌ ملفوفٌ برباطٍ أبيض، وكذلك رأسها بدا تكوينه عجيبًا، إذ لم تمتلك شعرةً واحدة، بل كانت صلعاء قبيحة الوجه مقززة الجسد ومُغلَّفة بالأوساخ والدماء العفنة..

دققوا بأعينهم في قسمات وجهها، فأخذتهم الصاعقة وهم واقفون بعدما اصطدموا بملامحها..

أيُعقَل أن تكون تلك أختهم (جميلة)؟!

إنها هي! الملامحُ نفسها والهيئةُ ذاتها ولكنها مُصابةٌ بأشد أنواع التشوه.

خرج (جابر) من باب الغرفة، ووقف كالمجذوب، تسمَّر في مكانه للحظات، لتسقط إصبعٌ أخرى من يده اليسرى على مرأى من الجميع، فأُصيبوا بالفزع مما يحدث له، وهو لم يشعر إلا بألمٍ مهولٍ قد تملك كل خليةٍ في جسده، وبعطشٍ قد ملَّحَ حلقه حتى جف. تحرك بضع خطوات نحو الدرج، وقد تعرَّق جبينه أثر المجهود المبذول، فنزل درجةً تلو الأخرى، وحاول إنهاء تلك المشقة مع ضعفِ جسده ومرضه، وقد تعرقَل في أثناء ذلك عدة مرات، ولكنه جاهد وعافر بكل ما أوتي..

بعد أن أنهى الدرج أسفل قدميه الباليَتَين، وقف لاهثًا ككلبٍ أجربَ على وشك الموت، ثم دسَّ يده اليمنى داخل جلبابه، وأخرج سكينًا مسنونةً ورفعها على مرمى بصره. رآهُ الجميع بفزع وهو يتحرك بخطواتٍ ثقيلةٍ نحو (جميلة) التي صرخَت بخوف، فسارعوا ووقفوا بجانبها في استعدادٍ لأي حركةٍ غادرة، وعندما اقترب منها دفعه (بدر)، فسقطت منه السكين وتكوَّم أرضًا ككرةٍ هوائيةٍ على وشك الانفجار..

ركض (بدر) نحو السكين، أمسكها بيده، واقترب من (جابر) الذي قال:

- مَيه، عاوز أشرب، بموت!

رائحته تتفاقم وتنتشر بسرعةٍ مهيبة، كأنه جثةٌ تحللت وتعفنت منذ أيام حتى لم تعُد تطاق. اقترب (بدر) منه فهاجمَت أنفه الرائحة، ابتعد على الفور آنفًا، ووضع جلبابه على أنفه وفمه، إذ كاد يُخرِج ما في معدته، في حين أن الرائحةَ قد هاجمَت أنوفهم جميعًا، ليتراجعوا بخوفٍ ورعب، شعروا أن ما يحدث لـ(جابر) ليس طبيعيًّا.. الأمر مرعبٌ حدَّ الجنون!

في تلك اللحظة، نظر (جابر) بضعفٍ إلى الرمال المتناثرة من الكيس الأسود أرضًا، وقد علم من دواخله أن ما يحدث له بسبب ركوعه عليها ولمسها، تألم بصوتٍ مكتوم، وقد بدا عليه الموت آكِلًا كل أوصاله..

وفي لحظةٍ خاطفة..

وأمام أبصار الجميع..

كأن المعجزات لم تنتهِ بعد..

فُتح باب القصر بقوة، ليُصعَقوا جميعًا دفعةً واحدة، وولجت على الفور عاصفةٌ صغيرةٌ متذبذبة، مرَّت من جانبهم، فابتعدوا فزعين، وصلَت إلى الرمال، ولفَّت عليها كأنها تجمعها، فحملتها كلها والكيس الأسود، ثم عادت أدراجها بسرعةٍ مهولةٍ لتخرج من باب القصر، والذي أُغلِق خلفها بقوةٍ آلمَت آذانهم من صوت صدمتها..

ليقفوا جميعًا جاحظي الأعين خائفين يرتعشون مما يحدث لهم!

****

«أتعلَم، أنتَ أبلغ من أن تُقتَل! هناك شيءٌ أراه فيكَ ولا تراهُ في نفسك، خُذه إن أردت ثم اخرج، واذهب لتكون ملِكًا.. إن استطَعت.. لم يكُن بحثُك عني، في العصر الذي ولى، عصر فرعون، وسعيُك لأن تُحدِّثني، وفضولكَ لمعرفةِ اختلافي، بسبب الرمال، فهي لم تكن موجودةً منذ البداية»

السامري إلى الأرقم

في كنَف فرعون موسى..

تجَمهرَ حشدٌ ضخمٌ يضم بين جنباته سكان مِصر كلها، الأقباط وبنو إسرائيل وقفوا مرتصِّين كالنمل يشاهدون بأعينهم خشبةً عظيمةً يقف عليها سحرة (فرعون) في تقابُلٍ مع (موسى) عليه السلام، مشهدٌ تقشعِر له الأبدان، تحدٍّ بين رسول الله ومُدَّعي الألوهيةِ فرعون مِصر الجبار..

جلس (فرعون) على عرشه المصنوع من الذهب الخالص والمزخرف بفصوص الألماس البراقة، وحوله عبيده يُقلِّبون الهواء من فوقه بريش النعام الضخم المثبَّت في عصا خشبية طويلة، وعلى جانبيه يقف حرسه الخاص كالتماثيل مستعدين لأي غدرٍ يتربَّص به، ونصف جيشه منتشرٌ بين الناس وعلى خشبة العرض وفي كل مكان كالجراد..

وقف (موسى) يناجي ربه بقلبه الطاهر، في حين اشتدَّ عود السَّحرَة الكفرة أمامه وقابلوه بابتسامةٍ تحمل الخبث المبين، لحظاتٌ طالت ووجوه الناس عالقةٌ بمن يقول إنه

رسولٌ من الله الإله الواحد الأحد، وصمتٌ زاد الموقف رهبةً فأطْبَق على الأنفاس، حتى قطعه أحد السَّحرَة بقوله:

- يا موسى، إما أن تُلقيَ وإما أن نكونَ نحن المُلقِين.

تخللت الكلمات مسامع (موسى) الواثق من ربه ونفسه، الواثق من معجزته، والواثق من فوزه، فاشتد عوده وقال مبتسمًا:

- ألقوا ما أنتم ملقون.

فتراجع السحرة إلى الخلف، وتمادوا في كفرهم وزاد جبروتهم بالدعاء باسم مُدَّعي الألوهية الكافر قائلين:

- بعزةِ فرعونَ إنا لنحنُ الغالبون.

وألقوا بالحبال والعصيّ، فتحولت إلى ثعابين، بل سحرت أعين الناس ليروها كالأفاعي والثعابين، فاسترهبوا الناس وجاءوا بسحرٍ عظيم، فدق الخوف قلب (موسى). هنا، طمأنه ربه ووصل صوته إلى مسامعه: «لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى»..

تشجع (موسى) بعد أن هابَ من سحرهم وألقى بعصاه، فتحولت إلى ثعبان ضخم ابتلع ثعابينهم في غمضة عين، فوقف السحرة في رهبةٍ خائفين، وما إن أبصروا ثعبان (موسى) حتى علموا أنه معجزة مُنزَّلة من عند الله، إذ إنهم أعلم الناس بالسحر، فسجدوا على الفور وآمنوا برب (موسى) و(هارون)..

شهق الحشد في نفَسٍ واحد، وتحرك من بينهم خادمٌ مطيع لـ(فرعون)، والذي كان يعمل في بلاطه وعاش مواليًا بلا خيانة تُذكَر في سجله، كرَّس حياته ونفسه لخدمته، وما زال يشهد على معجزاته وجبروته، تحرك ليصطف في الأمام، فرأى ما يحدث بصورةٍ واضحة، إنه (الأرقم)، خادم (فرعون) المطيع!

صُعِق (فرعون) عندما سجَد السحرة، فوقف مكانه مشدوهًا وبعينين تطقان شررًا، نظر إليهم كأنه يحذرهم، وتحضر لسانه بكلماتٍ لاذعة. في تلك اللحظة، سمع (الأرقم) شخصًا يقف على بعد خطواتٍ قريبةٍ منه، كان أحد بني إسرائيل، لقد رآه قبلًا في بلاط (فرعون) وعرف اسمه، إنه (السامري)، ذلك الرجل الذي يصهر الذهب ليزين قصر (فرعون) بأبهى التحف المزخرفة، بل هو صانع ذلك العرش..

كان (السامري) يقف مُتلحِّفًا بوشاحٍ أسود ويتمتم كلماتٍ بصوتٍ خفيض، مما أثار الفضول في نفسِ (الأرقم)، فتحرك الأخير متخفيًا واقترب منه بضع خطوات، فسمع صوته متزامنًا مع صوت (فرعون) العالي المليء بالحقد والقسوة والكره والبغض وكل ما هو مكروهٌ عند الخالق، إذ تحدثا في فمٍ واحد وبالنبرة نفسها فأطلقا الكلمات نفسها، كأن (السامري) هو الذي يتحدث أو ربما هو مَن يحرك (فرعون):

- آمنتُم به قبل أن آذَنَ لكم، إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتُخرِجوا منها أهلها، فسوفَ تعلمون.. لأُقطِّعَنَّ أَيديَكم وأرجُلَكم من خِلاف، ثم لأُصلِّبنَّكم أجمعين.

حين انتهى (السامري) مما يقول، صمت (فرعون) وغضب الدنيا جمعاء مرتسمٌ على وجهه، وعلى حين غرة، ودون سابق إنذار، اصطدمت بغتةً عينا (السامري) بـ(الأرقم) الذي وقف مذهولًا مما يحدث. شعر (الأرقم) برعبٍ ينتشر في جسده كله، فتراجع إلى الخلف، إلا أن قدماه تعرقلتا فسقط على ظهره وتألم، وحين اعتدل سريعًا ليقف، أبصر (السامري) يتسلل ليغوص بين أجساد الحشود الثائرة، والتي لم يفهم ما إذا كانت نبرتهم تهتف بالاعتراضِ أم التأييدِ لحُكم (فرعون)..

التفت (الأرقم) نحو السحرة المساكين، فوقعَت عيناه على شلالات دماءٍ تنهمِر كالسيل من أجسادهم التي تُقطَّع على مرأى من أعين الجميع.

****

خوفٌ قد تربَّص بالجميع..

قلقٌ وحيرةٌ وظلامٌ دامس..

نهايةٌ لم يتوقعوها..

ونفسٌ غير سوية حلمت بالدنيا فجاءها الجحيم يبتسم لهم!

اجتمعوا معًا ليضحكوا بنشوةِ الانتصار، فأفاقوا من سيقلب كل الموازين..

الحياة على وشك أن تتبدَّل!

والذين تسببوا في ذلك هُم أنفسهم الذين اعتقدوا أنهم بشر!

ذريةُ الشيطان، يَعُوثُون في الأرض فسادًا، ولا يشعرون.

الأجواء مشحونةٌ عن آخرها، والقلوب تُخفي ما لا تستطيع أن تبصره الأعين، كل أنواع المشاعر غير السوية قد سكنَت نفوسَ من يقبعون بين جنبات ذلك القصر، من أبٍ فاسدٍ أشركَ بالله إلى أبناءٍ لم يطمَعوا سوى في كنزِ السراب..

وها هي النهاية ترتسِم أمام أعينهم في ثوبها الفضفاض المعبَّأ بالدماءِ السوداء الملوثة..

يتفقدون أعين بعضهم بعضًا بعد أن سرقَت العاصفة الرمالَ الملعونة، ثوانٍ مرت وعقولهم تتبارز صارخةً بألم، لم تطُل اللحظة، إذ تحرك (بدر) ومن خلفه (أكرم) نحو (جابر)، فأقاما له صُلبَه ليقف أمامهما، وحاولا كتم نفَسِهما حتى لا يستنشقا رائحته النتنة، وقد أبصرا جلد يده يتساقط كأنه محروق. أجلساه على كرسي، وركض (جاسر) ليُحضِر حبلًا بعد أن فهم مطلبهما، وبدوره ربطه (عمر) بإحكام في الكرسي، في حين أن (جابر) مُسلِّمٌ إياهم ذاته ولا يفعل شيئًا سوى قوله باستمرارٍ دون توقف:

- مَيه!

وبعد أن انتهوا، دقق (غريب) في ملامح والده، وحاول فهم ما يحدث له، ليتذكر شيئًا قد قرأه في كتابٍ طبيٍّ من قبل، فقال سريعًا:

- خلوا بالكم، دي أعراض مرض الجذام.

وما إن سمع (بدر) و(أكرم) ما قاله (غريب)، حتى ركضا -في اللحظة ذاتها- فزعين مبتعدين عن (جابر)، وقد ارتسم على أعينهما الفزع والخوف والقلق، فهَدَّآ من روعهما بعد أن تركا مسافةً كبيرةً بينهما وبينه، ثم التقطا نفسًا عميقًا، واعتدلا..

بعدها، دقق (بدر) في بصرِ (جابر) المُعلَّق في الفراغ، ثم نطق منفعلًا بصوتٍ عالٍ:

- اسمع، سواء كنت أبويا، أو جدي، أو جن، أو كنت حتى عفريت، إنتَ أكيد مسئول عن اللي حصل لنا ده كله، وعندك كل حاجة احنا محتاجين نفهمها.

اعتدل (أكرم) في وقفته، ثم اقترب قليلًا نحو (جابر) وحاول أن يترك مسافةً كافيةً بينهما، وقال بجشعٍ وطمعٍ قد تملَّكا كل ما سكن عقله وتفكيره:

- أنا مش عايز أفهم، ولا عايز أتكلم، أنا عايز الحاجة المادية اللي ينفع تتباع، علشان كل اللي حصل ده يتمحي من عقلي.. معكش ألماظة، كام كيلو دهب، فلوس، برديات قديمة؟

دفعه (بدر) بقوةٍ آلمته متعجبًا من حديثه الذي لا يمتُّ إلى مصيبتهم بصِلة، ثم صاح فيه بقوة:

- يا أخي إنتَ لسه عايش في مَية البطيخ!

كاد (أكرم) أن ينفعل ليرد إلى (بدر) دَفعته، ولكنه تماسك وحاول ألا يقلب مجرى الحدث إلى شيءٍ آخر. حينها اقترب (جاسر) من أبيه، ودقق في ملامحه، ثم قال متعجبًا:

- ملامحك أبونا، لكن تحس إن كل حاجة فيك بتنفي ده!

انفعل (جابر) صارخًا من الألم الذي ما يزال ينهش جسده، وقد زاد الأمر سوءًا ذلك الحبل الملتف حوله، وقال بصوتٍ عالٍ متألمًا ليصدمهم جميعًا:

- أنا مش أبوكم..

ثم نظر في أعينهم بفزع، وقال بصوتٍ غلبه الإنهاك رغم صداه العالي:

- مَيه!

هنا نطق (عمر) متعجبًا من ذلك العجوز المريب الذي قد تلف عقله:

- مش أبونا ازاي؟!

ضحك (بدر) رغم المصيبة التي قبضَت على أنفاسه، ثم قال متسائلًا باستهزاء:

- دي بقى نهاية فيلم الرعب، نهاية زي نهاية الأفلام اللي بنشوفها في التليفزيون، هتطلع جن، وهيلبسنا كلنا!

وبعد أن نطق كلماته، أخرج السكين التي كانت في يد (جابر) قبلًا وكاد يقتل بها (جميلة)، فرفعها أمامه، ثم قال مُهدِّدًا:

- شوف، لو كنت إبليس نفسه، آخرك في الدنيا، مش بعيد!

فصاحت (جميلة) في وجهه لأول مرةٍ منذ ظهورها، لتعترض على الوضع الماثل أمامها والذي تكاد تُطمَس فيه الحقيقة التي يقتلها فضولها لمعرفتها:

- أيوه اقتله، ومنفهمش حاجة، علشان تكمل!

تقابلت أنظارهم مع بعضهم بعضًا، وصُبَّت في النهاية نحو (جابر) الصامِت الذي لا يتحدث، فقط يتألم..

التقط (غريب) نفسًا عميقًا، وكالعادة نضَحَ بفلسفته المعهودة، والتي لا يتقبلونها لأنها أعظم من عقولهم الصغيرة البالية. بصوتٍ مليءٍ بكسرة النفس، وضمور القلب، وألمِ العقل، خرجت كلماته تحمل معاني كثيرة، فانتبهوا إليها:

- متدوروش على حقيقة لو عرفتوها تِتُوهوا أكتر، أنا أكتر واحد رافض يربط الأحداث ويلاقي نتيجة مريحة.

كلماته هزت قلوبهم، الحقيقة دائمًا ما تكون مرعبة، مقبضة للأنفس، وبالأخص في موقفٍ مثل هذا، وبعد كل تلك الأهوال التي قابلوها، الأصلَحُ هو تجاهل تلك الحقيقة، حتى لا تزداد همومهم أضعافًا.

فرَدَ (غريب) ذراعه أرضًا، وشد أعصابه بما تبقى له من قوة، ثم نام على بطنه، وشرع في الزحفِ كالحشرةِ المتآكلةِ الضعيفةِ التي على وشك الموت. زحف حتى وصل إلى باب القبو، علَّق يده في مقبضه، فتحه، ثم شرع في النزول متألمًا نحو مكانه الذي خرج منه، نحو حياته التي اشتاق إليها، نحو مقبرته التي عاش فيها، وسيموت فيها!

جحظت أعينهم من فعلته الغريبة، كأنه قد أخرسَهم جميعًا. تلك الليلة عمَرتها العجائبُ والغرائبُ والجراحُ التي تسكن القلوب، إنها أطول ليلةٍ مرت عليهم في حياتهم، أو أطول ما مرَّ على بني آدم أجمعين..

المأساة ستطولُ كل جنس البشر، ولم يفهم لها تفسيرًا سوى شخصٍ واحد، شخص لا يعلم أحدٌ مكانه، وإن كان حيًّا يُرزَق أم لم يعد وجودٌ لجسده من الأساس..

إنه المتحكم في زمام الأمور، وهو أساس القاعدة التي وُضِعت وما ترتب عليها من أحداث..

شخصٌ قد اتَّبع (فرعون) قبلًا، الداهية الذي يُدعَى (السامري).

****

«قوانين الحياة أكبر من أن يُدرِكها عقلُك، وإن كان عقلكَ يعلم القليل، فلن يستطيع أن يُميِّز بين الإعجاز والإمكان.. هل تستطيع أن تحدثني عمّا إذا كان يوجد بتلك الرمال ما يجعل الشيءَ ممكنًا؟! أم أنها معجزةٌ في حد ذاتها؟! وإن كانت، فما الذي يجعل منها كنزًا لك؟!»

السامري إلى الأرقم

السامري وأثر الرسول..

وقف (السامري) للحظاتٍ يُحكِم زمام خطته التي ستقلب الموازين، وفكر بعقلٍ صافٍ تفكيرًا مُنمَّقًا وغير مندفع قبل أن يصعد إلى المنبر وينظر إلى قوم بني إسرائيل، والذين انتبهوا إلى ذلك المتعجرف الذي تجرأ على الوقوف مكان (موسى)، ولكنه باغتهم بصياحه قائلًا:

- لقد ضلَّ موسى طريقه فتاهَ ولن يعود، تأخر وقد ترك إلهه خلفه ونساه.. طلبتم رؤية الإله أمامكم، أنتم المُفضَّلون من بني البشر أجمعين، وقد ناجيتُ ربكم فوافق على الظهور.. اجمعوا لي كل ذهبٍ أنتم مالكوه، أو كنتم سرقتموه، سيغفر لكم إلهكم فور ركوعِكُم له وأداء صلاتكم.

صدَّقه بنو إسرائيل لضعف إيمانهم، وهو الذي يملك من بلاغةِ اللسان كنزًا ثمينًا لا يملكه بشر، وقد امتلك عقلًا داهيةً لا يقدِر على مجابهته أعتى الفلاسفة والمفكرين..

ساحرٌ ماكرٌ ومُدَّعي ألوهية، لوثت أفكارُه قلبَه، فجمعَ الحُليَّ ووضعها أرضًا، ثم نفَّذ معجزته، إذ أخرجَ من سرواله كيسًا أسودَ يحوي رمالًا صفراء، غمَس يده بداخله، وحين خرجت ممتلئة، نثر ما بها على الحلي فذابت ثم اتحدَت لتُشكِّل عجلًا كاملَ الهيئة، فتجسَّد

أمام أعينهم برّاقًا يخطف الأنظار. لم ينتهِ الأمر هنا، إذ اجتمعَ القوم أجمعون ووقفوا أمام العجل غير مصدقين، وحينها نثر (السامري) بعض الرمال على العجل مرةً أخرى، وعلى الفور دبَّت فيه الروح وصار له خُوَار بعدما استحال إلى لحمٍ ودم، فخَرَّ بنو إسرائيل راكعين من هول المشهد، وحين حاول (هارون) إعادتهم وإرشادهم إلى الطريق الصحيح، كادوا يقتلونه بتحريضٍ من (السامري) الذي أمسك زمام الأمورِ بعد (موسى)..

استمر الوضع لبضعة أيام حتى نبَّه الله (موسى) بأن (السامري) قد فتَن قومَه، فأنهى خَلوته وعاد سريعًا، اصطدم بقومه ضعفاء الإيمان يرقصون ويمرحون ويسجدون لصنَم العجل ويُمجِّدون (السامري)، ولشدة غضبه الذي سريعًا ما اشتعل، ألقى بالألواح المقدسة أرضًا حتى إنها تهشَّمت، وعنف أخاه (هارون) من لحيته وكاد يقتله، لولا أنه أشار إلى (السامري) بأنه هو فاعِلها، وقد توسل إليه بأنه خاف أن يُحدِث فتنةً بين القوم فيقتلون بعضهم بعضًا، ولذلك انتظرَ عودته..

حينها ترك سيدنا (موسى) أخاه، وقبض على رباطة جأشه، ثم توجه بهدوءٍ نحو (السامري)، ووقف أمامه قائلًا بثبات رغم غضبه الشديد المعروف عنه:

- ما خطبُك يا سامري؟! ما حمَلَك على ما صنَعت؟!

ابتسم (السامري) بثقةٍ واضحةٍ للعيان، ثم تفوه بما هو أغرب من الخيال:

- لقد أبصرتُ جبريل يسير أمامك ليشقَّ البحر حين حضر وقتما أُهلِك فرعون، فقبضتُ قبضةً من أثَر فرسِه، وصنعتُ إلهًا يُرَى كما بغَى قومك.

اشتعل (موسى) غاضبًا من دواخله ولكنه حاول تهدئة نفسه فقال:

- ارحَل يا سامري، عقابك في الدنيا ألا تمسَّ الناس ولا يمسُّونك، فتكون منبوذًا وحيدًا شريدًا، ولك ميعادٌ لن تُخلَفه، وسيكون فيه جزاؤك عسيرًا.

وبعد أن أنهى سيدنا (موسى) حديثه، ألقَى العجل في النهر أمام الجميع، حينها اعتلَت (السامري) ابتسامةٌ صفراء تدل على انتصاره في إغواء بني البشر ضعيفي الإيمان..

تسحَّب من بينهم وعزم على الرحيل، فميعاده لم يحِن بعد؛ هو القادم في آخر الزمان. البشر هالكون، أما (السامري)، فإما سيصيبه الموت ثم يعود من جديد، أو إنه من المنذرين، لا يعلم بحقيقته أحد سواه، وخادمه (الأرقم) الذي عرِف الحقيقة فيما بعد. ذلك الذي انشقَّ الآن من بين قوم (موسى) أمام مرمى أبصارهم، ليسير خلف سيده الراحِل، فقد عزم على خدمته أبدَ الدهر، وسينول الخلود كما وعده.

****

«موتُك بدايةٌ لن تحدث، وظهورك بدايةٌ حتمية، والنهايةُ قريبة!»

برقان على لسان جابر العطار

موتٌ وهمي..

انكسارٌ وقسوةٌ برَعَا في رسم السقوط على نفوس أولاد (العطار)، يموتون من مشاعر الذل والمهانة التي قبضت على قلوبهم، ولم يعد بمقدورهم التحمُّل أكثر..

أرادوا فَهم كل شيء، إذ إنهم لم يستفيدوا من تلك المغامرة المميتة، سوى أن دواخلهم قد قُتِلت وهم على قيد الحياة..

مشاعرهم تتخبط كجبالٍ صامدة على وشك الانهيار، الروح تأبى الخروج لكنهم يرجونها للرحيل، فلا شيء بقيَ في الحياة سوى الموت، حصونهم تهوي تاركةً إياهم عرايا في الفراغ ينهشهم الصقيع والذئاب، وسينتهون حتمًا عمَّا قريب!

بعد أن تفوه (غريب) بكلماته وزحف راحلًا نحو قبو القصر، مسكَن الحشرات خاصته، فهو مثل العنكبوت الذي عشَّش في عرشه لثلاثين عامًا أسفل الأنقاض ولم ينتبه إليه أحد،

وقد حان وقتُ عودته، فليمُت في مسكنه، وليتغذَّى على ذبابِ لعنتِه التي أصابته، وحيدٌ شريدٌ دون إخوةٍ لا يهتمون لأمره، فقط يبحثون عن النفوذ والسلطة والأموال، حتى لو على حساب أنفسهم، يتسابقون في دنيا الذل بتحدِّي الوحوشِ في الصحاري الجرداء، وها هم يسقطون.. فلينهَر بطريقته الخاصة، وليحيا ما بقيَ من عمره كما أراد.

انتبه الجميع إلى فعلته المريبة، لم يتبعه أحد، فكلٌّ مسؤولٌ عن نفسه وذاته؛ النهايةُ قريبة، وعند الطوفان كلٌّ ينتبه إلى حاله، وما حالُ أولاد (العطار) سوى حبهم لأنفسهم وحقدهم على الغير!

نفدَ صبر (بدر) الذي تتهاوى مشاعره مضرجة في دمائها، وقد قرر تغيير ما يجري في تلك المهزلة وفَهم ما يدور، لن يستطيع أحدٌ خلع الحقيقةِ من (جابر) إلا هو، وقد غلبه الغضب حتى كاد يمزق روحه، ولذلك هرولَ كالإعصار الغاضب صوب (جابر) الذي لم يبدُر منه أي تصرف غير أنه أخذَ يتابعهم في صمتٍ قاتم فيما يلتهمه الألم ببطء. سرق (بدر) ناظريه بحركته، وتقدم باتجاهه دون أن يُعطي بالًا لرائحته النتنة أو مظهره المشوه، وعند وصوله إليه، لكمَه بقبضته بأقصى ما تبقى من قوةٍ في جبعته، ليصطدِم خاتمه الضخم بوجه (جابر)، مما أسقط سِنَّه الأمامية وشوَّه ملامحه، وقد خطفَت اللكمة معها بعضًا من قوته ليضعف أكثر. في حين صرخ (بدر) بصوتٍ مهولٍ يرهب الأبدان:

- إنتَ هتفضل ساكت لحد إمتى؟!

كأن (أكرم) قرر مساندة أخيه (بدر) في قتل أبيهم، إذ لن يظل هكذا مكتوفَ اليدين بلا قيمة له، فتقدم هو الآخر بعصبٍ مشدود، وأحكم قبضتَيه على ياقة جلباب (جابر) وقد نسيَ ما قاله (غريب) عن مرضِ الجذام الذي أصابه، ثم صرخ في وجهه:

- انطق، الحقيقة فين؟!

التقط (جابر) أنفاسًا متقطعة، ورغم الإنهاك الذي بدا عليه مفترسًا كل ذرةِ تحمُّلٍ فيه، ورغم أن الألم قد نهشه، وجسده يتساقط أمام عينيه، حاول التحدث، فجاء صوته متلجلجًا:

- إنتوا عارفين أنا عمري كام سنة؟! هموت في إيديكم!

نطق كلماته ثم أخرج لسانَه من حلقه، شعر أنه يموت من قلة الماء، فزمجَر في وجهَيهِما بصوتٍ مريب في حين تفجرت دماؤه كالنافورةِ بلا معين لها، وجلده شرع في التساقط من وجهه وجسده، ثم نطق بصوتٍ ضعيف:

- مَيه!

وفي أثناء انشغالهم، تمتَم (جاسر) بكلماتٍ خافتةٍ بصوته الخفيض كأنه يتحدث إلى نفسه:

- احنا دفنَّا مين؟!

ولأن (عمر) كان يقف بجانبه، فقد وصل صوته إلى مسامعه، ليثير انتباهه تساؤلَ أخيه، فصاح بصوتٍ عالٍ موجهًا الحديث إلى أبيه:

- لو إنتَ عايش، مين اللي اتدفن؟!

شعر (بدر) أن الأمور تتصاعد إلى حدِّ السماء، فحاول تهدئة الموقف، وخصوصًا أن أباه لن يتحدث في ظل تلك الغوغاء؛ يحتاج إلى الهدوء لاستئصال ورم الإجابات من جوفه المُسرطَن، فابتعد عنه بهدوء، ثم سحب كرسيًّا ووضعه أمامه فجلس عليه، لتتبارز نظرات أعينهما الجامدةِ من أجل البقاء..

بعد لعنة (بدر) أسفلَ الأنقاض، تحول جسده اليافع إلى جسد عجوزٍ فانٍ، فشعر أنه يُشبِه أباه كثيرًا، من دواخله ومن خارجه، الحقد والكره الذي حمَلَه أساسُه والده، والملامح

الحادة ورثها منه، فهو نسخةٌ مكررةٌ من (جابر)، وسيظل الطمع والجشر مسيطران عليه أبدَ الدهر..

هو ابن (برقان) في الأساس، ولكنه من صُلبِ (جابر) ومن ذريته، إذ إن الذي عاشرَ (زينب) في فراشها قبلًا كان (جابر)، و(برقان) فقط تلبَّسه ليترك في البذرة كل أنواع الشر والفساد..

نفَضَ رأسِه من أفكارَه العفِنة التي تنهشه، ثم شرع يتحدثُ موجهًا كلماته صوب (جابر):

- اعتبرني علامة استفهام، وإنتَ الإجابات كلها.. من يوم ما دفنَّا جثتك والدنيا اتقلبت، لعنة صابت العيلة موتتهم واحد ورا التاني، وفلوسك النجسة كلها طارت في الهوا.. وبعدين يطلع لنا واحد يقول إنه صاحبك، الحكاية إياها اللي كنت بتحكيها لي، ولا نسيت؟! كنت بتخطط إني أكون جزء من لعبتك علشان أشد إخواتي كلهم ورايا، نخرَّج تابوت على إنه كنز، تخرج منه جثة كائن عجيب، والراجل اللي كنا فاهمين إنه صاحبك يطلع عفريت.. وبسحر مش فاهمينه تطلع إنتَ عايش! قدامك حل من اتنين، يا تجاوب على كل الأسئلة اللي بتاكل في دماغنا، يا نقتلك، ومحدش هيدور على جثتك.. إنتَ كده كده ميت يابا.

استمعوا جميعًا إلى (بدر) بتأنٍّ، وبعد أن أنهى حديثه، صمت منتظرًا إجابةَ (جابر)، إلا أنه سمع (أكرم) يقول بتذمر:

- أنا حاسس إني في فيلم هندي، لا يمكن اللي بيحصل ده يكون حقيقي!

انفعل (بدر) غاضبًا وصاح موجهًا حديثه إليه حتى يكتُم نبض أحباله الصوتية:

- هتفضل تولول زي النسوان وتقولنا حلم وأفلام، شوفلك حتة تانية تقف فيها.

وتصادمت نظراتهما ذات الغل الواضح للعيَان، فحاول (عمر) تهدئة الموقف بقوله الذي يحمل رزانةً لا موقع لها في مثل موقفٍ كهذا:

- يا ريت ننسى أي خلافات جانبية لحد ما نفهم إيه اللي بيحصل بالظبط.

في ظل تبارُز كلماتهم التي لم يخرجوا منها بشيءٍ مفيد، تلفَّت (جابر) حوله، ثم نطقَ ليقطَع حديثهم دون أن يشفي غليل روحهم الباحثةِ عن إجابات:

- مَيه، عطشان!

لم يتجاوب معه (بدر) لينفذ طلبه، بل شعر في قرارة نفسه أنه ينتقم ثمنًا لكل ما قاساه أسفل الأنقاضِ وفوقها..

تحرك (عمر) من مكانه ومشى بعيدًا وأشار إليهم بعدم رغبته في السماع وهو يقول:

- يا جماعة، الراجل ده شكله خرَّف ومش هنعرف ناخد منه معلومة مفيدة.

وفي أثناء الشد والجذب في الحوار المشتعل كما النيران، وقعَت عينا (جاسر) على (سارة) التي تقوقَعَت كالجثة، هي تعيش في ملكوتٍ آخر لا وجود له، ثم انتقل بعينيه ليبصر زوجها، فشعر بالرعبِ قد تغلَّب على كيانه كاملًا، وازداد خوفه بعدما دقق في جثة (خالد) زوجها، والتي اهترأت وامتلأت بالعفن، إذ علِم حينها سرَّ الرائحة النتنة التي لم يتحمَّلها عند خروجه بالتابوت من القبر، إضافةً إلى رائحة والده التي انبثقت منه فيما بعد، والتي لا تختلف كثيرًا عن المنبعثة من جثة (خالد)، ولكن هول ما حدث أفقده حاسة الشم، فلم يجد الوقت ليسأل أو يستفسر، وإذا به يقول مرتعشًا وملء ملامحه التعجب:

- أنا خايف من البيت ده! إنتم ازاي بتتكلموا كده بقلب ميت كأن الجثة اللي متعلقة فوقيكم عروسة ورق.. قلوب الحجر دي جايبينها منين؟!

خاب أمل (أكرم) الذي نطق تحسرًا على حالهم ومآلهم الخاضع للذل والمهانة واستياءً من لعنة أصابتهم فسَطرَت نهايتهم:

- يعني حياتنا اتدمرت من الألف للياء، وكمان مش فاهمين السبب.. وكمان مفيش كنز ولا فلوس!

ثم تحامل على قدميه، ومشى في القصر يتفقد الموجودات من حوله، شعر بالخوف يتملكه، ودون قصد غُرِسَ حذاؤه في دم زوج أخته الذي تصفَّى كاملًا، فابتعد عنه مرتعدًا مشمئزًّا..

تقلبت الأفكار في عقل (عمر) الذي لم ينسَ نظرة عين (الأرقم) التي لم تُصِبهم، ولو كانت قابلتهُم لصعدت أرواحهم خوفًا. اقشعر بدنه، فخبط على كتف (بدر) قائلًا:

- بدر.. احنا لازم نمشي من هنا قبل الكائن ده ما يرجع تاني ويلاقينا موجودين، مستحيل تستفيد حاجة من الراجل المخبول ده.

ثم توجه نحو باب القصر بقدمين مرتعشتين عازمًا على الخروج في أثناء ملاحقة عين (بدر) له، ليقطع تلك اللحظة صوت (جاسر) المرتفع:

- أنا خايف.. نفسي أرجع لحياتي القديمة ولو للحظة.. أنا لأول مرة أفهم سبب بُعد أمي عنكم وإصرارها إني مقربش منكم.

تفحصهم واحدًا تلو الآخر بعدما رمى بقوله، ثم أكمل صارخًا:

- إنتوا لعنة!

وقد امتلأ وجهه بسخط الدنيا جمعاء. تحرك (بدر) لمعاقبته على خطئه، فوصل إلى مسامعهم صوت (جميلة) تهذي قائلة:

- جميلة مبقيتش جميلة..

فحدق بها (بدر)، لتحتضن نفسها بخوفٍ وتُلملِم ملابسها حول جسدها كأن أحدًا على وشك اغتصابها، وصاحت صارخةً تقول:

- مش عاوزة حد يلمسني، أنا عملت كده علشان إنتوا تستاهلوه، راسكم اللي مرفوعة في السما وجبروتكم اللي ملوش حدود، كان لازم حد يحط دماغكم في الوحل.. كل راجل لمسني كنت بحس معاه إني بانتقم منكم.. أنا مش عار، إنتم اللي عار.. أنا لا يمكن أكون زانية، أنا أشرف منكم كلكم، أنا أكتر واحدة نضيفة فيكم، بصوا على قلوبكم، شوفوا سوادكم اللي جوه، إنتم قرف..

ثم تراجعت إلى الخلف وتفحصتهم بعينيها باشمئزاز، وبصوتٍ عالٍ أردفَت:

- كلكم قرف.. أنا لا يمكن أفضل معاكم ثانية واحدة.

ثم التفتت لتركض نحو الباب، وفي اللحظةِ نفسها، قام (بدر) من مجلسه راكضًا نحوها وجهَّز سكينه بالضغط عليها بأنامله، وقبل أن تصل إلى الباب الذي وقف بجانبه (عمر) يتابع التغيرات التي تحدث، اصطدمت عيناها بمرآةٍ مُهشَّمةٍ نصفها تقع على يسارها، فرأَت ملامحها، عندئذٍ تسمرت قدماها وتوقفتا، في حين لاحظ (عمر) اندفاع (بدر) نحوها غاضبًا، فركض صوبه وأمسكه بإحكام، ليَصيح (بدر):

- سيبني أموتها بنت العار، الموت شرف للي زيها.

غرقت (جميلة) في تفاصيل وجهها التي أضحت مقززة، وفي جسدها الذي صار نحيلًا لا إغراء فيه، وشعرت من دواخلها بأنها استحالت إلى مسخٍ مخيف؛ زال الجمال وبقيت الروح والنفس، إلا أنهما كانا قد تلوثا قبلًا بالحقد والغل..

وها هي قطعةٌ من جهنم تقف غير مصدقةٍ لما حدث لها، إذ بعدما كان يتحاكى البشر أجمعون بجمالها، حان الوقت ليشهدوا لما بها من قبحٍ دميم..

تحسست (جميلة) وجهها بأناملها، فسقط الدمع حزنًا وافتقادًا لجمالٍ رحَل. وحين تحركت، لامست قدماها قطع الزجاج المتناثرة على الأرض منذ ذاك اليوم الذي هشم (بدر) فيه الأثاث ولم تُرفَع من مكانها، انحنَت بظهرها، فاحتوت قطعةً منها بين أناملها وضغطت عليها، فتساقطت الدماء بعدما اخترقت أصابعها، ولكنها أبدًا لم تشعر بذرة ألم..

أنعمَت النظر في القطعة الزجاجية، تأملت سنَّها الحاد الجارح، فاقتحمَت عقلها فكرةٌ جنونيةٌ عن الموت لإنهاء تلك المعاناة..

في تلك اللحظة، صرخ (جابر) متألمًا، فأظافره تتساقط أمام عينيه، وحلقه يزداد جفافًا، والحبل الملتف حوله يخنقه، فلم يجعله كل ذلك يتفوه بشيءٍ سوى كلمةٍ واحدةٍ يرددها باستمرار:

- مَيه!

قرَّبت (جميلة) قطعة الزجاج من شريان يدها اليمنى وأوشكت على شقِّه، في حين انشغل (عمر) بـ(بدر) الذي كان أشبه بالثور الهائج، وأخذ (جاسر) يسخط من القصر بمن فيه وإخوته، فيما حاول (أكرم) الهرب من كل ذلك الذي اعتراهم. وفي تلك اللحظات، قطع تفكيرهم الصاخب حجرٌ قُذِف من الخارج فهشَّم نافذةً من نوافذ القصر واستقَّر في منتصفها..

انتبهوا جميعًا لما يدور حولهم، إذ سمعوا صوتًا صاخبًا يصيح في الخارج من مجموعةٍ من الناس تقول:

- كسَّروا البيت الملعون، اقتلوا ولاد الملاعين.

أهلُ الحارة كلها قد اجتمعوا لينهوا حياتهم، لقد اجتمعوا بأعدادهم المهولة، وصدَّقوا على فكرةٍ واحدة، وهي إنهاء نسل (العطار) من الوجود..

صُعِق الأبناء، فتراجعوا معًا إلى الخلف، وفي لحظةٍ مُميتةٍ للأنفس، قُذِفت شعلةٌ من نارٍ لتخترق المكان وتحتضن الستائرَ فاحترقَ على الفور، وتبعها بضع شعلات أخرى، ليشرَع القصر في الاحتراق بالكامل. لم يهدأ الأمر هنا، إذ إن هناك جرارًا ضخمًا استخدمه أحد سكان الحارة ليهدم به جدرانَ القصر فتداعَت واحدةً تلو الأخرى، حتى تهاوى الجدار العازل بينهم وبين الناس في الخارج، فصعقَتهم شعلاتُ النار التي هطلت فوق رؤوسهم

كحِمَم البركان الثائر، والحجارة التي أمطرت على أجسادهم كإمطار حجارة سِجِّيل على الأقوام البائدة..

لم يكن لديهم ردُّ فعل سوى الصراخِ والخوفِ والرعبِ الذي هتكَ نفوسهم، ولم يفكروا في شيءٍ إلا أن النهاية قد حانت، ستكون احتراقهم في جهنم أحياء، ولن يقف عند ذلك مصيرهم البشع، بل سيُلاقوا حتفهم في جحيم الآخرةِ بعد موتهم. كانت هذه أصعب لحظةٍ مرت عليهم منذ خُلِقوا؛ أن يقفوا أمامَ من كانوا يُبجِّلونهم ويحترمونهم ويطأطئون رؤوسهم فور رؤيتهم، وها هُم يحرقونهم ويسبُّونهم ويلعنونهم ويهدمون قصرهَم فوق رؤوسهم..

إنها النهاية..

أن يكون الذل والمهانة الخَتم الأخير على الصدور!

عاثوا في الأرض فسادًا فرُسِمت النهاية بالحبرِ الأسودِ عذابًا..

ما الذي سيفعلونه الآن؟

أسيُواجهون الموتَ الذي قبض عليهم وحاصرهم من كل حدبٍ وصوب؟

أم سيهربون منه، ولا مفرَّ من أي جهة؟

أم سيُسلِّمون أنفسهم لتُحلِّق أرواحهم بعيدًا عنهم حتى تهدأ نفوسهم المُعذَّبة التي لاقَت من الجحيم أرطالًا؟!

فليتركوا الأمر للقدَرِ المكتوب، إذ لن يغيروا من الأمر شيئًا..

فليستَسلِموا الآن!

فما عادَ للروحِ قوةٌ باقيةٌ لتتشبَّث بالحياة!

فليستسلموا.

(٢)

لا يخدعنَّك مظهرُ الانكسار، ففي الباطن هولٌ غدَّار!

«الوهم! الأذكياء فقط هم من يستغلون الوهم، شيءٌ
لا يراه أحد، ولا أحد غير الذي يستخدم الوهم يراه..
فبالوهم تصنَع إلهًا.. إلهًا يجعل الجميع يتبعُك، لترتقي
إلى مراتبَ لا تستحقها، فقط كل هذا يُبنَى على وهم،
إلهٌ وهمي! من ذا الذي يقول أن هناك إلهًا خلق الجميع
ولم يَظهَر سوى الوهم؟! ونحن لن نتخذ الوهم عدوًا، بل
أعدائي الذين لم أغفِر لهم، هم هؤلاء الناس الذين
يدعون إلى إلهِ الوهم.. فلا تتخذ إلهَ الوهم عدوًا، لأنه لا
يوجد إلهٌ غيري»

السامري إلى الأرقم

المبـروك..

قريةٌ نائيةٌ في صعيد مصر، سكنتها مجموعةٌ قليلةٌ من الناس الطيبين المفعمين بالأخلاق، لا يفعلون شيئًا سوى طاعة الله والصلاة، والعمل بجِد ومساعدة المحتاج، قلوبهم مُشبَّعةٌ بالنقاء والكمال..

في تلك القرية، سكن ذو الوجه البشوش منذ ثلاثةِ أعوام، حطَّ عليها وهو لم يحدد وجهةً له، طيب القلب جميل الأخلاق، إنه (أسعد) المشلول القدمين، الضرير العين والمُعوَج اللسان، ورغم ذلك فهو أكثر أهل القرية مواظبةً على الصلاة، ولا يترك فرضًا إلا ويؤديه في ميقاته، فكان مثالًا أعلى لكل من أراد التقرب إلى الله وطاعته..

في وقت القيلولة بعد صلاة العصر، أدى (أسعد) صلاته، ثم ارتكن بجانب عمودٍ بعدما ساعده الشيوخ والمصلون لصعوبة حركته، فجلس وأمامه مصحف مكتوب بطريقة «برايل» حتى يستطيع قراءته، والذي أحضره له خصِّيصًا الشيخُ (عبد الجواد)، الرجل الطيب النقي ذو السبعين عامًا، صاحب اللحية البيضاء المنيرة، والذي يُقيم بالمصلين وله من الصوت أعذبه، وقد كان يرى في (أسعد) ابنَه فيساعده..

جلس (أسعد) يُتمتِم بلسانٍ ثقيلٍ كلمات الله حتى غلبه النعاس، فاستراحَ لينام ساعتين قبل صلاة المغرب، إذ إن المسجد يظل مفتوحًا في الفترة ما بين الصلاتين، وقد اعتاد الناس على أن يستريحوا داخله، بل ويناموا أحيانًا حتى يحين موعد الصلاة القادمة؛ هواء المراوِح ونظافة المسجد والراحة النفسية تبعث في أعماق مُرتادِيه الارتقاءَ والطمأنينة، فيسكنون المساجد ولا يبرحون، هؤلاء الطيبون..

غرق (أسعد) في سباتٍ عميق، وانتشر الناس حوله، هنا من يتلو القرآن، وهنا من يُسبِّح بحمد الله، وهناك من نام ليستريح قبل الصلاة، غير العاكفين في المسجد لا يخرجون منه لأيامٍ طويلةٍ اتباعًا لسُنَّة رسولهم الكريم..

وفي ظل الهدوء السائد على الموجودات، والذي خلا من كل صوتٍ إلا من همسات وأصوات المُقرِئين العَذبة، أفاق (أسعد) بغتةً من نومه صارخًا بأعلى صوت، فتجمَّع الناس حوله في غمضة عين فزعين، أحضروا الماء وسقوه، وتوقعوا أن كابوسًا تطفل على أحلامه، ولكن أي كابوسٍ في بيت الله؟! طالَ الصمت وهم يحاولون الاطمئنان..

- مالك يا أسعد يا ولدي، خير في إيه؟!

قالها الشيخ (عبد الجواد)، ليتنفس (أسعد) كأنه يُسابِق جوادًا، وبعد أن استكانَ تفوه متلعثمًا بسبب لسانه غير الفصيح، فخرجت الكلمات صعبة الفهم، ولكنهم استشفُّوا منها الأمر:

- شوفته يا عم الشيخ كأن عيني سليمة مش ضرير، راجل لابس أبيض من العِمة للچزمة، ولحيته كثيفة وبيضا، وشه منور كأنه بدر نازل من السما، دخل من باب الچامع، وقرب مني ولمسني.. أقسم لك لقيت نفسي بمشي، چريت وفطيت، ولساني اتعدل، وبقيت بتكلم زيكم تمام.. شوفته يا عم الشيخ، والله شوفته!

كأنها رؤيا من الإله في بيته الطاهر النقي، امتلأت أعين الجالسين بالدهشة والسعادة، عندها صاح الشيخ (عبد الجواد) مُكبِّرًا:

- الله أكبر، الله أكبر.. أبشِر يا أسعد يا ولدي، دي رؤيا من عند الله، وتفسيرها طاهر، ربنا يشفيك يا ولدي.

لمعت عينا (أسعد) الضريرتان، كأنه قد وجد في رؤياه ملاذَ روحه وشفاءَه الذي طال انتظاره إياه منذ تلك الحادثة الشنيعة في أثناء صغره؛ يوم خرج من المسجد يركض مع الأطفال فرِحًا، فصدمته سيارةٌ وحملوه إلى المشفى، ولصعوبة حالته ظنوا أنها نهاية حياته، ولكنه بدلًا من ذلك كان له حظٌّ فأُصيب بعدة عاهات شوَّهت بنيانه فجعلته كأنه ميت على قيد الحياة، إذ كُسِر عموده الفقري وشُلَّ عصب لسانه وفقَد شبكية عينيه، فعاش عمره كله لا يحصل سوى على شفقة الناس من حوله..

وبعد كل تلك السنوات، أعطاه الله الإشارةَ على هيئة حلم، وما حصل في المسجد كان ذا دلالةٍ قوية، فتمنَّى من قلبه أن تكون البشرى نهاية عذابه والقسوة التي عاش يعانيها على مدار حياته كلها.

****

مرَّت الكثير من الأيام خلف بعضها بعضًا لا يُفكِّر (أسعد) سوى في رؤياه التي لازمته ولم تتركه للحظة؛ على فراشه، في المسجد، في الفجر، في أوقات الراحة، وفي وكل ثانية ينام فيها يفيق صارخًا من الفرحة. ولكن المشايخ ومفسري الأحلام ملُّوا منه ومن تفسيره له،

حتى إنه يسير في الطرقات ويوقف الناس في الشارع ليحكي لهم عن حلمه، وقد أُقيمَت خطبة صلاة الجمعة كاملةً تحكي عن الرؤيا وأهميتها وعن حلم (أسعد) الذي علِمت به القرية كلها..

وبعد مرور ما يقارب الشهر، بدأ الناس يتجاهلونه، وتدهورَت حالته النفسية حتى أُصيب بالاكتئاب، وعاد مرةً أخرى إلى الصمت الطويل وعدم التحدث، وأصبحت صلاته في الجامع متقطعةً وغير منتظمة، وعندما كان يسأله الشيخ (عبد الجواد)، يجيبه بأنه يشعر بالمرض وأن حركته قلّت وأضحَت تتعبه..

وبعد مرور شهرٍ آخر، انتهَت نبوءة حلم (أسعد)، ونسي الناس تلك الرؤيا التي شغلت عقولهم لأيامٍ طوال وفسرها كل مفسري الأحلام وتحاكى عنها كل الشيوخ، وعندما يذكرها أحدهم يضحكون عليه، فالأمر أضحى خرافة. قلّ خروج (أسعد) من منزله، وتردده على المسجد أضحى ضعيفًا، فيصلي فيه صلاةً واحدةً ولا يحضر البقية..

مرَّ أكثر من خمسة أشهر، حتى نسي الناس الحلم نهائيًّا كأنه حدثٌ عاديٌّ مر عليهم، حتى إنهم ما عادوا يسألون على (أسعد) كثيراً، ولا يعطفون عليه لاختفائه المتواصل، وكلما شاهدوه صدفة يتصدقون عليه، ونسوا زياراتهم المستمرة له، حتى انقطع (أسعد) تمامًا عن الذهاب إلى المسجد، وصلواته كلها كان يؤديها في منزله، ولم يكن يهتم لأمره سوى الشيخ (عبد الجواد)، والذي كان يزوره يومًا بعد الآخر ليطمئن عليه وخوفًا من أن يموت فلا يشعر به أحد، ولكن سِنَّه الكبير كان يعيقه أحيانًا إلى جانب مرضه الذي يلازمه، ورغم ذلك لم يكن يترك فرضًا إلا ويصليه في المسجد..

مرت الأيام والشهور، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه، حتى أتى اليوم الذي كان بمثابة معجزة، حين دلف شيخٌ إلى المسجد، يبلغ عقده السادس، طويلٌ ذو هيبة، يحمل مسبحته ولا يتركها، يرتدي جلبابًا أبيض ناصعَ البياض، ولحيته بيضاء كثيفةٌ تسُر الناظرين، ووجهه منير يخطف الأنظار. حين دلف إلى المسجد خطف قلوبهم جميعًا، ووقف في صفِّ المصلين يؤدي صلاته. وبعدما انتهى، اقترب من الإمام الشيخ (عبد الجواد)، جلس بجانبه يُسبِّح

على مسبحته، استمر إلى أكثر من خمس عشرة دقيقةً لا لا ينطق لسانه سوى بتسبيح الله وحمده وتكبيره، ثم نظر إليه بغتةً متسائلًا بلكنةٍ قهراوية:

- أنا غريب عن بلدك يا شيخ، محتاج مكان أقعد فيه عشر أيام لحد ما يرتبها المولى.

في تلك اللحظة، كان كل ما يشغل بال الشيخ (عبد الجواد) هو رؤيا (أسعد)، وقد رأى الصفات نفسها في هذا الرجل الغريب الذي يتحدث معه، تاهَ بين تفاصيله حتى شعر بأن صمته طالَ وسيبدأ الرجل في التساؤل، فنطق سريعًا:

- بيتي مفتوح لك يا بشوش الوش، لو تتفضل عندنا هيزيدني نور.

لم يزل الرجل المفعم بالبياض يسبح على مسبحته، وبعد إبداء الشيخ ترحيبه به في بيته، اعترضَ قائلًا:

- الله يبارك لك يا شيخ.. طالب مكان أكون فيه لوحدي، لأني بحب الخلوة بنفسي.

تحامل الشيخ على قدميه واستند إلى عكازه، ثم نظر إليه قائلًا:

- تعالى معايا.

سحبه من يده ومرَّا معًا وسْط المصلين الماكثين في المسجد يصلون ويسبحون، فخطف أنظارهم، ليتذكروا رؤيا (أسعد) التي تلاشت من ذاكرتهم مع عوامل الزمن.

****

أسطورة إيزيس وأوزوريس..

بعد رحيل (قابيل)، خرج من ذرية (آدم) نبيُّ الله (شيث)، والذي عوضه عن (هابيل). وبعد موت (آدم)، تسلم (شيث) النبوة، وكان مقر نبوته مكة المكرمة، وأمره

الله بتحريم زواج الإخوة من بعضهم بعضًا، في حين استمر (قابيل) في تعمير أرضه بذرية الخبث والشر..

ذكَّر (شيث) قومَه بعبادة الله، وفي ذلك الوقت، انتهت في مكة الموارد التي يعيشون عليها، فارتحل بحثًا عن مكانٍ آخر، وتنقل بين مصر والعراق. كانوا أول شعب يسكن مصر ويعبدون الله الواحد الأحد، حتى وافته المنية وانتقلت الدعوة إلى حفيده (إدريس)، والذي لُقِّب فيما بعد بـ(أوزوريس) الإله..

بعد موت (شيث) وتسلُّم (إدريس) النبوةَ بوَحيٍ من الله، عاش يدعو قومه إلى دين التوحيد، حتى انتُزِعت روحه في السماء الرابعة..

بعدها، عاش أهل مصر يذكرون النبي الطيب (إدريس)، إلى أن جاءَهم شخصٌ من آخر البلاد، شخصٌ من ذرية (قابيل) الذي مات وترك أهله الفاسدين، كان نحَّاتًا يداه تَنْحُتان المستحيل، اسمه (آريس)..

سار (آريس) بين أهل المدينةِ يُحدِّثهم عن نبيِّهم الراحل، لم يتعجبوا لوجوده رغم أنه غريب عليهم، ولكنهم اتبعوه لحديثه اللين. وبعدما شعر بثقتهم الزائدة فيه، ألَّف قصةً مُلفَّقةً عن نبي الله (إدريس)، وسماها أسطورة (إيزيس) و(أوزوريس). وحين أُغرِم الناس بـ(إدريس) إلى حدِّ الجنون، صنعَ تماثيل له ونشرها في المعابد وصار يقدسها، ولقبها بـ(أوزوريس). وبعد إلحاحٍ كثيرٍ من الشعب الذي غرق حبًّا في (إدريس)، استطاع أن يُقنِع شخصين بالسجود لتماثيله، ليقع أول شرك بالله، ثم ما لبث أن اتبعه أهل المدينة كلهم بأن عبدوا ذلك الصنم، فتسبب في واقعةٍ أفظع من أول جريمة قتل في التاريخ، والتي رُسِّخت في عقول البشر؛ جريمة (قابيل) و(هابيل).

****

استطاع الشيخ (عبد الجواد) توفير مَسكن للرجل الغريب الذي كان يسير في الشوارع هائمًا ويتحدث الناس عنه، استمر الأمر ليومين. لم يترك فيهما ذاك الغريب فرضًا ولم تفُته صلاة، كان يسمع همسات الناس من حوله، إلا أنه لم يفهم شيئًا، حتى إنه سأل (عبد الجواد)، فأخبره أن الناس يعتقدون أنه مبروك، فضحك مستغربًا من طيبةِ الناس الزائدة.

ولكنه شعر بالضيق لمعتقداتهم تلك، والتي من الممكن أن تجعل منه شخصًا مقدس، ولذلك هابَ الأمر، وكان قد قرر المكوث في القرية لبقية حياته، بخاصة أنه شخصٌ لا يملِك عائلة، ويعيش رحَّالًا متنقلًا بين البلاد، وقد أُعجِب بطيبة أهل تلك القرية، ولكن الأمر أضحى مريبًا، فعزم على الرحيل بعد انتهاء مدة العشرة أيام.

****

بعد كل صلاة، انتظر الشيخ (عبد الجواد) ظهور (أسعد) في المسجد حتى يخبره عن الرجل الغريب الذي أتى القرية، والذي يشبه في كل مواصفاته ذاك الذي رآه في حلمه. ولكن (أسعد) لم يحضر، وانقطع انقطاعًا تامًّا عن صلاة الجماعة، فكان يؤدي صلاته في منزله، ولذلك قرر الشيخ زيارته..

بعد انتهاء صلاة العشاء في اليوم الثالث من وقت ظهور الرجل، اتكأ الشيخ (عبد الجواد) على عصاه البالية، ومشى متحاملًا على قدميه الضعيفتين حتى وصل إلى بيت (أسعد)، طرق الباب وصاح بصوتٍ ضعيف:

- افتح يا أسعد يا ولدي، أنا عمك عبد الچواد.

ليصله الصوت المتلعثم من الجهة الأخرى:

- انتظر يا شيخ.

تنقل (أسعد) بكرسيه المتحرك متحسسًا الأثاث في طريقه، حتى وصل إلى باب منزله، فتحه ودلف الشيخ. أغلق الأخير الباب واقترب منه، وبعد أن سأله عن حاله وعن عدم

حضوره للصلاة، علِم في قرارة نفسه -من خلال ردوده- أنه قد أصابه التوحد والاكتئاب، فزفَّ إليه البشرى:

- فلتسعَد يا أسعد، رؤيتك تحققت بأمر الله، في شخص بيتردد على الچامع شايل نفس صفات الراچل اللي ظهر لك في حلمك.

صُعق (أسعد) من حديث الشيخ، وكاد يسقط من هول ما سمع، وانتفض قلبه خوفًا بدرجةً كادت تقتله، بل إنه شارف على الوقوف من الصدمة.

****

لم يرحل الشيخ (عبد الجواد) في تلك الليلة إلى منزله، ونام على فراش (أسعد) الذي لم يزره النوم اليوم كله، حتى اقترب ميعاد صلاة الفجر، فأق الشيخ وتحركا معًا نحو المسجد..

أذَّن الشيخ (عبد الجواد) في المكبر، وجلس (أسعد) جانبًا يتلفت حوله بتوترٍ وقلقٍ رغم أنه ضرير لا يرى، إذ شعر من دواخله بأنه سيعرف ذلك الرجل فور وصوله، وقد تابعه الناس ولم يَنْحُوا أعينهم عنه للحظة، حتى أُقيمَت الصلاة ولم يدلف الرجل الغريب، اصطفوا كالبنيان الواحد وكبر الشيخ (عبد الجواد)..

رفع (أسعد) يديه عاليًا بالتكبير، ليشعر بمن يُهرِول حتى لا تفوته الصلاة واصطف بجانبه، فشمَّ رائحةً طيبة، وشيءٌ بداخله قد أخبره بأنه هو، اقشعر بدنه وانتفضت مشاعره، ولكن ذلك لم يوقفه عن إتمام صلاته، في حين ذرفَت العبَرات من مدامعه في أثناء تلاوته القرآن، حتى انتهت الصلاة، وإذا بالرجل الذي بجانبه يصافحه قائلًا:

- تقبَّل الله.

لم يستطِع (أسعد) رفع يده، فبادر الرجل ومدَّ إليه يده متعجبًا وصافحه، ثم قام من مجلسه، وتحرك نحو الشيخ (عبد الجواد)، فجلس بجانبه وشرع في ختم صلاته بالتسابيح..

أشار الشيخ إلى الناس بإحضارِ (أسعد)، ثم اجتمعوا جالسين جميعًا حول الرجل الذي تعجَّب أكثر مما يحدث. وبعد مرور بضع دقائق مشبعة بعلامات الاستفهام والاستغراب على الرجل، تكلم الشيخ ليشرح له الموقف ويحكي له عن الحلم الذي صدقوا جميعًا بأنه رؤيا.

وبعد أن انتهى من سرد القصة، ترك الغريبُ مسبحته، ثم نظر إليهم قائلًا:

- أنا راجل طبيعي زيي زيكم، بشر مش ملاك، ولا نبي منزل من السما، معنديش أي صفة تذكر، بصلي وبصوم وبتقرَّب من الله.. ممكن تكون أضغاث أحلام.

اعتدل الشيخ ناظرًا إليه، ثم علَّق على حديثه:

- والله ليست بأضغاث أحلام يا شيخ أحمد، إنها رؤيا بإذن الله، ملِّس إيديك على أسعد وادعِ ربنا، وإن شاء سيُشفَى بإذنه.

ارتعشت يداه ثم نظر في عيني الشيخ:

- لكن يا شيخ!

فربَّت على كتفه وطمأنه:

- توكل على الله يا راجل يا طيب، إنه مجرد دعاء، وأنت لا تتأخر عن فعل الخير.

ارتعش جسده كاملًا، وقد أحس من دواخله بأنه أمام مهمةٍ أكبر من مقدرته، إلا أنه تمالك ذاته، وضع مسبحته في جيب جلبابه، واقترب من (أسعد) المرتعش، ثم وضع يده بلطفٍ على رأسه ودعا:

- فلتُشفَ بأمر الله.

وتركه وعاد إلى الخلف..

كأن شيئًا لم يحدث، هدوء ساد المسجد، في حين تتابع أعين المصلين الأمر، فيما ظل (أسعد) كما هو. نظر الرجل إلى الشيخ الذي احتلت قسمات وجهه خيبة الأمل، ثم قال:

- قلت لك يا شيخ عبد الجواد، أنا مجرد شخص عادي، لا أملك أي ميزة عنكم.

وبعد أن أنهى كلماته، أحس (أسعد) بشيءٍ يسري في قدميه، كأنها الروح تدب فيهما، فارتعشت أوصاله، وغرقت عيناه بالدموع..

زحف أرضًا أمام أعين الحاضرين الجاحظة، ومن بينهم الشيخ (أحمد)، ثم سند نفسه بمعاونة من حوله وتوقف على قدميه، فتنقل بعينيه في الوجوه، ثم صرخ ودموعه تنتفض:

- أنا بمشي، أنا بشوف..

وأمسك فمه الذي تحدث من غير تلعثم..

- أنا بتكلم!

ارتعشت الأجساد لمعجزةٍ حدثت أمام أعينهم في زمنٍ لا مكان فيه للمعجزات، في حين تراجع الشيخ (أحمد) إلى الخلف مرتعدًا مما حدث، وقد شعر في دواخله بالخوف من أعين الناس الذين صاروا ينظرون إليه نظرةً مختلفة، نظرة تحمل في طياتها كل معاني التقديس.

****

في عصر سيدنا (يحيى)..

في بلاطِ حاكمِ ذلك الزمان، ملِكٌ طاغية، ضيق العقل، غبي القلب، يستبد برأيه، يُدعَى (رشيد). وفي ظل انتشار الفساد، واحتضار العدل في زمنِ الجهل والنفاق والديكتاتورية الشمطاء، جلس الملك وبجانبه كل أنواع الخمرِ والفاكهةِ الطازجة، وتقصَّعَت ابنة أخيه

متراقصةً له. سُحِر من جمالها، وكاد يموت كمدًا لو لم يتزوجها ليطولها، وهي أيضًا طَمِعَت بالمُلك، وساندتها أمها في ذلك الأمر. اقترب من شفتيها يفترس عسلها، ثم قال متنهدًا:

- تزوجيني، لا أطيقُ انتظار لمس جسدكِ الناعم والبرّاق كالماسِ يستهويني.

تراجعت إلى الخلف، وهزت جسدها كثعبانٍ لعوب، ثم اشتمَّت شعر رأسه بأنفها في أثناء التفافها حوله، وقالت:

- أوافق، فأنا أعشقكَ وأتمناكَ بين يديّ.. ولكن كيف؟!

هي تعرف أن زواج العم من ابنة أخيه محرَّمٌ في دينهم، وهو كذلك، ولكنه أرادها لنفسه فحاول التحايل على الدين قائلًا:

- سآخذ رأيَ يحيى في هذا الأمر، هو لن يُعارِضني.

وبالفعل، ذهب إليه يستفتيه ويغريه بالأموال. وقبل أن يُجيبه (يحيى) في مسألته، أعلنَ أمام الناس تحريم زواج البنت من عمِّها، حتى يعلموا -إن فعلها الملك- أن هذا انحراف..

غضب الملك، ولكنه أُجبِر على الامتناع عن الزواج، في حين كانت الفتاة لا تزال طامعةً في الحكم، وقد كانت بغيًّا لا يفرق معها فعل أي شيء لتنول مبتغاها..

وفي إحدى الليالي، أخذت البنت تغني وترقص، فأرادها الملك لنفسه أكثر من أي وقتٍ مضى، فأبَت وقالت:

- إلا أن تتزوجني.

فقال الملك بحزنٍ وقلة حيلة:

- كيف أتزوجك وقد نهانا يحيى؟!

تمايلت عليه لتغريه أكثر، ثم اقتربت منه قائلةً بعينين مفعمتين بالشر:

- اِئتِني برأس يحيى مهرًا لي.

لم تكن الفكرة صعبة التنفيذ بالنسبة إلى الملك، إذ إنه قد فكر فيها من قبل، وما منعه إلا انتظار وجود الدافع الأمثل لينفذها. وبعدما أغرَته الفتاة، وهو الذي أُغرِم بها، أمرَ على الفور بإحضار رأس (يحيى)..

تحرك حشدٌ من الجنود واقتحموا محراب (يحيى) وهو يصلي، فهجموا عليه وقطعوا رأسه وقدموها على صحنٍ للملك، والذي قدمها بدوره إلى ابنة أخيه، وتزوجها في الحرام، ولكن في نفسه أحس بأن الإنجاز الحقيقي الذي فعله هو قتل (يحيى).

****

يومان مرَّا على عودةِ (أسعد) شخصًا سويًّا، وقد غمرته السعادة القصوى، ومعاملة الناس للشيخ (أحمد) اختلفت يومًا بعد يوم، إذ حيثما يسير في الطرقات يقابله الناس بتقبيل يديه ويحاولون لمس جسده لتَحُلَّ عليهم بركته، وقد سمَّوْه بـ(المبروك). أصبح يُقيم بهم الصلاة في الجامع، وبعض الناس يطلبون منه النصيحة والمشورة، ولا يجرؤ أحد على التفوه بكلمةٍ غير طيبةٍ في حقه، بل تعاظم الأمر بأن جمعوا الأموال من أهل القرية أجمعين حتى وفروا مبلغًا ضخمًا قادرًا على تحويل رجلٍ فقيرٍ إلى مليونير يملك ثروةً عظيمة..

اجتمع أهل القرية أجمعون في اليوم التاسع مذ وصول (المبروك)، ووضعوا الأموال في حقائب، منهم من تبرع بالآلاف ومنهم من تبرع بالمئات، كل من في القرية ساهَم، حتى الأطفال الصغار شاركوا بمصروفهم اليومي، لينالوا بركة (المبروك)..

سار أهل القرية جميعًا متجمهرين في حشدٍ عظيم، حتى وصلوا إلى منزل (المبروك)، طرقوا عليه، ووضعوا الأموال أمام الباب، وحين فتحَ لهم فوجئ بالحشد المهول، ووقعت

أنظاره على الحقائب، والتي صعق حينما فتحها لما فيها من كمية مهيبة من الأموال، فتراجع خوفًا، ثم تساءل:

- إيه الفلوس دي؟!

ردَّ الشيخ (عبد الجواد) الذي كان يقف وسْط الجموع:

- نِعَم من عند الله يا شيخ يا مبروك، تفضل فهي لك.

تراجع (المبروك) إلى الخلف، وأمسك الباب، وكاد يردُّ إليهم الأموال، ولكن قفزت في رأسه فكرة، فابتسم قائلًا بصوتٍ عالٍ:

- يا أهل القرية يا طيبين، أنا مش محتاج الفلوس دي، في غيري محتاجها، أسعد المسكين، اعطوها له جزاكم الله خيرًا دنيا وآخرة.

هللوا فرحين لقراره النابع من صميمه النقي، وقد زاد في قلوبهم محبةً وبركة، وعلموا أنه لا يبحث عن الأموال. وبالفعل، أعطوها لـ(أسعد)، والذي لم يصدق عينيه من هول المنظر، فكاد يموت فرحًا.

❋❋❋❋

في اليوم العاشر، دلف (المبروك) إلى المسجد لصلاة العشاء، فقبَّل الناس يديه وحاولوا التبرُّك به. جلس حتى أنهى الصلاة، وخرج من المسجد يسبح، فساق قدميه إلى اللامكان؛ هربًا من هؤلاء المجانين الذين قدَّسوه وهو الغريب..

خرج من المدينةِ متخفيًا، وتنقل بين الأزقة متلفتًا، حتى وصل إلى أعتابها، فشقَّ طريقًا زراعيًا واسعًا، وخرج منه ليضحى في صحراء جرداء، وسْط أجواء الليل الصهباء.

في تلك الأثناء، كان يقف شخصٌ على مرمى بصره، فتوجه نحوه حتى وصل إليه، إنه (أسعد) ومعه الأموال. وقف أمامه (المبروك)، دسَّ مسبحته في جيب جلبابه، ثم أزال شعر ذقنه المزيف وخلع عمامته قائلًا:

- بعد اللي شوفته وحصل، أعتقد هيكون ليك مستقبل عظيم في التمثيل.

شرع في خلع ملابس النصب خاصته قطعةً تلو الأخرى حتى انتهى، فصارَ شخصًا آخر لا يمتُّ إلى (المبروك) بصِلة، صار شابًّا ثلاثينيًّا يدعى (إبراهيم)، الحرباء المتلحِّفة بوشاح البشر. قابله (أسعد) بوجهٍ عابس، وقال معاتبًا:

- سايبني عايش معاهم ٣ سنين بمثل إني أعمى ومشلول ومبتكلمش، ده أنا كنت قربت أصدق إني فعلًا مخبول!

ضحك (إبراهيم) ساخرًا، ثم اقترب منه حتى التصق به، ورمق بعينيه حقائبَ الأموال قائلًا:

- كان لازم نسبُكها صح، الناس دي عمرها ما كانت هتصدق الفيلم اللي اتعمل إلا بالطريقة دي، كان لازم نزرع في قلوبهم اليقين إنك واحد منهم، وإلا كنا فشلنا.. ولازم تعرف إن في زمنا ده، الضحك على رجال الدين أسهل من الضحك على المجانين.

وبعد أن أنهى حديثه، جثا على ركبتيه، فتح الحقائب وقبض على ما بداخلها قائلًا:

- ريحة الفلوس دي تنسيك عمرك كله، مش بس ٣ سنين.

جثا (أسعد) على ركبتيه هو الآخر، احتوى بين يديه بعض الأموال، فسحب من رحيقها نفَسًا عميقًا، ثم تركها ونظر إليه قائلًا:

- إيه الخطوة الجاية؟

تحامل (إبراهيم) على قدميه حتى وقف، ثم سرح بعينيه نحو الطريق الفارغ، وجدد هواء رئتيه بشهيقٍ عميق قبل أن يقول:

- دورك انتهى..

ثم نظر إليه ليردف:

- هنفترق هنا..

وقف (خليل) مذهولًا مندهشًا لقراره، لقد عاش لثلاثةِ أعوامٍ باسم (أسعد) فقط ليغش الناس الطيبين، وها هو ينول الجزاء الحسَن، ولا يطمح إلى شيءٍ آخر. لم يتفوه بكلمة، ووقف يتابع (إبراهيم) بصمت، ذلك الشخص الذي مثَّل على الناس بأن اسمه الشيخ (أحمد المبروك)، صاحِب الكرامات الذي يَشفي المرضى فقط بالدعاء..

نزل (إبراهيم) على ركبتيه، وعبث في الأموال حتى أخرج منها ما يقارب ثلثها، فوضعه في حقيبةٍ أخرى منفردة، ثم ناولها إلى (خليل) قائلًا:

- انسى إنك عرفت واحد اسمه إبراهيم، واعتبر نصيبك من الحظ في الدنيا كان كبير كفاية إنك تقابلني.

تناول (خليل) حقيبة أمواله بلهفة، فضمها إلى صدره شاعرًا بلوغه غاية الراحة. ربَّت (إبراهيم) على كتفه باسمًا، ثم حمل حقيبته على ظهره وشقَّ الصحراء الفارغة سيراً على الأقدامِ راحلًا، تاركًا خلفه كل شيء، القرية الصغيرة وناسها الطيبين، و(خليل) الذي مثَّل عليهم لثلاثِ سنوات أنه مجذوب، و(إبراهيم) الذي تخفى في عباءة (المبروك) ذي الطُّهر المزيف فصدقه الناس. لم يشغل عقله سوى أن المتدينين في ذلك الزمن لا يستطيعون التفرقة -دون قصدٍ- بين الخطأ والصواب، وأن ذلك الخيط الرفيع الفاصل بينهما قادرٌ بسهولةٍ على زعزعة إيمانهم وإيقاعهم في المحظورات.

****

أربعة أسوار حديدية تغلف ساحةً واسعة، صحراء جرداء بلا حياة، يتوسطها كهفٌ عريقُ الشكل مهيبُ الارتفاع، أمام الكهف في المنتصف تقبع شجرةُ تفاحٍ مليئةٍ بالثمر

الأحمر وورق الشجر الزاهي، ترفرف وسط الليل منيرةً تسُر الناظرين، وبجانبها عينٌ غامرةٌ بالماء النقي، وحولها الموت متجسد في الموجودات، صمتٌ مهيبٌ وهدوءٌ يسبق العاصفة القاتلة، أضافَ كل ذلك هيبةً تُرهِب الأنظار..

وعلى باب الأسوار الحديدية المُغلَق بأقفال ضخمة، وقف خمسة أشخاص ذوي أجسادٍ نحيلةٍ بارزة العظام، لا يرتدون ملابس، أجسادهم متسخةٌ ورائحتهم نتنة. لمسوا بأصابعهم المهترئة البابَ محاولين العبور، وعلقوا أنظارهم بالشجرة المثمرة كأنها قد سحرَتهم فلم يعيروا انتباهًا إلى بعضهم بعضًا..

حاولوا دفع الباب ليعبروا، ولكنه كان مُحكَم الغلق، فأصدروا أصواتًا خافتةً كأن أحبالهم الصوتية قد مُزِّقت. يسقطون في غير تحمُّل من تارةٍ إلى أخرى، ثم يتحاملون على أقدامهم من جديد، ليقفوا محاولين الدخول إلى ساحة الكهف المريب..

تخفى جسد (إبراهيم) تحت وشاحِ الظلام، على طرف الكهف يسترقُ الأنظار، يدقق كالرسام فيحفظ ملامح الموجودات. وأما عن ملامحه هو، فقد ارتسَم شبح ابتسامةٍ على شفتيه، وغلبَ الشيبُ قسمات وجهه، متكئ على عصا جامدةٍ صلبة، ويتوارى متخفيًا حتى لا يبصره هؤلاء الأشخاص، التقط نفسًا عميقًا سعل على إثره، وقد غلبَ قسمات وجهه شيبُ سنِّه التي قاربَت الستين، ثم قال كأنه يتحدث مع نفسه:

- كآدم، مَهزوزِين اليقين!

تراجع بضع خطواتٍ إلى الخلف، وبدا أنه يتحدث إلى مجموعةِ أشخاصٍ يتابعون حديثه وحركاته بتأنٍّ وفضول. صمتٌ أطبَق على المكان في أثناء تحرك (إبراهيم) البطيء، والذي كان ثابتًا ملتصقًا في الأرض بقدميه، ابتسم كعجوزٍ أوشك على الموت، ثم أردف قائلًا:

- لحظة فارقة في حياتهم، إما يتشبثوا بيها، أو يموتوا.. والموت دايمًا يهابه الإنسان، يخاف الاقتراب منه، مصيبة الزمن، اقتراب الأجل من غير ميعاد.

عاد السكوت يهزِم صراخ الجمادات، و(إبراهيم) يتابع حركة الماثلين أمامه ويستمعون إليه بتركيزٍ مُتقَن كأنه يلقي محاضرةً هامةً على وشك تغيير مجرى حياة البشرية جمعاء:

- الملذات، العهر والفساد، وكل خطايا آدم اللي ورِثها أبناؤه، كانوا فاكرين إنهم كده بيِبعدوا، بس كل ده، كان بيرسم الطريق لخط اللقاء الأخير.

سعل (إبراهيم) مرةً أخرى، يجاهد كي يبقى على قيد الحياة، ثم تحرك نحو صخرة، جلس عليها، وأطلق تنهيدةً قبل أن يُردِف بصوتٍ ضعيفٍ في أثناء تلاعُب يديه دون اهتمامٍ في الهواء:

- هما فاكرين إنهم بيحاربوا بعض على شوية ثمرات، لكن الحقيقة إنهم بيحاربوا بعض على شوية وقت، إضافة زمن لحياتهم، مين هيضيف وقت أكتر.. الجشع عندهم في الوقت، والوقت له قيمة، بس ليه له قيمة؟ محدش من اللي برا عارف، هنا بس، الوقت له قيمة.

بعد أن نطق جملته الأخيرة، نظر إلى الواقفين أمامه يُخبِرهم أنهم هم المقصودون، ثم صمَت قليلًا وقد شعر من دواخله أنه يهلَك، وسعل بقوةٍ أخرجَت مخاطه غصبًا فتساقط أرضًا، تمسك بعصاه وحاول التقاط نفَسِه، وقد احمر وجهه قبل أن يقول بصوتٍ مُنهَك:

- المرض، عدو ضعيف، الإنسان فشل في الانتصار عليه في كتير من حروبه، ده دليل على الضعف.. لما ضعيف يحارب ضعيف، تفتكروا مين هينتصر؟!

ثم سعل بكثرةٍ كادَت تُزهِق روحه، لتتلطَّخ الأرض بمخاطه المُختلِط بلعابه وتبرُز في المنتصف نقطتان من الدماء..

- بس اللي محدش اكتشفه قبل كده، إن المرض له لذة؛ لذة الألم.. ساعتها كل خلية في الجسم بتكتشف قيمة الحياة من أول وجديد، كأنها طفل، لسه طالع من الرحم، بياخد

نفَسه الأول.. ساعتها بيعرفوا الحقيقة، لإنهم قبل المرض كانوا مُبهَمين، مش عارفين قيمة سكونهم، لحد ما بيكتشفوا، إن وجودهم، مبني على ألم.

وقفَ على قدميه، مسحَ فمه بيده، ثم تحرك ليتفقد المُقتحِمين كهفه وقد زاد عددهم إلى عشرة أشخاص، فابتسم قبل أن يعود إليهم ببصره قائلًا:

- عددهم بيزيد في لحظات، تفتكروا إيه أول حاجة هيعملوها بعد دخولهم من الباب ده؟

أشار إلى الباب بعصاه، ثم دقق بناظريه في الهياكل العظيمة الحية التي تشبه الموتى الأحياء في تصرفاتها، وقد تغلغل بدواخله شعور النهاية القريبة. تنفس براحةٍ قبل أن يقول:

- أعتقد إنهم هيقتلوا بعض!

قذف جملته الأخيرة، ثم تحرك بخطواتٍ ثقيلةٍ مُتكِئًا على عصاه، وولَج إلى الكهف، فجلس على الصخرة، وسلط ناظريه على الواقفين أمامه ببلاهةٍ وقد تاهَت عن أدمغتهم المعرفة، والفضول نحوها قد غلبهم حتى إنهم كادوا يموتون تشوُّقًا إلى سماع كل كلمةٍ تُقال، وقد تلاعب (إبراهيم) على أوتار نهَمِهم باحترافية متخصصٍ في بواطن البشر غير المتزنةِ المهترئةِ الرثة.

(٣)

الحرب دائرة بين الطرفين منذ أن تمَّت التفرقة العنصرية الدينية من قديم الأزل..

كلٌّ لديه اليقين أنه على صواب، وأن نهايته ستكون سويةً وسينول الجزاء الحسَن..

وسيُباح المحظور إن تطلَّب الأمر، إذ إنه معروفٌ أن الإله معهم ليحميهم؛ الإله الواحد الأحد ربُّ الطرفين، وقد فرَّقاه!

«الشيء الذي يجب أن تعلَمه في البداية، وألا يُمحَى
من ذاكرتِك، هو الاحترام، والإيمان، والطاعة، ثم الطاعة،
ثم الطاعة.. حينها فقط، تستطيع أن تعبُر من الجحيم
إلى النعيم، وفقط إن تَبِعتني، وجعلتَ عقلك يُدرِك
ويراني كما يجب أن أرى، فيُسخِّر كل جسدك حتى
ترتقي بكل حواسِّك، عواطفِك، انفعالاتِك، من صديقٍ
إلى خادمٍ إلى مُطيع.. وأعلى درجات الطاعة، هي طاعةُ
الملاكِ للإله!»

السامري إلى الأرقم

رفات مارمرقس..

في تمام الساعة الخامسة ليلًا من اليوم الموافق الثلاثين من برمودة -حسب الشهور القبطية-، وتحديدًا في مدينة الإسكندرية، في عيد استشهاد (مارمرقس) الرسول، والكنيسة القبطية الأرثوذكسية تستعد لتطهير رفاته والتِماس البركة منه. توقفت سيارة أجرة أمامها، وترجل منها المقدس (رويس)، بعدما دفع أجرة ركوبه..

وقف أمام الكنيسة بملابسه السوداء المُعتِمة بالكامل إلا البدرشين الأبيض الذي غطى جسده من المنتصف، قلنسوته على رأسه وجلبابه على جسده، كثيفةٌ لحيته وطويلة حتى وصلت إلى صدره، يعلق صليبه الذهبي الضخم في سلسلة حول عنقه، ضغط عليه بأصابعه

مستمدًّا منه هالة التقديس والرهبة، ثم سار وسْط الناس نحو باب الكنيسة، فدخل واستقبله الناس مرحبين به. ومع أول خطوةٍ وقف ثابتًا، ثم وضع يده على رأسه متمتمًا:

- باسم الآب..

ثم انتقل بيده إلى بطنه مكملًا:

- والابن..

وأكمل حركته لامسًا كتفه الشمال قائلًا:

- والروح..

ثم لمس كتفه اليمين ليُتِمَّ رسم الصليب قائلًا:

- القُدُس.. إلهٌ واحد.. آمين.

وبعدما تفوه بآخر كلمة، شرع في الدعاء ليكون مُرحَّبًا به بين جنبات الكنيسة:

- أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكُن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا الذي للغد أعطينا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا، ولا تُدخِلنا في تجربة، لكن نجِّنا من الشرير، بالمسيح يسوع ربنا لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد.. آمين.

انغمس (رويس) بين الحشد العظيم لحضور يوم الاستشهاد، ووقف ناظرًا نحو الشرق منتظرًا انتهاء الأب الكاهن من أداء صلاة العشية، وبعد أن مرَّ القليل من الزمن، تحرك الكاهن وولج إلى بابٍ خشبيٍّ ضخمٍ مزركش بالكثير من الأيقونات المسيحية. وبعد بضع دقائق، خرج وفي يده رفات جسد (مارمرقس) الرسول موضوعٌ في صندوق خشبي مستطيل صغير لا يتجاوز الخمسين سنتيمترًا، مغطى بقماشة حمراء مزخرفة. وضع الرفات

على طاولة، ووقف بجانبه مجموعة من المطارنة[1]، ومجموعةٌ من الأساقفة[2]، ولفيف من القساوسة، في حين كان الإكليروس[3] واقفين يتابعون الحدث..

أخرج الكاهن الرفات من القماشةِ وحفظها جانبًا ليعطيها فيما بعد لمن يحتاجها فيُفَك كَربه، ثم وضع صندوق الرفات في إناءٍ كبيرٍ مصنوعٍ من الألومنيوم، وبعدها أحضر مجموعةً من العطور والحنوط[4]، فمزجَها ببعضها بعضًا، ثم تعاونوا جميعًا في تعطير الصندوق الخشبي، وبعد أن انتهوا، لفُّوه بقماشةٍ حمراء جديدة..

وفي أثناء المتابعة بذهولٍ تامٍّ من الجميع، ومن بينهم المقدس (رويس)، انقطعت الكهرباء بغتةً عن الكنيسةِ كلها، ليُفاجَأ الجميع من ذلك الشؤم العجيب، ولكنها كانت مجهزةً بمولدات كهرباء ضخمة فتولَّت المهمة، ولم تمر سوى عشرة ثوانٍ حتى تم تفعيلها، فعاد النور من جديد وسطعَت جنبات الكنيسة بجمالها..

لكن ما اكتشفوه في تلك اللحظة هو الذي أفجعهم بحَق؛ رفات الرسول (مارمرقس) اختفى، كأنه تبخر في الهواء، ليشهق الحضور من مصيبةٍ حلَّت عليهم.

****

تناقلت أخبار اختفاء رفات (مارمرقس) الرسول في الصحف كلها، فانتفض العالم أجمع من بشاعة الواقعة، وانقلبت إيطاليا على مِصر، إذ إن الرفات -في الأصل- كان في إيطاليا، وتسلمته مِصر في الثاني والعشرين من يونيو لعام ١٩٦٨م، وبذلك كانت هي المسؤولة عن اختفائه.

---

(١) المطران: الأقل درجة من البابا.

(٢) الأسقف: الأقل درجة من المطران.

(٣) الإكليروس: عامة الشعب.

(٤) الحنوط: زهور غالية ذات رائحة زكية.

وبعد فحص الكاميرات وانقلاب الدنيا كلها على ما حدث، اكتشفوا أن الشخص الوحيد الغريب وسْط الحضور، والذي كانت تحركاته غير منضبطة، هو ذلك المقدس الذي ولج من الباب ووقف بين الحضور ولم يحرك ساكنًا إلا بعد انقطاع النور، ليختفي بعد عودته كأنه تبخر. فتناقلت الأخبار كلها صوره، ولكنهم أبدًا لم يصادفوه مرةً أخرى.

****

ذو النوَّاس..

محنيُّ الظهر متكئ على عصاه، تحرك مرتعشًا غير ثابت، وقد بدا عليه كِبَر السن والعجز، ثم وقف أمام مرآته، تفقد ضعفه وإنهاكَه وموته القريب، وفكر للحظات، خاف أن يضيع سحره دون أن يُعلِّمه أحدًا، إنه أعتى السحرة على الإطلاق، وإن عِلم الحاكم (ذو النوَّاس) بمرضه، ستكون فاجعةً وعليه تدارُك عاقبتها..

ارتعشت قدماه الرخوتان، كاد يسقط لولا أن تمسَّك بعصاه، وتحامل بقواه الضعيفة حتى جلس على فراشه..

في ذلك الوقت، دلفَت خادمته ممسكة بين يديها صحنًا مليئًا بالطعام، فموعد إفطاره قد حان. أقبلت عليه ووضعت الطعام أمامه، وفي اللحظة ذاتها، كان عند الباب غلامٌ صغيرٌ لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره بعد، وقف يُبصِر الساحر العظيم الذي تمنَّى لقياه منذ خُلِق، والذي لم تنفك أمه تحدثه عنه بلا كلل ولا ملل..

ابتسم الساحر، ثم استنزف صدره بعض السعال كي يحاول ضبط حركته المفاجئة، وبعدها تساءل:

- من هذا يا رفيدة؟ هذه أول مرةٍ أراه!

أشارت (رفيدة) إلى الولد أن ارحَل، ثم نظرت في عيني الساحر خاشعةً -وقد غلب نبرتَها الضعفُ- وقالت:

- أعتذِر من سيدي، هذا ابني مُصعَب، شقيٌّ جدًّا، ولا يسمع لي، تبِعَني إلى هنا لرؤيتك، وقد منعتُه، لكنه بكل تأكيدٍ تسلل خلفي.. أعدك بألا تراه مرةً أخرى، ولكن أرجو منك السماح والمغفرة وألا تؤذيه.

تحامل الساحر على عصاه، ومشى خطوتين ضعيفتين إلى الأمام، ثم قال:

- أقبِل أيها الغلام، لا تخَف.

تحرك (مصعب) نحوه دون خوف -وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ فرِحة- وألقى التحية، فنظر الساحر إلى (رفيدة) قائلًا:

- سيكون له شأنٌ في هذه البلاد، وسيُحدِثُ تغييراً جذريًّا لن يصدقه مخلوق.

اتفق الساحر مع (رفيدة) على أنه سيُعلِّم (مصعب) سحره الأسود كله، وسيجعله خليفتَه، إذ قاربت حياته على الانتهاء، وقد بحَث كثيراً عمن سيُقدِّر نعمة سحره العظيم. وافقت (رفيدة) فرِحةً غير مصدقة، وصار الغلام يتردد يوميًّا على منزل الساحر ليتعلم منه، لكن ما حدثَ كان أغرب..

إذ قابل الغلام ذات مرةٍ -في أثناء مروره من أحد الطرق متوجهًا صوبَ الساحر- راهبَ دين لديه من العلم الكثير، فتودد إليه، مما جعل الراهب يُبصِر هبةً يختصُّ بها الغلام ولا يتمتع بها غيره، فتوطَّدت علاقتهما. ومن هنا أصبح للولد نبعان للعلم والقوة، أحدهما من الساحر والثاني من الراهب، فتعلم من الاثنين؛ عرِفَ كل ما يَعلَمه الساحر من سحرٍ عتيّ، وتعلَّمَ أساس الدين الصحيح من الراهب التقيّ..

هنا تشتت عقل الغلام، فلم يكن يعرف مَن الأصدق، الساحر أم الراهب. وفي يومٍ من الأيام، ظهرت دابَّةٌ عملاقةٌ في البلدة، فخاف الناس جميعًا منها، وقد كانت تقتُل كل من يقع أمامها، فقرر الغلام مواجَهتها، وقراره هذا كي يعلَم أيُّهما أصدق وأفضل، الساحر أم

الراهب. فأخذ الغلام حجَرًا وتمتم قائلًا: «اللهُمَّ إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر، فساعدني كي أقتُل الدابة».

ورمى الدابة بالحجر فماتَت، ثم أسرع إلى الراهب يُخبِره ما حدث، فحذَّره الراهب مما قد يواجهه بعدها، وطلب منه ألا يخبر أحدًا بأمره، وقد وافقه الغلام على ذلك، وابتعد عن الساحر رويدًا رويدًا..

أنعَم الله على الغلام فعالَج المرضى بإذنه، حتى ذاع صيت الغلام بين الناس وتناقلوا سيرته على ألسنتهم، ولما سمع صديق الملك بأمره، أحضر الهدايا وقدمها له طالبًا منه أن يعالجه من العمى، فأخبره الغلام أن الله تعالى هو الشافي، وطلب منه أن يؤمِن كي يُشفَى من العمى، فآمَن الرجل وشُفِي..

توجه الرجل إلى الملك (ذي النواس) مذهولًا غير مصدق بعدما رُدَّ إليه بصره، فسأله الملك مستفسرًا:

- من الذي ردَّ لكَ بصرك؟

التقط الرجل أنفاسًا مُرتاحَة، ثم ابتسم قائلًا:

- اللهُ ربي وربُّك.

استشاط (ذو النواس) غضبًا، وأمر جنوده بأن يخلعوا ملابسه ويصلبوه، وإثرَ صلبِه شرع في تعذيبه بأبشع الصور، كأنه لم يكن صديقًا له ذات يوم، حتى ضعُفَ الرجل واعترف بأمر الغلام..

فأمر الملك جنوده -على الفور- بإحضار الغلام، وصلبه أمام أعين الجميع، ثم سأله:

- من هو الشافي؟

فرد الغلام بصدقٍ رغم أن ذلك يلف حول عنقه طوقَ الموت:

- الله هو الشافي وهو رب السماوات والأرض.

فأمر الملك الجنودَ بتعذيبه أشدَّ العذاب، فعذب الجنود الغلامَ حتى كاد يموت، مما اضطرَّ الأخير إلى أن يُقِر بأمر الراهب ليتجنب الألم، فأحضر الملك الراهبَ وحاول ردَّه عن إيمانه بالله، لكنه رفض..

هنا زاد جبروت الملك حد السماء، فشقَّ رأس الراهب بالمنشار، وفعل الأمر ذاته بصديقه الذي كان ضريرًا..

وبعدما تخلص ممن ينشرون الدعوة إلى عبادةِ الله وتوحيده، إذ كان كافرًا لا يؤمن بالله، حاول قتل الغلام بكل الطرق، لكنه فشل، وعندما فاضَ به الأمر، قال له الغلام:

- لن تقتلني إلا إذا جمَعت الناس وصلبتَني أمامهم، ثم تُمسِك سهمًا وتقول: «باسم الله رب الغلام»، وترميني بالسهم فأموت.

أمر الملك بجمع حَشدٍ عظيم، ووقف أمام الناس متباهيًا بقوته، ثم صلب الغلام وردد الكلمات قبل أن يلقيه بالسهم، فانغرز في قلبه، ومات الغلام. ولما شَهِد الناس ما حدث، آمنوا برب الغلام، فجُنَّ جنون الملك وثارت ثائرته، إذ وقع الأمر الذي كان يخافه ومن أجله قتل الغلام..

حفَر الأخاديد، وأضرم فيها النيران، وصار يحرق كل المؤمنين في البلدة، حتى كاد يقتل شعبَه أجمعين، ولم يردعه هذا عن الاستمرار في تعذيبهم مُستلِذًّا بكل صرخةٍ يسمعها فيُشفَى غليله.

****

بعد مرور ثلاث سنوات على واقعة سرقة رفات (مارمرقس) الرسول، في إحدى القرى الريفية، في الساعة السابعة صباحًا يوم الأحد، في إحدى الكنائس، أتى مُقدَّس من خارج تلك القرية، بدا عليه أنه لأول مرة يزور تلك الكنيسة، فدلف من الباب وتلا دعاءه بخشوع، ثم تقدم ليقف في وجهة الشرق بين الحضور، في حين كان الكاهن يصلي صلاة

الباكر. وبعد أن انتهت الصلاة، اقترب المقدس من الكاهن، وبدا أن لديه حديثٌ مهم، وما إن انتبه إليه الكاهن تفوه قائلًا:

- أنا غريب عن البلد، كنت مار من هنا وقررت أن أصلي في الكنيسة.

فرد عليه كاهن الكنيسة بابتسامةٍ ودودةٍ في تحية له:

- مُرحَّب بيك بينا، معك القس متياس.

ومد يده إليه ليتبادلا السلام، في حين رد الأول:

- وأنا رويس..

دقق الكاهن (متياس) في ملامحه، ثم اقترب منه قليلًا وهو يحاول التخمين:

- الحقيقة، شكلك مش غريب عليا.. هل اتقابلنا قبل كده؟

تلفت (رويس) يمينًا ويسارًا كأنه يتأكد من خلو المكان حوله، وعلى الرغم من تكدس الناس في الكنيسة فقد اختلى بالكاهن بعيدًا، ثم قال متجاهلًا سؤاله:

- قل لي، لو في إيدك تنقذ شيء مقدس من الضياع، هتضحي في المقابل؟

رغم تعجب الكاهن من حديثه الذي اتخذ منحنى آخر، فإن إجابته جاءت واضحةً وصريحة:

- روحي فدا يسوع.

اقترب (رويس) منه أكثر وهمس في أذنه قائلًا:

- رفات مارمرقس الرسول..

تراجع الكاهن برأسه فزعًا، إذ تذكر ملامح (رويس) من صوره المنتشرة في الصحف والجرائد، فصاح قائلًا:

- هو إنتَ اللي...؟!

تلفت (رويس) حوله ثم همس بصوتٍ خفيضٍ مسرعًا:

- وطي صوتك، الناس فاهمة غلط، وأنا جيت أصلح المفهوم ده.

ثم سار قليلًا إلى الأمام بثبات على الخورس[٥]، فتحرك الكاهن معه، ليتحدث (رويس):

- أنا طالب الآخرة والجزاء الحسن، زيك تمام، شايف ده في عينيك، مش لازم حد من المسؤولين يعرف مكان الرفات، نول إنتَ شرف رجوعها، وأهو تزيد قداسة.

حل الصمت على لسانِ الكاهن وأخذ يدير ما قاله داخل عقله محاولًا فهم ما يرمي إليه، حتى أتت الصاعقة من حديث (رويس) إكمالًا على ما سبق:

- مش لازم تفكر كتير وتتعب عقلك، أنا هقول لك على مكان الرفات، ولكن لازم تبعد السر عن المسؤولين. الموضوع أكبر مني ومنك، ولكن أنا واثق من إنك تقدر تحتويه..

كاد يتحدث الكاهن لولا أن (رويس) أردف ليزيده حيرة:

- زي ما قولت لك في البداية، أنا طالب الآخرة، ولعلها نهاية حسنة.

توقف الكاهن (متياس) مكانه كأن قدميه تسمرتا في الخشبِ أسفله، ثم شرع في الحديثِ وقد غمره التعجب:

- أنا مش فاهم أي حاجة، كل اللي عارفه وبيتداول بين الناس إنك سرقت الرفات.

تراجع (رويس) بضع خطوات إلى الخلف ليقف أمام الكاهن، ثم قال:

---

(٥) الخورس: الجزء الذي يقف عليه الكاهن، ويتميز بوجود حاجز منخفض يفصله عن صحن الكنيسة.

- مفيش دليل ولا إثبات واحد.. حتى كلامي اللي هقوله مش هقدر أقدم لك عليه إثبات.. ولكن لك أحقية التصديق من عدمه.. بس هتقول إيه ليسوع يوم حسابك، لو طلع كلامي صحيح وإنتَ تجاهلته؟!

التقط الكاهن نفسًا محملًا بالغرابة لعدم فهمه للحديث، ثم قال راجيًا:

- اتكلم، ويا ريت تكون صريح!

قرب (رويس) فمه من أذن الكاهن ثم همس بصوتٍ خفيض:

- المسلمين.

جحظت عينا الأب فنظر إليه بتعجبٍ وتفوه مندهشًا:

- مالهم؟!

أكمل (رويس) بالنبرة نفسها وقد ارتسم الخبث في عينيه حاملًا تبجحًا عجيبًا:

- هما اللي سرقوا الرفات.

تلفت الأب حوله بقلق، ثم قال بعينين تدور بهما الدوائر:

- إنتَ كده بتعمل فتنة!

ضحك (رويس) مستهزئًا من حديثه الذي لا قيمة له بالنسبة إلى مفهومه، ثم قال شارحًا:

- بلاش شعارات فارغة، الفتنة هما اللي ابتدعوها من زمان، كذبة عدم وجودها بنحاول نصدقها، العنصرية في كل شارع موجودة، والتنمر بين الطرفين عمره ما انتهى.

ثم التفَّ وسار بضع خطوات وطرح سؤالًا يختبر به فضول الأب:

- عندك علم أنا إيه اللي جابني البلد هنا؟

سحبه الكاهن نحو بابٍ ضخمٍ مزخرفٍ يتوسط الخورس، ففتحه ودلفا معًا، ثم أغلقه حتى لا يتسرب حديثهما إلى آذانٍ قد تُفتَن مما يقولان، وقال مستفهمًا:

- وجودك هنا في البلد، وكلامك معايا أنا بالأخص، سؤالين شاغلين بالي من أول ما شوفتك.

حين تكون الصدمة صواعقَ تخرقُ الدماغ فتصرخ بعد التصديق، ذلك ما فعلته إجابة (رويس) به:

- الرفات في القرية، والأفظع إنها موجودة في مسجد النور.

اندهش الكاهن وصاح متعجبًا غير مصدقٍ لحديثٍ سيُتلِف عقله بكل تأكيد:

- المسجد الكبير اللي قدام الكنيسة؟!

أمسَك (رويس) صليبه المعلق بسلسلةٍ حول عنقه، ضغط عليه كأنه يستمد منه قوته، ثم تفوه بحديثٍ يخص نهاية بشريٍّ أفنى عمره كله في الصلاة والدعاء، إذ جاء من يحاول زعزعة عقيدته بعد كل ما قدمه لخدمة الدين:

- ليك حرية القرار، ولكن لازم تفهم حاجة واحدة، إنك لو أخبرت المسؤولين -الكلام هيوصل للمسلمين، وبذلك الرفات هيختفي، وقتها اعرف إن عذابك أمام الرب هيكون عسير جدًّا.

ابتعد الكاهن عنه وقد بلغ الغضب والتردد منه مبلغهما:

- إنتَ مجنون، عاوزني أكون سبب في فتنة!

صاح (رويس) بصوتٍ عالٍ حتى إنه كاد يصل إلى الناس المصلين:

- هما اللي بدأوا.

اقترب منه الأب وعيناه محمرَّتان وعقله يئن لكثرة التفكير، ثم صرخ فيه:

- إنتَ اللي موجود في الكاميرات.

احتمال التصديق ضعيف، ولكن اللعب بالعواطف الدينية قادرٌ على تغيير أي معتقد حتى لو كان سليمًا، فلعب (رويس) على ذلك الوتر:

- شخص دخل الكنيسة متنكر في ملابس قس، وقت قطع النور حسيت بحركة مريبة، شغلت كشاف الموبايل وشوفته ماسك الرفات وبيهرب، جريت وراه على أمل ألحقه، وبالفعل وصلت له وقدرت أعرف ملامحه، ولكنه خبطني بعربيته وهرب، طلعت منها سليم، وفضلت ٣ سنين كاملة بحاول أعرف مكانه، لحد ما استدليت على اسمه..

بعد أن أنهى حديثه، سكت لبرهةٍ كي يمتص الأكسجين من الأجواء، ثم ألقى قنبلةً حسمَت المسألة:

- الشيخ منصور السواح، هو اللي عمل كده.

رد الكاهن عليه متسائلًا في اندهاش:

- شيخ جامع النور؟!

كانت قد اشتعلت من قبل بعض المشكلات الدينية بين الشيخ (منصور السواح) والكاهن (متياس)، وذلك بعد بناء الكنيسة وبداية تشييد جامع شامخ أمامها، كأن الحرب العقائدية تكمن في البناء، ومنذ ذلك اليوم والمشادات بينهما مستمرة. ففي صلاة الجمعة، أحيانًا تخرج بعض الكلمات من الشيخ بتكفير المسيحيين، وفي بعض الصلوات في الكنيسة، تخرج بعض الكلمات من القس بتكفير المسلمين. ولذلك، الأمر مشتعل من الأساس، وها قد جاء (رويس) بحجةٍ قويةٍ ليشعل فتيل الحرب الكبرى بينهما..

- مفيش وقت للاندهاش، لازم نرد عليهم الصفعة باتنين، لازم يكون الرد أقوى، شعارات الفتنة وغيرها اللي لوثنا عقولنا بيها فاسدة.. احنا ضيوف عندهم، وجودنا في البلد دي عايشين تحت ضغط واضطهاد، لازم ناخد حقوقنا كاملة، وهما اللي بدأوا بسرقة الرفات المقدس.. اوعى تنسى إن رجوعك بالرفات هيعمل لك شأن عظيم عند البابا.

فكر الكاهن لبضع لحظات قبل أن يلقي كلماته التالية، ولكنه -بعدما عَقِل الحديث- قال:

- ولو طلع كلامك خاطئ، نهايتي هتكون غير سوية..

أكمل (رويس) لعب معزوفته الشيطانية على الوتر الحساس، ورد عليه بالشعلة الكبرى:

- من غير تردد، أنا عارف اللي بتتعرضوا له يوميًّا من مساوئ بسبب المسلمين، وده لأنكم قِلة في البلد، وطبعًا الموضوع زاد بعد اختفاء رفات الرسول مارمرقس، لازم نسترد منهم الرفات بأي تمن، وإلا منستاهلش نعيش.

طغى صمتٌ قاتل، لكن عقل الكاهن كان يصرخ من التفكير، إذ أتت كلمات (رويس) كالسُّم تتلاعب بمناعته..

- راجِع نفسك.. وقبل ما تاخد قرارك، فكر في نظرات الشيخ منصور ليك من يوم الحادثة بقت عاملة ازاي، الانتصار مرسوم على وجهه..

وبعد أن أنهى كلماته الأخيرة رمقَ الكاهن بعينيه، فأبصر ما يدور في عقله من حربٍ ضروسٍ على وشك تمزيقه، وما كان منه إلا أن زادها بقوله:

- بكرة اسمك يتكتب في التاريخ بسطور من نور، ولما تقف قدام يسوع كُن شفيعًا لي.

حدَّقا في عينَي بعضهما بعضًا بنظراتٍ تحمل الكثير من المعاني المتضاربة، ولكنها لم تكتمل، إذ ساق (رويس) قدميه إلى الخارج بعدما بلغ رسالته، ليترك الكاهن بعقلٍ على وشك التلف من كثرة التفكير.

****

بعد مقابلة الكاهن (متياس) و(رويس)، ظل التوتر ينهش عقل (متياس) يوميًّا، وكلما مر من أمام المسجد ورأى الشيخ (منصور السواح)، شعر في قرارة نفسه أنه يتشفَّى منه بنظراته إليه. وبعد مرور خمسة أيام، تحديدًا في يوم الجمعة، وفي صلاة باكر، بلغ من الأمر مبلغه حتى لم يعد يتحمل، فخطَبَ خطبةً طويلةً مفادها أن المسلمين سرقوا رفات الرسول (مارمرقس) وأنهم يستهزئون بهم، وتطرق إلى أشياء أخرى مثل اضطهاد المسيحين في مِصر، وأن حقوقهم مهدورة، وأنهم يتعرضون يوميًّا لأشد أنواع العنصرية، مما يوجب عليهم استرداد حقوقهم بالقوة، وإعادة رفات (مارمرقس) المدفون أسفل المسجد..

فكانت الشعلة التي أشعلت الفتيل، ومنها تم التحريض على مذبحةٍ لن تنتهي إلا بعودة الرفات، وبالفعل استشاط الناس من دواخلهم بغضبٍ دفين، والبعض -إن لم يكن الكل- تذكر موقفًا مهينًا قد تعرَّض له في الشارع. وبعدما أوصلهم الكاهن إلى ذروة الغضب وملأ قلوبهم بالسواد، انتظروا جميعًا حتى تجاوزت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وبعد انتهاء المسلمين من أداء صلاة الجمعة وعندما همُّوا بالرحيل، خرج الرجال المسيحيون من الكنيسة مهاجمين المسلمين، فلم يكن في يد المسلمين شيء يفعلونه سوى الرد بالمثل، ليحدث اشتباك تحول إلى مجزرةٍ سقط على إثرها ضحايا كثُر، وعلت أصوات النساء يصرخن على مفقوديهن، في حين تشربت الأرض الكثير من الدماء، وقد كان المعظم يقتل فقط لأن بداخله حقدًا دفينًا وعنصريةً دينية، ولم يكن يسعى إلى إعادة الرفات كما زعم الكاهن، بل فقط ليشفي غليله، فقد انتظر الطرفان تلك اللحظة منذ عقود، وها هي تتحقق من العدم، وإن سقط ضحايا كثُر من الطرفين، سيصعدون بالفعل إلى ربهم في السماء ليسكنوا الجنة شهداء..

ونسي المسيحيون أنهم يحاربون من أجل استرجاع الرفات، وقرروا قتل كل مسلم يعترض طريقهم، في حين قابلهم المسلمون بالحدة والجنون نفسه..

أما عن أمر الرفات، لم يعلم أحد أين توجد الآن، ولا حتى (رويس) الذي أشعل الحرب بين الطرفين.

****

أبرهة الحبشي..

يركض على قدميه ويرجوهما ألا تتوقفا، يعنِّف الأرض فيسقط على وجهه، ثم يقف مرةً أخرى وينظر خلفه فيهرول هاربًا باكيًا، كالجملِ لا يشعر بالتعب، عبر الطرقات كالسفينة تتخبط في الأمواج، حتى وصل إلى بيته. سحب حصانه وحلق به في فيافي الصحراء، وظل لأيام حتى وصل إلى روما، فتوجه صوب القصر لمقابلة القيصَر، وما إن وافق الأخير على مقابلته، وقف أمامه يلهث من كثرة التعبِ قائلًا:

- لقد حرقَ ذو نواس النصارى أجمعين، ألقى بهم في الأخدود وأضرم فيهم النار، وقد حالفني الحظ لأنجو بنفسي كي أحتمي بك.

جلس القيصر على عرشه مفكرًا، ثم أخذ قراره بإرسال الرجل إلى (النجاشي) حاكم الحبشة، ليخبره بما حلَّ بنصارى نجران، ولكي يعُد العدَّة للانتقام لهم ولدينهم..

ولما سمع (النجاشي) بما حل بنصارى نجران (أصحاب الأخدود)، أمر بتجهيز العُدَّة والعتاد والجيش بأكمله للقتال، وتوجه الجيش الحبشي إلى اليمن بقيادة كلٍّ من (أرياط) و(أبرهة).. نشبَت حرب ضارية انتصر فيها الجيش الحبشي، وتولى بعدها (أرياط) حكم اليمن، وبعد فترةٍ زمنيةٍ ليست بالكبيرة، طمع (أبرهة) في الحكم فعَزل (أرياط) واستولى على زمام الأمور في اليمن.

وحين استوَت أموره كحاكم اليمن، بنى كنيسةً كبيرةً لكي يرضَى عنه (النجاشي)، وتوقع (أبرهة) أن يغير أهل الجزيرة العربية وجهةَ حجِّهم إلى كنيسته بعد أن اكتمل بناؤها. لكن العرب رفضوا تغيير الكعبة كقبلةٍ للحج، وقد سافر البعض منهم إلى الكنيسة فقط ليُلوِّثوها بالأوساخ والقمامة..

ولما علِم (أبرهة) بما فعله بعض العرب بالكنيسة التي شيَّدها، غضب وقرر جمع جيشٍ عظيمٍ لهدم الكعبة!

أول من خرج للقاءِ جيش (أبرهة) رجلٌ من أشراف اليمن يُقال له (ذو نفر)، دعا قومه فأجابوه والتحموا بجيش (أبرهة)، لكنه هُزِم وسيقَ أسيرًا إلى (أبرهة)!

خرج بعد ذلك (نفيل بن حبيب الخثعمي) لمحاربته، فهزمه (أبرهة) وأخذه أسيرًا، ثم جعله دليلًا لجيشه لأنه يعلم بمكان الحج. وحين وصلوا إلى الطائف، خرج رجالٌ من ثقيف، وقالوا لـ(أبرهة) إن الكعبة موجودة في مكة، حتى لا يهدِم بيت اللات الذي بنوه في الطائف، وأرسلوا مع الجيش رجلًا منهم ليدلهم على مكان الكعبة! كان اسم هذا الرجل (أبو رغال)، والذي توفي في الطريق ودفِن فيها، وصار قبره مَرْجمًا عند العرب.

فبعث (أبرهة) رسولًا إلى مكة ليسأل عن سيد هذا البلد فيبلغه أن الملك لم يأتِ لمحاربتهم وإنما جاء لهدم البيت، وذلك بعد أن هجَم بالفعل على بعض المنازل والمراعي وسرق منها الأغنام والإبل. وقال في رسالته، إن لم يتعرَّض سيد البلد لهم فلا حاجةَ له في دمائهم! وإن كان السيد لا يريد الحرب، فليأتِ إلى الملك.

وقتها، كان سيد مكة (عبد المطلب)، ولما وصلته رسالة (أبرهة) ذهب للقائه..

دخل (عبد المطلب) على (أبرهة) بهيبةٍ عظيمةٍ أجبرت الأخير على النزول من عرشه لاستقباله ببشاشةٍ وتعظيم، عندها افتتح (عبد المطلب) الحديثَ قائلًا:

- جئتُ من أجل الغنم والإبل التي نهبها وسرقها جيشك.

هنا تعجب (أبرهة) من حديث (عبد المطلب) فقال:

- عندما دخلتَ عليَّ لمستُ فيك الهيبة، ولكنها الآن قد سقطت.

ليتساءل (عبد المطلب) مستغربًا من حديثه قائلًا:

- لِمَ؟

فردَّ (أبرهة) وقد علا عرشه فجلس عليه متكبراً:

- ظننتك قادمًا للحديثِ عن الكعبة، ولكنك الآن تحدثني عن الإبل!

ابتسم (عبد المطلب) وقد بدت عليه الراحةُ والطمأنينة..

- أما الإبل فأنا ربُّها ومسئولٌ عن حمايتها، وأما الكعبة بيت الله فلها ربٌّ يحميها.

فأعاد (أبرهة) الإبل إلى (عبد المطلب)، ولكنه أخبره بلهجةٍ شديدةٍ أنه قادم بجيشٍ عظيم.

عاد (عبد المطلب) إلى قومه وأمرهم بأن يفروا هاربين من مكةَ ويخرجوا منها، خوفًا من جيش الظالم. وبالفعل، جمع (أبرهة) جيشًا عظيمًا وهجم به على مكة، وكان من ضمن الجيش فيل ضخم كبير مُروَّض ليُسَاق إلى الكعبة فيهدمها، وقد كان يسير في المقدمة، وهجَم على مكة بضراوة، فسقط الكثير من الضحايا جرَّاء تلك الحرب المُروِّعة.

****

بينما يتساقط الضحايا واحدًا تلو الآخر من الجهتين، من المسلمين والمسيحيين، تابعَ (رويس) المعركة من بعيد، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة نصرٍ سحيق، بعد أن تأكد أن الحرب لن تخمد إلا بسقوط أغلب الموجودين، أو بإبادةٍ كاملةٍ لمجموعةٍ منهم..

التف بجسده مغادرًا، مر بين الأزقة الهادئة، والتي لم تخطُها قدمٌ واحدةٌ بعد انغماس أهل البلدة أجمعين في تلك المذبحة التي لن تنتهي على خير. شقَّ القرية سيرًا حتى خرج منها، وفي أثناء رحيله حاملًا على وجهه ابتسامته العجيبة، نزع لحيته وخلع ملابسه فألقاها أرضًا، لتظهر ملامحه الحقيقية، ليتجلى (إبراهيم) في أبهى صوره.

****

تلاشَت السكينة وانقشَع الهدوء، وحل مكانهما صوت اهتزاز الأسوار الحديدية نتيجة خبطات الناس الفزعين حولها، يصرخون بصوتٍ ضعيف، يستنجدون للدخول، يعلقون أبصارهم بالشجرة المثمرة، كأنها سحرَت عقولهم. واحدٌ وتسعون عددهم الآن، يتزايدون بسرعةٍ مهولة، كأنهم يوصلون الأخبار إلى بعضهم بعضًا كي يشاركوا في معركة البقاء. يتشابهون في تكوينهم كثيرًا مع اختلاف ألوانهم، يتشابهون في أجسادهم النحيفة العظمية، قوتهم الهالكة، اتساخهم المقزز، وعقولهم الشاردة. ورغم قوتهم الضعيفة حد الحضيض، فإن ذلك السور لن يصمد أمام تكالبهم عليه كثيرًا ومع تكاثرهم المستمر، إذ أضحوا ثلاثةً وتسعون الآن، رجالًا ونساء، أطفالًا وعُجُز، وها هم في تزايد مستمر سريع وملحوظ..

يقف (إبراهيم) متمسكًا بعصاه مثل قدمٍ ثالثةٍ تساعده على الثبات، ويتابع حركات الناس الغريبة وتسابُق أنظارهم نحو شجرةِ التفاحِ وعين المياه، ليبتسم من أفكارٍ تُهاجِم عقله، ثم تحرك بضع خطوات إلى الخلف، وقد بدا عليه أنه يُجاهِد عقلَه جرّاء التفكير المريع، فقال في أثناء نظره إلى الأرض سارحًا:

- اليوم ده صعب، يمكن أصعب يوم هيعدي على البشرية..

تقدم نحو صخرته القابعة في الكهف، جلس عليها، ثم نظر إلى الواقفين أمامه بتأمُّل، تفقد كل أعضاء أجسادهم، كأنه يتشبع بالنظر إليهم، وقد زادهم ذلك تعجبًا ورهبةً من الموقف المخيف، ثم قال متفلسفًا:

- البشر عبيد أهوائهم، وبطونهم، واحتياجاتهم الجسمانية، مبيقدروش يكبِتوا شهواتهم.. وده بيكون دايمًا أول طريق سعيهم للفساد.

صمت للحظة، عدل من وضع العصا واتكأَ عليها في أثناء جلسته، ثم انتقل بناظريه نحو الفراغ وأردف:

- ولكنهم دايمًا بيوجِدوا سبب لأفعالهم، حتى لو كان غير منطقي، لازم يكون فيه شماعة يعلقوا عليها أخطاءهم!

التقط نفسًا عميقًا محملًا بالكثير من الأفكار المُمِيتة والمُقلِقة، ثم استطرد حديثه قائلًا:

- حاسس إن اللحظات الأخيرة قربت!

عاد بناظريه إليهم، كأنهم يبادلونه الحديث، وفي الحقيقة، هو لم يُرِد منهم أن ينطقوا بأي كلمة، إذ إن أوانَ الكلامِ لم يحن بعد، هو فقط يهذي مع نفسه..

- تفتكروا نهاية العالم هتكون ازاي؟

ألقى بسؤاله، ثم أكمل حديثه باستغرابٍ وتساؤل:

- خراب؟! موت لكل الباقيين؟! ولا...

تحامل على عصاه وقدميه الضعيفتين، اقترب منهم، وما زالت شفتاه تنبسانِ بحديثه الفلسفي المليء بالتعجب:

- تفتكروا الإنسان يقدر يخلق كون جديد يعيش فيه؟!

تحرك بضع خطوات، ألقى بنظرةٍ ثاقبةٍ نحو الضعفاء الذين يحاولون اقتحام الكهفِ وقد زاد عددهم إلى المئة، ابتسم ثم أكمل ما كان يقوله:

- معتقدش؛ عقله محدود، ومبيفكرش غير في بطنه!

ضغط بيديه الاثنتين على العصا، ثم وقف شامخًا ناظرًا إلى الواقفين أمامه، لحظات طالت كأن شعاعًا من عينيه يخرج نحوهم فيُسكِتهم، ثم تفقد الكهف بعينيه وأخذ يشرح ناطقًا:

- كل شعور بيحسه الإنسان محدود، الإنسان ضعيف جدًّا، مهما بلغ من قوة وجبروت، مجرد جسد بيمرض وبتتدهور حالته.. وفي النهاية بيقابل العدو الأكبر، الموت!

تحامل على قدميه، وأضاف إلى مشيته الرزينة عدةَ خطواتٍ نحوهم، حتى كاد يلتصق بهم، فثبَّت عينيه في أعينهم، وفتحهما عن آخرهما، ثم قال منبهًا:

- لازم تعرفوا إن الدنيا متخلقتش عبث، فيه قوانين خارجة عن إرادتنا بتحكمها، وأهمها إله نعبده، نقدسه، حتى لو ضلِّينا الطريق، لازم في النهاية نوصل للنور. إنتم مفضلين على البشر، وجودكم له غاية، إنتم الأمل الأخير، ولازم تؤمنوا بقدراتكم، وتعتزوا جدًّا بنفوسكم، وتفتخروا بوقوفكم دلوقتي، في اللحظة دي، وفي المكان ده.

وضع خاتمة كلماته، ووقف في مكانه متأملًا نظراتهم الضعيفة، وارتعاش أطرافهم البيِّن، والخوف الذي تغلغل في قلوبهم حتى بنى عرشه بجبروته..

ابتسم، ثم تحرك مبتعدًا عنهم، لمس صخرته، جلس عليها، واستند إلى عصاه متابعًا نفوسهم الضعيفة التي التهمها الهوان.

(٤)

حرباء تتلون بألف لون، لها رأسٌ يلُف في كل اتجاه، احذر معاشرتها فتكون نهايتك الغدر..

وثعبان يختطف روحك بلَعقةٍ من سُموم حلقه، وما أدراك ما سمُّ الثعبان!

«اللسان! الشعوبُ تُحكَم باللسان، ويلين الناس بمعسول
الكلِم، فيَنجرِفون نحو العاطفة لسذاجةِ قلوبهم، فإن
كان الحاكم ذا لسانٍ فصيح، لن تهُم حينها أي إنجازاتٍ
قد يُحقِّقها لشعبه، وقد يوهِمهم بما لم يفعل.. وللحَق،
الوهمَ من صُنع اللسان، وإنك لتستطيع سلبَ أي عقلٍ
بأكاذيبِ الخيال، ليصبح الحديث أهم من الأفعال،
فتُسيطِر على العقول، بل وعلى القلوب أيضًا»

السامري إلى الأرقم

اليهودي..

في صقيع يومٍ شتويٍّ مبهج، وسط النسمات الصاعقة، بين عظَمة المباني المتجسدة الشاهقة الارتفاع والجمال الذي صنعه البشر، تحديدًا في مدينة تل أبيب بفلسطين، سار (إسحاق) -الرجل العجوز الذي تجاوز الستين من عمره- وسط العمائر قاصدًا وجهته الخاصة، باحثًا عن الالتزام وتطبيق الشريعة اليهودية، فاتجه نحو «الكنيس الكبير»، وقد نَحَّى كل ملذات الدنيا جانبًا..

إنه من «الحريديم»، اليهود المتدينون المتمسكون بنصوص الشريعة، فكان يشق طريقه مرتديًا زيَّ يهودِ شرق أوروبا؛ المعطف الطويل الأسود، القبعة السوداء المستديرة الصغيرة على مؤخرة الرأس، والمسحوب عليها «الطاليت»، وهو الشال الأبيض اليهودي.

ذقنه طويلةٌ كثيفةٌ تصل إلى منتصف صدره، وتتدلى بجوار أذنيه خصلاتٌ من الشعر المقصوع..

توقف أمام الكنيس للحظات يتأمله، وقد أبصر فيه حلمه السرمدي، ثم دلف إليه، مشى حتى وصل إلى منتهاه، ووقف خاشعًا لثوان. لم يكن يوجد أحدٌ بالمكان، إذ إن الميعاد ليس ميعاد صلاة، ولكن الحاخام(٦) (إيليا) كان يقبع هناك، فأبصر (إسحاق) عند دخوله، وتجاهله في بادئ الأمر، لولا أن لاحظ أنه يتتبَّعه بناظريه، فقرر الذهاب إليه والترحيب به بلكنةٍ فلسطينية:

- يا هلا فيك في بيت الرب.

ابتسم (إسحاق) لما لاقاه من بشاشةٍ ورحابةٍ في وجه الرجل الذي قابله، فمد إليه يده يرد السلام قائلًا:

- يا هلا فيك يا حاخام.

وبعدما تصافحا، تساءل الحاخام (إيليا) مبتسمًا وعلى قسمات وجهه البشاشة ذاتها قائلًا:

- هو إنتَ من تل أبيب؟! هاي أول مرة بشوفك هون في الكنيس.

التقط (إسحاق) نفَسًا أضعف رئتيه العجوزتين، وحاول التماسك والتحامل على ما تبقى له من قوةٍ ضئيلة، وشرح بقوله:

- أول مرة في تل أبيب، قاعد في بيت بحارة بني براك.. بس أنا عِشت في أشدود عشرين سنة، بعد ما اتخرجت من المدرسة الدينية في أوروبا وعمري أربعين سنة، قررت آجي على إسرائيل وأعيش فيها.

(٦) الحاخام: رجل الدين عند اليهود.

بوجهٍ باسِم الثَّغر رحَّب (إيليا) به، وقد بدا على وجهه الحب والود والاحترام في أثناء قوله:

- تل أبيب بترحب فيك، أنا الحاخام إيليا.

رد عليه (إسحاق) كأنه توقع السؤال قبلًا، ليدهشه بإجابته:

- وأنا إسحاق، من أتباع الحريديم.

ازداد الحاخام سعادةً بعد أن أعرب (إسحاق) عن انتمائه المُشرِّف، فرد عليه وهو الذي يتبع النهج نفسه:

- أنا كمان من أتباع الحريديم.

وأيضًا يعرف (إسحاق) ذلك سابقًا، ولهذا كان رده:

- وهذا سبب إني جيت لك، عشانك متمسك بالهالاخاه الأرثوذكسية[٧]..

شرع (إسحاق) في التحرك لأن قدميه تؤلمانه من الوقوف المستمر، وأخذ يتأمل جنبات الكنيس في أثناء قوله:

- عِشت حياتي كلها في اليشيفات[٨]، مع إنو مذهبي بيؤمرني إني أتزوج وأجيب ولاد كثير، أنا امتنعت عن الزواج عشان أنشغل بدراسة قواعد الدين الصحيحة.

تبعه (إيليا) في حركته، وقد اطمأن قلبه إليه من حديثه المرتب، وأبدى إعجابه به بقوله:

- أشهد بالرب إنك مثال بيفتخر فيك كل يهودي.

---

(٧) الهالاخاه الأرثوذكسية: الشريعة اليهودية.

(٨) اليشيفات: مدارس لتعليم الشريعة اليهودية الصحيحة.

التفت (إسحاق) نحوه واعتدل واقفًا في مكانه، ليفعل الحاخام المثل، ثم شرح له سر قدومه:

- أنا حابب أخدم في الكنيس لو تسمح لي، عشان حاسس إنو نهايتي قربت، والكنيس بيخفف كثير عني من مصايب الدنيا، على أمل إني أموت وأنا راضي عن نفسي، وأقابل الرب بقلب صافي.

قراره نزل على عقل الحاخام غريبًا غير مبرَّر، ولذلك تردد قبل أن يرد عليه، إذ إنه على الرغم من تدين (إسحاق) فإن الأمر مريب، فهو لا يعلم عنه أي شيءٍ بعد، وهذه هي أول مرةٍ يقابله فيها. ظل يفكر لبضع ثوان تأمل في أثنائها ملامح (إسحاق)، ولكنه سرعان ما حسم الأمر، فقال باسمًا:

- اعتبر حالك موجود من هاللحظة.

تبادلا الابتسامات المريحة معًا، وشعر (إسحاق) من دواخله بأن أحلامه تحقق، وأن تلك الخطوة العظيمة يجب أن يكون لها الكثير من التبعية المميزة، ووجب عليه استغلالها.

****

بعد مرور عام من التحاق السيد (إسحاق) بالكنيس الكبير، أثبت جدارته وولاءَه وبأنه يستطيع قيادة الكنيس بجدارة، ولذلك، كان من وقتٍ إلى آخر يُصلي بالمصلين، ويؤدي الأناشيد ويقرأ من التوراة أمامهم..

وفي أحد الأيام، حالفه الحظ حين دلف إلى الكنيس رئيس الوزراء (ولافي) ومعه الحرس، إذ أرادوا الصلاة. وكان (إسحاق) وقتها منغمسًا في خطبةٍ يلقيها على مسامع المصلين، وقد استمع إليها (ولافي) بتأنٍّ:

- لا شك إنو احنا بنستنى المسيح اليهودي لحتى يخلصنا من متاعب هالحياة ويقيم لنا مملكة الرب على الأرض عشان تتحد مع مملكة السماء.. بس قبل هيك، لازم تتأكدوا إنو فلسطين أرضنا من البداية.. وأبونا يعقوب اللي لقبه إسرائيل اتولد في أرض كنعان، وبالتحديد في فلسطين، عشان هيك بحكي لكم إنها ملكنا من زمان.. وحتى بعد ما طلعنا منها، انكتبت مرة ثانية إلنا في زمن النبي موسى، بعد ما طلعنا من مصر أمرنا الله إنو ندخل فلسطين ونحارب الجبابرة اللي سيطروا عليها.. هاي الأرض إلنا من زمان، وهذول الجبابرة، الفلسطينيين، لازم نسحقهم تحت رجلينا، احنا اللي بنستاهل الحكُم، وهمِّي اللي سرقوها منا.

انغمس (إسحاق) في خطبته الطويلة، في حين استمع إليه (ولافي) بعقلٍ متفتح، وقد أُعجِب بكل كلمةٍ قالها حتى أثار فضوله للتعرف عليه، ولكنه وبعد انتهاء (إسحاق) من خطبته، رحل دون الحديث معه. فحلَّ الحزن على (إسحاق) الذي كان بادٍ عليه أنه يستعرض قوة حكمته لإثارة إعجاب (ولافي) به، إلا أنه لم ينُل من ذلك سوى التجاهل.

****

في عصر موسى..

بعد أن نجَّى الله (موسى) وقومه (بني إسرائيل) من فرعون، وبعد المرور بالكثير من المعجزات التي تعرضوا لها، كان إيمانهم ما يزال متزعزعًا غير ثابت، فاختار سيدنا (موسى) اثني عشر شخصًا منهم ليكونوا نقباء عليهم، وأمرهم بأن يذهبوا إلى بيت المَقدِس في بلاد الشام، وتحديدًا في فلسطين، ليُحضِروا له معلوماتٍ عمَّن يعيشون هناك، عن مدى قوتهم، وعن حياتهم، حتى يعلموا مَن هم الذين سيتقاتلون معهم، ونبَّه عليهم (موسى) ألا تتسرب المعلومات إلا إليه. وعندما عادوا، ولجوا عليه في أثناء جلوسه مع بني إسرائيل، وبلغوه أن تلك البلد مليئةٌ بالخيرات، ولكنَّ عليها قومًا أشداءَ أقوياء..

بدأ كل نقيبٍ في تحذير المسئول عنهم من القتال لأنهم ضعفاء، باستثناء اثنين من النقباء كان رأيهما على عكس ذلك، لكن سيدنا (موسى) أمرهم جميعًا بالدخول والقتال لحماية بيت المَقدِس «بيت الله»، وقد كان ذلك امتحانهم النهائي بعد مرورهم بكل تلك المعجزات. وبعد جدالٍ طويلٍ صاحوا مرتعدين:

- إننا خائفون! وعلى حسب حديث النقباء فهناك قومٌ جبارون..

ثم بدأوا في النحيب، إذ إن (موسى) أجبرهم على القتال، وأكملوا حديثهم:

- لو كانت حياتنا انتهت في مصر لكان أفضل.. لن ندخل البلدة إلا إذا خرج أهلُها.

كان عدد بني إسرائيل في ذلك الوقت ست مئة ألف. اثنان فقط -من ضمن الاثني عشر نقيبًا- وافقًا على القتال وساعدا (موسى) بإقناع البقية، إنهما (يوشع ابن النون)، فتى (موسى) الذي ساعده في رحلة (الخضر)، و(كالب ابن يوقنا). وبعد محاولاتٍ طالت، أصروا على اعتراضهم وقد تجرأوا على الذات الإلهية بقولهم:

- يا موسى، إنَّا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها، فاذهب أنتَ وربك فقاتِلَا، إنَّا هاهُنا قاعدون.

وبعدما خاب ظن (موسى) فيهم، وهو الذي أتى إليهم بكل تلك المعجزات، دعا ربه بقلة حيلة:

- يا الله، أنا لا أملِك إلا نفسي وأخي، إمْلِ علينا ما نفعله، وافْرُق بيننا وبينهم فهُم فاسقون.

فحكَم الله عليهم بالتيه لأربعين سنة حتى يشيخون ويموتون، فيكبر الصغار على الشريعة وينسون الذل والمهانة فيتَّبِعون الحق وكلام الله.

****

ظل (إسحاق) لبضعة أيام يدعو ربه ليُحقِّق أمنيته في أن يزور (ولافي) الكنيسَ مرةً أخرى، واستمر يدقق في أوجه الحضور لأكثر من شهرٍ كامل، حتى حدث ما تمناه..

ذات يوم، دلف (ولافي) من باب الكنيس، وأدى صلاته، ثم ظل في الكنيس حتى رحل المصلون وسأل عن (إسحاق). وبالفعل تم الأمر، فتقابلا وتبادلا التحية بحرارة..

- بتعجبني كتير طريقتك في الحكم، أنا بفتخر إني قاعد معك.

قالها (إسحاق) بعينين لامعتين غير مصدقٍ أنه يتحدث مع (ولافي) شخصيًّا، فرد عليه الأخير بكل تقديرٍ واحترام:

- عجبتني الخطبة بتاعتك، ولولا إني كنت مشغول وعليَّ التزام كنت راح استناك عشان أشكرك بنفسي.. بس أنا حابب أعرف وجهة نظرك، بعيد عن الخطابات والشعارات هاي.

كأن (إسحاق) انتظر تلك الكلمات ليجود بما في جعبتِه من سادية وعنصرية بحتة:

- يا سيادة الوزير، هذول مش أكثر من ضيوف على أرضنا، وأنا جد مستغرب إنك سامح لهم يمارسوا حقوقهم الدينية اللي هي ضد ديننا كله.

(ولافي) رجل دبلوماسي له ثقل سياسي ولا ينساق وراء أي حديث، ودومًا ما يدرس كل الجوانب قبل أن يُصرِّح بأي كلمةٍ أو ينفذ أي قرار..

- مهو مصالحنا مع الدول الثانية بتوقف قدام إنو نمنعهم عن ممارسة طقوسهم الدينية، هذا راح يسبب قلق كبير.

شحنَ (إسحاق) خلاياه بالهواء، وحاول الثبات في وقفته مع كِبَر سنه، ليقول مُعلِّلًا:

- مش هذا قصدي، قصدي عن المسجد الأقصى.

نطق كلماته بحدةٍ وشفَّى بها غليل روحه العليلة، ولم يُعطِ لـ(ولافي) فرصةً للرد عليه، إذ استطرد مُكمِلًا:

- إلنا الحق إنو نسيطر عليه، هذول كفار ونهايتهم معروفة، في النار..

مشى (ولافي) بضع خطوات متقدمًا نحو المجلس في الكنيس، ثم جلس عليه قائلًا:

- بس!

تقدم (إسحاق) نحوه، ثم جلس بجانبه، وشرع في غرز الفكرة في عقله كشيطانٍ يتفنَّن بالوسوسة والتلاعب بضحيته:

- احنا مش راح نهدمه، احنا بس راح نمنعهم عن إنو يصلوا فيه، هيك بنكون ضربناهم في مقتل.

نظر (ولافي) في عينيه، ثم قال معترضًا على حديثه:

- اللي بتقوله هذا راح يعمل مجزرة كبيرة، وراح يهيج علينا الإعلام والبلاد الثانية، متنساش إنو احنا مستورين تحت شعارات ما إلها علاقة بالقتل وسفك الدماء.

ابتسم (إسحاق) ابتسامةً خبيثة، إذ وصلَ إلى النقطةِ الفارقة، وشعر من دواخله بأن (ولافي) مقتنعٌ بالفكرة، ولذلك ضغط عليه أكثر مستخدمًا دهاءَه:

- احنا مش راح نقتل، احنا راح نضغط عليهم لحتى نخليهم همّي يبلشوا بالأول، وبعدين احنا بنرد عليهم.

استوى (ولافي) في جلسته، وجدَّد أوكسجين جسده، ثم قال:

- طيب اشرح لي بزيادة.

حينها اتخذ (إسحاق) وضعية الاستعداد، فاستند بظهره ورجع إلى الخلف، ثم رسمَ شبح ابتسامةٍ على وجهه، وسحب شهيقًا قبل أن يقول:

- احنا راح ندخل المسجد الأقصى مسالمين، ومش راح نرفع السلاح في وجه أي مصلي منهم.. همّي أكيد راح يحاولوا يمنعونا من الدخول، وهيك راح يكون إلنا عذر نرد عليهم رد قاسي كثير.

أنهى حديثه وعلى وجهه تلوح ابتسامة انتصار، وترك عقل (شارون) يتلاعب مع الأفكار التي اقتحمته، وعزم على أن يدرس ذلك الأمر أكثر وألا ينساق وينفذ قرارًا من تلقاء نفسه، إذ عليه أن يستشير من يملك زمام الأمور، ألا وهو الرئيس.

****

ممرٌّ طويلٌ واسعٌ مفروشٌ بسجاد أسود اللون ومرصع بزهور ملونة مبهجة على الجانبين، مزخرف بصور رؤساء إسرائيل السابقين، شقَّه (ولافي) بجسده البدين المتكور كالبالون، ومشى بثباتٍ حتى بلغ آخره، إذ انتهى إلى غرفةٍ معلق على بابها لوحة كُتِب فيها بخطٍّ عريضٍ من فوق «الرئيس الإسرائيلي»، ومن الأسفل (ألياش موشيه)..

طرقَ (ولافي) الباب طرقتَين متتابعتين قبل أن يفتحه ويدخل، ثم توجه مباشرةً نحو (ألياش) الجالس على مكتبه الفاخر، فصافحه وجلس..

مكتب خشبي مزين ببعض التحف المزخرفة، وعلم إسرائيل. الغرفة واسعة، تتخللها رائحةٌ عطرة، بها كرسيان وأريكة وطاولة صغيرة يقبعان في إحدى الزوايا..

تقابلت النظرات والابتسامات قبل أن يفتتح الحديث (ولافي) بلغةٍ عبرية:

- أعتذر لسيدي الرئيس إن كان وقته لا يسمح..

ابتسم الرئيس بود، ثم قال مُرحِّبًا:

- الوقت ملكك يا شارون، تفضل.

سحبَ (ولافي) نفسًا عميقًا، واتخذت ملامح وجهه الجدية التامة، وأدار الجملة جيدًا في رأسه قبل أن يقذفها إلى (ألياش):

- أرى بأنه قد حان الوقت لاحتلال المسجد الأقصى.

صُعِق (ألياش) من الجملة التي تحمل في طياتها الكثير من سفك الدماء من الجهتين، فقال بصوتٍ غاضب:

- هل جُنِنت؟! أتشرفني بالتصديق على مائدةٍ مليئةٍ باللحوم الإسرائيلية! لا نريد انتفاضةً في الوقت الحالي، لا يهمني إن قُتل الآلاف من الفلسطينيين، ولكن حياة الجندي الإسرائيلي تساوي الكثير بالنسبة إليّ.

أتاه الرد منطقيًّا من (ولافي)، ولكنه كان يطلب المستحيل على أي حال، حتى لو استطاع إقناعه:

- العرب يُحكَمون بالقوة يا سيدي، إن لم نصفعهم سيعلو صوتهم في وجوهنا دائمًا.

أمسك الرئيس قلمًا كان في سباتٍ على سطح مكتبه، وخبطَ به في دلالةٍ على توتره الحاد، إلا أنه حاول جمح مشاعره الثائرة، ثم هدَّأ من روعه وقال:

- كأنك تطلب مني أن أضحي بالقليل من الجنود لنحكُم.

ابتسم (ولافي) وقد شعر في دواخله بأن (ألياش) قد تفهَّم موقفه، ليرد عليه سريعًا:

- بالضبط، هذا ما أحاول إخباركَ به، إن مات شخصٌ من جيشنا سيكون المقابل مئة، أنتَ تعلم أن الضَّعْف يتملكهم، إنهم جبناء.

تعجب (ألياش) من حديث (ولافي) الذي يحمل بين طياته الكثير من عدم الصواب، فقال منبهًا:

- لا تكن أحمق! العرب ليسوا جبناء يا شارون، هم همجيُّون، وإن حاولنا احتلال المسجد الأقصى ستكون العواقب وخيمة.

تحامل (ولافي) على قدميه، ثم وقف أمام الرئيس معترضًا:

- منذ متى ونحن نهاب من الفلسطينيين؟

وقف (ألياش) هو الآخر وقال بحدة:

- المسجد الأقصى مِلكٌ للمسلمين، أتريد أن تثور علينا الدول المجاورة؟!

زفر (ولافي) ثم ملأ رئتيه بالأكسجين، وقال بهدوءٍ غير معهود:

- كلٌّ يبحث عن مصلحته؛ أمريكا تساندنا، ونحن نمولها، ودول العرب تهاب وحشًا اسمه أمريكا.

جلس (ولافي) على مكتبه، ثم قلَّب الأمر في عقله، وقال متسائلًا بعدما عجزَ عن الحصول على إجابة:

- والفلسطينيون؟

جلس (ولافي) مبتسمًا بعدما شعر بأن فكرته شرعت تفرض سيطرتها على الرئيس..

- لا تقلق، سنسيطر على الأوضاع، وسيكون ردنا قاسيًا جدًّا، إنهم يتوجسون خيفةً ورعبًا من جنودنا.

صمتٌ هبطَ على المكان، إلا أن عقولهم تخوض معركتها الخاصة، فكان الرئيس شاردًا بعينيه في الفراغ، يحاول التنبؤ بالمستقبل، حتى خطرت على باله بعض الومضات لأفكارٍ يمكنها أن تهز دولته، فقال متسائلًا:

- والإعلام؟

اتسعت ابتسامة (ولافي) وحاول طمأنة الرئيس بكلامه المرتب:

- لديَّ خطةٌ مُحكَمة.

نظر (ألياش) في عيني (ولافي) وتلفظ بسرعةِ الضوء:

- أطلِعني عليها.

استراح (ولافي) في جلسته، التقط نفسًا محملًا بشذرات الهدوء، ثم أخرجه وشرع يشرح خطته الشيطانية:

- سأزور المسجد الأقصى بنفسي، سأدخله ومعي حراستي، أعزل بلا سلاح في يدي.. وكما تعلم، إنهم يعتقدون أننا كفار، ولذلك سيعترض المصلون طريقي، وسيحاولون إيذائي، وهنا تندلع الحرب، فنقتلهم كالذباب ونحتل المسجد بحجة همجية المسلمين ومحاولتهم قتلي.. وإن تحدَّث الإعلام، سيُقال إن الفلسطينيين هم من بدأوا الضرب.

جحظت عينا (ألياش) من عقلٍ مريدٍ يقبع أمامه الآن، ولم يُعطِه (ولافي) الحق في التفكير، إذ قال مبتسمًا:

- بعد غد، الثامن والعشرون من سبتمبر، سيكون يومًا يذكره التاريخ.

وتقابلت الأعين معًا، إذ يفكران في مستقبلٍ قريب، وحلمٌ وضع أساساته بأن تتوسَّع دولتهم المصونة، وأن يرفرف علم إسرائيل في كل ركنٍ من دولة فلسطين.

****

في اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر، تحرك (ولافي) ومعه لفيفٌ من الحرس المدربين على أعلى مستوى، وتوقف بسيارته أمام المسجد الأقصى، فترجَّل منها وحوله الكثير من الرجال الأشداء، لكنه خالفَ تعليمات الرئيس وخرج بحرسٍ مسلحين..

تحرك أمام المواطنين الفلسطينيين الذين تملك الغضب منهم عندما أبصروه، إلا أنه تابعَ ودلف إلى المسجد ولم يخلع نعليه، فقابله المصلون ودفعوه ليجبروه على الخروج، وتجمهر في ذلك الفلسطينيون المصلون واجتمع معهم العابرون، ليُشكِّلوا معًا درعًا بشريًا

لحماية المسجد. حاول (ولافي) الدخول بالطريقة السلمِيَّة، ولكنهم منعوه بالقوة، فنشأ اشتباكٌ حادٌّ بينهم وبين الحراس، وحينها أخرج الحراس أسلحتهم وأطلقوا وابلًا من الرصاص في وجوه المصلين، ليندلع أول أعمال العنف في تلك الانتفاضة، والتي سقط على إثرها الكثير من الضحايا.

****

معركة طالوت وجالوت..

حرَّف بنو إسرائيل في التوراة كما تريد أهواؤهم، وعاشوا مفسدين في الأرض وليسوا بمُصلِحين، حتى أرسل الله إليهم عقابه، والذي كان يتمثل بتوليةِ مجموعةٍ من الملوك حكَّامًا عليهم بدلًا من الأنبياء. كانوا جبارين يسفكون الدماء ويُفسدِون في الأرض، وعذبوا بني إسرائيل، حتى أتى الملِك الأكثر شرًّا، أتى (جالوت) ليطردهم من أرضهم ويعذبهم عذابًا شديدًا.

ذهب بنو إسرائيل إلى نبيِّهم (صموئيل) يومًا قائلين:

- ألسنا مظلومين؟

قال وقد صدَّق على حديثهم:

- بلى..

فقالوا بنفْسٍ منكسرةٍ يندبون حالهم:

- ألسنا مشردين؟

رد عليهم ليؤكد ضعفهم وانكسارهم:

- بلى..

فقالوا راجين إياه بأن يساندهم في طلبهم:

- ابعَث لنا ملِكًا يجمعنا تحت رايته كي نقاتل في سبيل الله ونستعيد أرضنا مجددًا..

قال (صموئيل) وقد كان أعلَم بهم:

- هل أنتم واثقون من قدرتكم على القتال لو كُتِب عليكم؟!

فردوا عليه مُثبتين أنهم على وشك فعل المستحيل ليعود مجدُ عصرهم:

- ولماذا لا نقاتل في سبيل الله وقد طُرِدنا من ديارنا وشُرِّد أبناؤنا وساءَت أحوالنا.

حينها ذهب (صموئيل) ليدعو ربه، حتى أتَتهُ الإجابة باختيار رجلٍ من بني إسرائيل ليكون الحاكم عليهم، فعاد إليهم يزفُّ البشرى:

- إن اللهَ اختار لكم طالوتَ ملِكًا عليكم.

تعجبوا من ذلك القرار العجيب، وهم الذين لا يسمعون قولًا من الله إلا وجادلوا فيه، فكان ردُّهم ذا تفرقةٍ عنصريةٍ بحتة:

- كيف يكون ملِكًا علينا وهو ليس من أبناء الأسرة التي يخرج منها الملوك «أبناء يهوذا»، كما إنه ليس غنيًّا وفينا من هو أغنى منه.

فرد عليهم (صموئيل) ليثبت لهم أن (طالوت) أعلَم منهم:

- إن الله اختاره لكم وفضَّله عليكم وزاده قوةً في العلم والجسد.

فأرادوا منه أن يأتيهم بمعجزةٍ إثباتًا لهم على صحة حديثه قبلَ تنفيذ حكم الله المنزل عليهم، إذ قالوا:

- ما هي آية مُلكِه؟

فقال (صموئيل) لينهي الرسالة التي كُلِّف بها:

- يسترجِع لكم التابوتَ تحمله الملائكة.

التابوت كان به ما بقيَ من التوراة الصحيحة، يستمدون منه قوتهم بإذن الله، وكانوا كلما دخلوا معركةً انتصروا بسببِ بركة الله التي تحل عليهم من التابوت، وبعدما كفروا فقدوا التابوت في إحدى المعارك فهُزِموا شر هزيمة، وعاشوا ما بقي من حياتهم نادمين، والآن أتاهم (صموئيل) بأمل استرداده والعودة إلى سابق عهدهم.

وبالفعل، وقعَت المعجزة وعادت إليهم التوراة من جديد بعد أن أصبح (طالوت) حاكمًا عليهم، ومن ثم جهَّز جيشه وأعدَّ عدته وسار نحو (جالوت) ليحاربه، وحين أحسَّ الجيش بالعطش بعدما سار كثيرًا، قال (طالوت) لجنوده:

- سنصادف نهرًا في الطريق، فمن شرب منه فليخرج من الجيش، ومن لم يذُقه -وإنما بلَّ ريقه فقط- فليبقَ معي في الجيش.

وأتوا عند النهر، فشرِب معظم الجنود وخرجوا من الجيش، وكان (طالوت) قد أعدَّ هذا الامتحان ليعرف من يطيعه من الجنود ومَن يعصيه، وليعرف أيهم قوي الإرادة ويتحمل العطش، فلم يبقَ في الجيش إلا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلًا، جميعهم من الشجعان.

صار عدد أفراد (طالوت) قليلًا، وعدد أفراد العدو كبيرًا وقويًّا، فشعر بعض صفوة جيش (طالوت) أنهم أضعف من (جالوت) وجيشه، وقالوا:

- كيف نهزم هذا الجيش الجبار؟

فقال المؤمنون من جيش (طالوت):

- النصر ليس بالعدة والعتاد، إنما النصر من عند الله.. كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَت فئةً كبيرةً بإذن الله.

وبرز (جالوت) من بين جيشه في دروعه الحديدية وسلاحه وهو يطلب أحدًا يبارزه، فخاف منه جنود (طالوت) جميعًا، إلا أن الملك منحهم دفعةً من التحفيز بقوله:

- من يقتُل جالوت يصير قائدًا على الجيش ويتزوج ابنتي.

وهنا برز من جيش (طالوت) راعي غنم صغير، وهو (داوود)، رجلٌ مؤمنٌ بالله، يعلم أن الإيمان هو القوة الحقيقية في هذا الكون، وأن العبرة ليست بقوة السلاح ولا بضخامة الجسم أو بالمظهر الباطل. لم يكن (داوود) يهتم كثيرًا لإغراء (طالوت)، فقد كان يريد قتل (جالوت) لأنه رجلٌ جبارٌ وظالمٌ وليس مؤمنًا. وبدوره سمحَ (طالوت) لـ(داوود) بأن يبارز (جالوت).

تقدم (داوود) بعصاه وخمسة أحجار ومقلاع[٩]، في حين تقدم (جالوت) المُدجَّج بالسلاح والدروع، فسخر من (داوود) وأهانه وقلَّل منه. لكن (داوود) وضع حجرًا قويًّا في مقلاعه وطوَّح به في الهواء ثم أطلَق الحجر، فأصاب (جالوت) فقتله. وعلى الفور، تقدم جيش (طالوت) لتبدأ معركة ضروس، انتصر فيها جيش بني إسرائيل..

وبعد مدة، أصبح (داوود) ملِكًا عليهم، فجمع الله على يديه النبوة والمُلك مرةً أخرى.

****

اشتعلت الحرب بين الجنود الإسرائيليين والشعب الفلسطيني، وانهمر الضحايا كالأمطار من الطرفين، ولكن التفوق كان من نصيب اليهود دومًا..

---

(٩) المقلاع: النبلة التي يستخدمها الرعاة.

حاول الشعب الفلسطيني حماية المسجد الأقصى، فكان اليهود يردُّون بإحداث المجازر البشرية، وانتفض إعلام كل الدول لبثِّ ما يحدث للعالم أجمع.

****

في يوم ٣٠ سبتمبر، أي بعد الانتفاضة بيومين، تحرك الجنود الإسرائيليون يقتلون المدنيين في الطرقات، فقابلهم الشعب الفلسطيني بالضرب بالحجارة التي تملأ الشوارع، تلك الحجارة الصامدة من الأرض الأبِيَّة، وساندَتهم قوات الأمن الفلسطينية بإطلاق النيران في وجه العدو. سقط الكثير من الضحايا، والقلة القليلة من الإسرائيليين..

وفي مشهدٍ مهيب، وبينما يتصاعد إطلاق الرصاص، ظهر (إسحاق) في أرض المعركة، وتقدَّم متخفيًا فاستتر بحاجزٍ عن المعمعة الدائرة بين الطرفين. وبعدها بلحظات، لاحظ رجلًا أعزلَ وفي حضنه ابنه يحتميان من إطلاق النيران وراء برميلٍ إسمنتي، فأخرج كاميرا تصوير، وتخفَّى بعيدًا عن منطقة تبادل النيران، وشرع في تصوير المشهد الذي ظل يقبض قلب كل من رآه، لحظة محاولة الرجل رفع يده للجنود اليهود بأن أوقِفوا النيران، ليحمي ابنه الصغير، وحاول تغطيته بقدر الإمكان، إذ كان باديًا على الجنود الإسرائيليين أنهم يقصدونه هو، حتى رشقَت رصاصة في جسد الطفل الصغير الذي لم يبلغ الاثني عشر عامًا، ليصرخ الأب بصوتٍ يؤلم الروح:

- مات الولد، مات الولد.

استمرَّ (إسحاق) في تصوير المشهد، تسعةٌ وخمسون ثانية مُهلِكة للروح، سقط الولد على قدم أبيه، وظل الأب يناجي ربه وينحب رحيل فلذة كبده..

أغلق (إسحاق) الكاميرا وانسحب ليخرج من بؤرة الاشتباكات، ثم ضغط على قدميه عازمًا في نفسه الخروج من فلسطين كلها. وبالفعل، في أثناء تحركه، خلع ملابسه كلها وظهر

بملابسَ مدنية كانت تحتها، ثم خلع لحيته المزيفة، ونزع شعر رأسه المستعار، ليَنجلي وجه (إبراهيم) مبتسمًا ساخرًا على ما فعله.

****

نشر (إبراهيم) المقطع التسجيلي الذي صوَّره للطفل وأبيه، ليثور العالم أجمع وينقلب ضد إسرائيل، فتحول هذا المقطع إلى رمز انتفاضة المسجد الأقصى الفلسطينية، إذ إن إسرائيل قد تعمدت قتل الطفل، وهذا ما بانَ جليًّا واضحًا للعالم بأسره..

كان سرُّ انقلابِ معظم الدول على إسرائيل هو أنهم قبلًا استخدموا صورةَ طفل يهودي صغير أيقونةً للدفاع عنهم وجعلوه شعارًا ليكسبوا تعاطف العالم معهم. ذلك الطفل الذي دافع عن أهله فوقف في وجه الجيش النازي اعتراضًا على أفعاله قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وها هم الآن يمارسون الوحشية نفسها وآليات السادية ذاتها! إذًا فلينقشِع القناع ليكشف الوحش الكاسر القابع أسفله.

****

استمرَّت الانتفاضة الفلسطينية لمدة خمس سنوات، وقد نتجَ على إثرها الكثير من الضحايا من الطرفين..

خسرت فلسطين (٤٤١٢) قتيلًا و(٤٨٣٢٢) جريحًا، في حين خسرت إسرائيل (١٠٦٩) قتيلًا و(٤٥٠٠) جريح.. فكانت مجزرةً بشريةً تحاكى عنها البشر أجمعون.

****

الأقدام يتزايد وقعُها في مشهدٍ مهيبٍ مرهبٍ للأبدان، جيشٌ مهولٌ يتكاثر في كل لحظةٍ ليكوِّن حشدًا أمام كهف (إبراهيم)، تجاوز عددهم الخمس مئة الآن. تجمهروا من كل

صوبٍ حول الأسوار الحديدية، حاولوا اختراق الباب، هدمه، والنفاذ منه، لكنهم لم يستطيعوا لقوته وشدته، حتى إن بعضهم شرع يحكُّ الأرض بأصابعه في محاولةٍ لصنع حفرةٍ للمرور، فلم يَجْنُوا سوى إدماء أيديهم..

الغريب في الأمر، أنهم اتحدوا على هدفٍ مشتركٍ ولم يتقاتلوا مع بعضهم بعضًا، كأن معاهدةً خفيةً بينهم نصَّت على أن ينتظروا حتى يدخلوا مجتمعين ثم يشنوا الحرب بينهم فيما بعد..

تلألأت الشجرة المثمرة أمام أعينهم، والعَين المتكدسة بالمياه أغرتهُم كحوريةٍ من الجنة تتلبس ثوب الحياة..

بطونهم تصرخ ألمًا، وحلوقهم جفَّت كالأرض البور، ولا معين سوى شجرة (آدم) وعين أسباطِ (يعقوب)..

وفي الكهف المظلم، بين جنباتِه الموحشة، كان ما يزال (إبراهيم) قابعًا على صخرته، وقد بدا على وجهه الشحوب وتجاعيد العجز والكبر، في حين وقف الأشخاص الآخرون أمامه بثباتٍ مندهشين، متعجبين، خائفين، ومرتعدين..

سعل (إبراهيم) بضعف، واقتحم قلبه ألمٌ قاسٍ لم يتحمله، لكنه استعاد رباطة جأشه، ثم اعتدل في جلسته. ابتسم بسخرية، واكتظَّت ملامحه باللامبالاة لكل ما يدور حوله، رغم أنه ينتظر لحظة النهاية بفارغ الصبر، إذ لم يعد يطيق الانتظار، وقد تعب عقله من التفكير، التقط نفسًا عميقًا، ثم أكمل حلقة الألغاز التي ما زالت مستمرة:

- كل البدايات كانت غلط، كأنها تعمُّد لاعوجاج النهاية، مفيش ثبات، ولا إيمان قوي يبدِّل المعتقدات، لعدم وجود الرمز الحقيقي، حتى عند ظهوره في الأزمنة السابقة، كان ظهور طفيف لمجرد الاطلاع، لكن محدش لاحظ.

امتلك (إبراهيم) قدرًا عظيمًا من الحكمة، ولسانًا فصيحًا يعرف كيفية إبداع الكلمات الرصينة ذات المعنى، ومجموعات من المعلومات التي لا بأس بها، فهو العالِم بالغرائز

البشرية، وهو الذي مرَّ بما لم يمر به بشريٌّ من قبل، فكانت كلماته ذات دلالةٍ عميقةٍ لا تستطيع فهمها أعتى العقول على وجه الأرض:

- كل شيء كان عبثي لدرجة مرعبة، مخيفة، مقلقة.. الطرُق المظلمة هي السبب الرئيسي في غياب الحقيقة عن عقولنا، علشان كده هيكون في رادع قوي جدًّا، ولكن في ميعاد محدد، مفيش خلل ولا عبث، كل شيء له وقت.

لم يستطِع (إبراهيم) أن يشبع رئتيه بالأكسجين في هذه المرة بسبب مرضه بسرطان الرئة الذي أُصيب به مبكرًا، رغم أن ما بدا عليه هو استمتاعه بسرطانه، كتجربةٍ أو مغامرةٍ يخوضها من أجل المتعة فقط، شخصٌ غريبٌ غير مفهوم ولا دلالةَ تتلقاها منه على ما يشعر..

تحامل على ما تبقى له من قوةٍ كأنه ثَمِل، مثل سكيرٍ تجرَّع زجاجةَ خمرٍ من النوع العتيق على رشفةٍ واحدة، ثم ألقى بعينيه صوبهم في محاولةٍ فاشلةٍ للتريُّث، وأخذ يتنقَّل بينهم في أثناء إلقائه بكلماتٍ ذات مغزى ويصِف بها شيئًا فيهم:

- البذرة الأولى اللي كانت سبب في رسم الطريق الصحيح لغيركم، الإيمان من غير دليل ولا رؤية، النهاية السليمة لكل بشري آمَن على وجه الأرض، الخلاص، المعنى الحقيقي للتصديق، العقول المنيرة، أول المصدقين.

صمتٌ خيَّم بظلاله على المكان بعد كلماته الأخيرة، انتظر الواقفون لبضع ثوانٍ كي يُكمِل حديثه، ولكن سكوتَ (إبراهيم) زاد، وتأمُّلَه قد بلغ أقصاه، فأدركوا أنه لن يكمل حديثه، لذلك بادلوه بالصمت صمتًا أطول..

تحامل على قدميه واستند إلى عكازه، فتحرَّك نحو طرفِ الكهف، لينظر إلى الموتى الأحياء في الخارج، فأبصر أعدادَهم المهولة التي ما زالت في ازديادِها المريب، كأن العالم بأكمله علِمَ بسرٍّ وجود تلك الشجرة والبئر، وقد قرروا غزو كهف (إبراهيم)، العجوز الضعيف المُنتظِر إياهم.

(٥)

«وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»

«وإذا كانت حقيقة إيمانك وما تريده، هما بالفعل طريقٌ واحد.. طريقٌ يؤدي إليّ !»

السامري إلى الأرقم

بعد واقعة النيل..

في مقر منظمة عالمية تابعة للولايات المتحدة الأمريكية، وفي غرفة مغلقة، تقبع وسَطها طاولةٌ مربعةٌ مهيبة الصنع، جلس على طرفها الرئيس الأمريكي والتف حولها لفيفٌ من رؤساء بعض الدول المهمة..

احتوى الرئيس قلمًا بين يديه، يخبط به على الطاولة بحركةٍ مستمرةٍ دليلًا على توتره الحاد، في حين يتابعه الحضور بترقب. نظر في أعينهم بتأنٍّ، ثم لفَّ كرسيه بالجنبِ لينظر إلى شاشةٍ ضخمةٍ بيضاء خلفه، وتبعته أعين السادة الرؤساء نحوها، ثم أشار إلى شخصٍ في نهاية المجلس بادٍ عليه أنه عالِم خبير، فضغط زرَّ تشغيل، وشرعت الشاشة في عرض ما حدث في مِصر بعد ظهور (الأرقم)، وبعد الانتهاء من العرض، نظر العالِم إليهم قائلًا بلكنةٍ أجنبية:

- منذ أسابيع، ظهر ذلك الكيان في مِصر، وفي وسْط التجمهر الكبير من السيارات والناس كما ترَون، قفز في مياه النيل، وبعد بضع لحظاتٍ قلت المياه تدريجيًّا حتى تبقى منها القليل، ولم يتوقف الأمر عند جزء النيل الخاص بمصر، بل إن النيل كله -بالمعنى الحرفي- شرع في الجفاف، من منبعه في أثيوبيا إلى مصبه في البحر الأبيض المتوسط.

ثم ضغط زر تشغيلٍ آخر، فعرضَت الشاشةُ (الأرقمَ) ظاهرًا في عدة دول يفعل المثل في مياه البحار والأنهار، وبعد أن انتهى العرض أكمل الخبير حديثه:

- في بادئ الأمر، وعندما علِمنا بالخبر، اعتقدنا أن تلك الكارثة ستكون حدودها النيل فقط، فشغلَنا الأمر قليلًا، ولكننا تراجعنا عن المساعدة، خصوصًا أن ذلك لن يؤثر علينا، ولكن التوابع في الأيام التي تلَت تلك الحادثة كانت بمثابة نكبة من الممكن أن تنهي العالم، وأقصد هنا ظهور ذلك الكائن العجيب في عدة بلاد، وما زال ظهوره مستمرًّا، وأي مكان يظهر فيه يتركه وقد أوشك ماؤه على الجفاف. وحسب حساباتنا، لن يتبقى ماءٌ على كوكب الأرض كله في خلال شهور، الينابيع والبحار والأنهار ستجف! نحن أمام بداية عصرٍ لا نقطة ماء فيه، عصر انقراض النسل البشري كله وفناء الحياة بأكملها على سطح الأرض.

أنهى حديثه وهم في غمرة استماعٍ بتركيزٍ عالٍ رغم ارتسام الخوف والرعب في أعينهم، ثم شرع في فتح بعض الصور والتنقل بينها، والتي صنعها عن طريق برنامج «الفوتوشوب»..

- هذا تصوُّري عن العالم بعد شهورٍ من الآن..

ومع التنقل بين الصور، تمثلت هيأتهم كأن على رؤوسهم طير، وجحظت أعينهم لما رأوه من المشاهد المريعة؛ جثث أموات مبعثرة في الطرقات بغزارةٍ غير مسبوقة، سقوط الدول كلها، قحط الأراضي الزراعية وموت الحيوانات، زيادة معدلات القتل بالملايين، حروب أهلية ومناظر بشعة وشنيعة لا تتحملها عين..

وبعدما انتهى من العرض أطفأ الجهاز، ليلتف الرئيس الأمريكي إليهم، ويزداد خبطه بقلمه علامةً على اضطرابه، مع إطلاق نظراته إلى زجاجات الماء التي تقبع أمام كلٍّ منهم، منها الفارغة ومنها الممتلئة. تناول نفسًا عميقًا قبل أن يشير إلى الذي قدَّم لهم الماء بأن يعود فيرفع الزجاجات الممتلئة من جديد. وبالفعل، فعلها مع نظرات الخوف التي تعتريهم، ثم خرج صوت الرئيس بالحديث لأول مرة:

- منذ سنوات عديدة، لم تنفك دور السينما عن تقديم الأفلام التي تعرض حلولًا لكل الكوارث التي من الممكن أن تهبط على العالم، ودومًا كانت تُظهِر الأمريكان يستطيعون حل ألغازها في غمضة عين، كما الأبطال الخارقين، ورواد الفضاء الذين يبحثون عن كوكب يصلح للعيش بدلًا من الأرض، وها نحن الآن أمام مصيبةٍ من الواقع. يؤسفني أن أخبركم أننا بالفعل نحاول منذ سنوات البحث عن كواكب عليها حياة، ولكننا لم نجد، نحن يا سادة أمام نهاية للعالم الذي نعرفه، نحن أمام ظاهرة ستقضي على كل كائنٍ حيٍّ في بضعة شهور، إن لم نسرع بإيجاد حل.

بعد أن فرغ الرئيس من حديثه، عرض العالِم صورة (الأرقم) على الشاشة بنظرته المرعبة والمخيفة، ليستطرد الرئيس قائلًا:

- ذلك الشيء استطاع شفطَ ٩٥% من مياه العالم كله في شهرٍ واحد، إني لأشعر وأكاد أجزم أنني في فيلمٍ من صنع هوليود.. المنفذ الوحيد والحل يكمن في الإمساك به وفهم ما يحدث لنا.. أهو كائن فضائي أم من أين هبط علينا ليتسبَّب في نهاية العالم بتلك السهولة!

وصمت بعد أن عشش الخوف بسبب حديثه في قلوبهم. الرؤساء الجالسون منهم من حلَّت المصيبة على بلده، ومنهم من لم يذُق الأمر بعد، ولكنهم اجتمعوا على قلة الحيلة وأحسوا أنهم لن يستطيعوا فعل أي شيء، وأنهم سيجلسون مكتوفي الأيدي منتظرين نهاية العالم أو انتهاء الأمر بمعجزةٍ ما..

وهنا نطق أحدهم بعد الصاعقة التي أصابتهم كأن في حديثه نجاةً لهم:

- إذن فلنعتمد على مياه الأمطار.

تحرك الخبير من الخلف ليقف أمامهم، قبل أن يشرع في الحديث مفسرًا:

- هذا حلٌ ظهر أمامنا في أثناء عرض المشكلة، ولكن ما لا تفهمونه هو أن هناك تقريبًا ٧,٦٧ مليار نسمة حول العالم، ولن تكفيهم مياه الأمطار حتى وإن هطلت طوال العام! نحن هنا لا نتحدث عن منفعة الشخص الواحد من الشرب فقط، فالماء يدخل في كل شيء

في حياتنا، من زراعة وتطهير وإعداد طعام وشربٍ ونظافة، كل شيء يخطر على بالك أساسه الماء، ناهيك عن أن المطر لا يتساقط سوى عدة مرات في أشهر الشتاء.. وهنا يأتي القرار الأصعب والأهم، وهو أن كل دولةٍ عليها أن تعتمد على نفسها ومناخها. وصدقني يا سيدي، لن تمر سنةٌ واحدةٌ إلا وستكون النهاية للكائنات الحية جمعاء، ذلك إن لم ينتهِ الأمر بالفعل خلال بضعة شهور.

خوفٌ وقلقٌ ورعبٌ وعقولٌ متوقفة لا تستطيع التفكير، ولكنها تعافر للبحث عن مخرَجٍ ما، ولذلك أتى أحد الرؤساء باقتراحٍ آخر محاولًا إنقاذ ما تبقى من الدنيا:

- ماذا لو اعتمدنا على ثلوج القطب الشمالي؟

اقتراحٌ رائعٌ بكل تأكيد، وقد أشعل الشغف في عقول الجالسين، إلا أن الخبير قتل أملَهم:

- أعتقد أنك لا تتابع الأخبار كثيرًا يا سيدي..

ثم تحرك وضغط زرًّا ليعرض صورةً للقطب الشمالي وقد اقترب من أن يسمى بالقطب الصحراوي، فارغٌ إلا من بعض المياه القليلة التي على وشك التبخر، ارتسمت معالم الذعر على وجوههم، وشُلَّت عقولهم، كادوا يموتون من المنظر المهيب وركزوا عصارة أفكارهم في مستقبلِ البشر أجمعين..

هنا نظر العالم إليهم مرةً أخرى وأردف:

- منذ خمسة أيام، ظهر الكيان نفسه في القطب الشمالي وتسبب في اختفاءِ معظم الثلوج.. ما أحاول إخباركم به هو أن ذلك الكائن لا يعبث معنا، بل إن ما يفعله هو مخططٌ كاملٌ يسعى إلى إتمامه، وهو عالِمٌ بكل خطوةٍ يفعلها، كأن خريطةً ما يتبعها، وأكاد أجزم بأنه قرر في نفسه أن تكون نهاية العالم على يديه.

كانت القشة التي قصمَت ظهر البعير، فصمتَ الجميع وانسدل عليهم ستار عدم الحركة، وتضاعفت حيرتهم وتشتتَت قلوبهم التي تنبض خوفًا من المستقبل، ولم يتبقَّ شيءٌ بينهم سوى نظراتهم التي تتبارز في معركةٍ هم خاسروها بكل تأكيد.

****

«أنا لا أراكَ عبدًا، أنا أرى بكَ ملاكَ الإله!»

السامري إلى الأرقم

إبراهيم..

في ظلُمات ركنٍ جانبيٍّ بغرفة هادئة يتخللها شعاعُ نورٍ ضئيل يقتحم نافذتها، يحاول كشف ساكني المكان، جلس الحاج (إبراهيم) ذو الخمسةِ والخمسين عامًا على سجادةِ صلاته يؤدي فرضَه مرتديًا جلبابه الأبيض الناصع، وقد انغمس في خشوعه مُغمَض العينين سارِحًا في كنفِ الله وهو يُتمتِم بالتحيات في الركعة الأخيرة من صلاة العصر. ذَرفَت أدمعه لتُغرِق وجنتيه البيضاويتين ولحيته الكثيفة التي تغزوها الشعيرات البيضاء، في حين اهتز جسده باستمرار فتراقصَت معه خصلات شعره الطويلة المتراوح لونها بين الأبيض والأسود، وارتفعَت سبَّابته إلى الأعلى توحِّد مولاها. وبعد أن انتهى، التقط نفَسًا عامرًا براحة النفْس قبل أن يُتِم صلاته بالتسليم يمينًا ثم يسارًا:

- السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله.

سحب مسبحته واستغرقَ في ترديد اسمِ الله على لسانه العطِر بالذكر، في لحظة دخول زوجته (سميرة) ذات الخمسةِ والثلاثين عامًا رافعةً نقابها، فتجلَّى من تحته وجهها الجميل الأشقر الهادئ وعيناها الزرقاوان كموجٍ ساحرٍ يسُر الناظرين، إنها لا تتحدث كثيرًا، وإن تفوهت بشيءٍ فإنه يكون ذا داعٍ. تحركت بثباتٍ نحو زر الإضاءة فضغطته، ثم تقدمت

إلى كومود بجانب السرير، فتحته وأخذت محفظةَ الأموال خاصتها، ليقطع (إبراهيم) خشوعه بقوله:

- على فين كده؟

تنهدت (سميرة)، ثم تقدمت بضع خطواتٍ نحوه، كادت تُقبِّل جبينه لولا أنه ابتعد آنفًا وقال:

- متوضي.

اعتادت هذه المعاملة الجافَّة من زوجها، وهو ردُّ فعل طبيعي مُتوقَّع منه. لم تُغيِّر قسمات وجهها، إذ إنها ظلت ثابتةً على الملامح الجامدة ذاتها، بل التفتت قائلة:

- هجيب شوية طلبات من تحت، محتاج حاجة أجيبها لك معايا؟

أغمض عينيه مُثبِّتًا رأسه إلى الأمام باتجاه القبلة، فيما تتراقص مسبحته بين أصابعه ولسانه يتقلب بذكر الله، ولما سمع كلماتها قال برتابةٍ اعتادَت أيضًا عليها:

- شكرًا.

تحركت نحو باب الغرفة على الفور، أغلقت الأنوار وخرجت..

(إبراهيم) شيخٌ متدين، غريب الطباع، يَؤُمُّ أحد المساجد الصغيرة القابعة في الحسين، ورغم ذلك لا يتردد على فتحه كثيراً، ونادرًا ما يُقيم الصلاة فيه، لكنه لا يترك فرضًا. متزوجٌ -منذ خمسة عشر عامًا- بـ(سميرة)، آية الجمال، امرأة عاقر لا تنجب، لكنه راضٍ بحاله وقضاء الله.

بعد أن رحلَت (سميرة) عن الغرفة وأغلقت نورها، فتح عينيه مُركِّزًا على شعاع النور المُخترِق نافذتَه، وشرع في الدعاء بقلبٍ نقيٍّ رغم تقلُّبِه.

****

يجلس (إبراهيم) على الأرض في غرفته، مرتديًا قميصًا وبنطالًا، جاثيًا على ركبتيه وناظرًا إلى تمثالٍ على هيئة (يسوع) المصلوب، وفي يده صليبٌ ذهبيٌّ مصنوعٌ من النحاس بحجم الكفِّ الواحدة، وخلف التمثال تقبع أيقونة للسيدة (مريم) العذراء تحمل على يدها (يسوع) الطفل الصغير..

بكى (إبراهيم) بعينٍ حمراء دامية، وقد اضطرب قلبه رعبًا من دواخله، حاول أن يبدو متماسكًا، فضغط على الصليب في يده وأغمض عينيه متصارعًا مع أنفاسٍ حارقة، ثم طأطأ رأسه إلى أسفل، وشرع يدعو بصوتٍ مرتعش:

- يا ربي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ، يا ربي يسوع المسيح ابن الله طهِّرني أنا الخاطئ، يا ربي يسوع المسيح نقِّني، يا ربي يسوع المسيح أعِنِّي، يا ربي يسوع المسيح بارِكني، يا ربي يسوع المسيح قدِّسني، اللهم التفِت إلى معونتي، يا رب أسرِع وأعِنِّي، أحبك يا رب يسوع المسيح وأبارك اسمك، أشكرك على كل حال، أشكرك يا ربِّ في كل حين، يا مَن جُلِدت من أجلي ارحمني، يا رب ارحم كنيستك واحفظها من كل شر..

وفي أثناء انغماسه في الدعاء، دُفِع باب الغرفة عن آخره وولجَت زوجته (فريال)، امرأة بدينة بالونيَّة التكوين، قمحية البشرة، قبيحة الطلَّة، خشنة الشعر، ذات خمسةٍ وأربعين عامًا، تتحدث كثيراً، بغيضة، لا تكَل ولا تمَل، وتعشق الضجيج. تزوجها (إبراهيم) منذ خمسةٍ وعشرين عامًا، وأنجَب منها ابنته (ماريان) ذات الاثنين والعشرين عامًا. وها هو يعيش مهمومًا تحت وطأة مشاكل الحياة، فهو موظفٌ مسكينٌ يجري في الدنيا الموحشة ليسُد طلبات زوجته وابنته، ويعيش حياةَ الجحيم راضيًا مسلمًا، فلا بديل لمعضلاته الأبدية.

انتفض لصوت دفعةِ الباب، فنظر خلفه، ليُفاجَأ بوجه (فريال) العابس وهي تقول واضعةً يديها على خصرها:

- نفعتك في إيه الصلاة، غير إنك بتهرب مني في وقت التزاماتك.. مش أبونا قالك تسمع لاحتياجات البيت؟! وإنتَ مش مهتم غير بإنك تلبي نداء الرب.. ولا إنتَ بتاخد من الدين اللي إنتَ عاوزه؟! عدي على الكنيسة النهارده، تاخد الحاجة، وترجع على طول.

سمع كلماتها دون أن يتفوه بكلمةٍ واحدة، وفي تلك اللحظة دخلَت ابنته (ماريان)، فاقتربت منه حتى لامست أذنيه بفمها وقالت:

- بابا، فيه ١٠٠ جنيه إنتَ كنت واخدهم مني الشهر اللي فات..

تراجعت إلى الخلف بعدما أخبرته بمُبتَغاها، ثم قالت بصوتٍ مسموعٍ قبل أن تلُف وترحل:

- أنا بفكَّرك بس، لكن مش عاوزاهم.

أحس بجنبات دماغه تؤلمه، فجاهد للوقوف على قدميه، ووضع الصليب جانبًا في صمتٍ هادئٍ مُتجاهِلًا حديثهما كالمعتاد، وبالأخص (فريال)، إذ إنه في معظم الوقت لا يرد عليها حتى لا يتعرقل في مُشادات لن يخرج منها سالِمًا..

التف بجسده نحو الباب، ثم تحرك بقدميه خارِجًا، في حين استمرت (فريال) في سَيل ثرثرتها التي لا تنتهي غير عابِئةٍ لتجاهُله إياها. فتركها وحيدةً غارقةً في صياحها..

وقف أمام المرآة للحظةٍ خاطفة، فسوَّى لحيته الكثيفة وخصلات شعره الطويلة بعدم اهتمام، ثم هرول قبل أن تتبارز معه (فريال) مرةً أخرى فينفلِق علقه، وخرج هاربًا من صوتها الموجع للآذان.

****

خرج (إبراهيم) من باب قصره، وقف على عتبته، فهذَّب ربطة عنقه الأنيقة، لفَّ خصلات شعره الناعم إلى الخلف ليربطها، هذَّب لحيته، وهندم بذلته الباهظة الثمن، ثم

نظر في ساعته الذهبية ليتحقق من الوقت وضمَّ قبضته ممسكًا حقيبة يده المميزة المظهر، ثم تقدم بضع خطواتٍ ناحية مِرآب القصر، وضغط زرًّا في الحائطِ خارج المرآب، ففُتِح وكشَف عن مجموعةٍ من السيارات النادرة التي لا يمتلكها سوى القلة القليلة من أغنياء العالم، أخرج مفتاح إحداها، تلك السوداء اللامعة التي تشرئب لها الأعين بانبهار، ففتحَت له أبوابها مستقبلةً إياه بشوقٍ ليستقلها..

ألقى بالحقيبة إلى الكنبة الخلفية ولما تحرك بالسيارة خطوتين نحو الباب الأمامي، رأى ابنه (أدهم) واقفًا على باب المرآب. فتوقف جانبًا وألقي عليه التحية، إلا أنه قابله قائلًا:

- شوفت الفيلم؟

ضحك (إبراهيم) قبل أن يرتدي نظارته الشمسية، ثم قال متسائلًا:

- إنتَ عملت الفيلم علشان تكسب منه ولا علشان أبوك يشوفه؟!

مالَ (أدهم) على نافذة السيارة بجسده، وابتسم فقال:

- إنتَ عارف ردي.

عبث (إبراهيم) في جنبات السيارة منظمًا أوراقه في أثناء قوله ضاحكًا:

- خلاص متسألش.. بس أنا شوفته، والبنت اللي قلعت دي شبه أختك يارا، أنا افتكرتك جبتها وخليتها تمثل.

ترك (أدهم) السيارة، ثم همَّ بالتحرك نحو باب المرآب، وقال ضاحكًا بصوتٍ عالٍ:

- لو هتخليني أكسب فلوس أكتر هخليها تمثل.

بادله (إبراهيم) ضحكةً عالية، ثم احتضن بكفيه مقودَ السيارة وحلّق بها خارجًا، حتى وصل إلى مطعمه الخاص..

يمتلكُ (إبراهيم) سلسلةَ مطاعمَ ضخمة، من أشهر المطاعم في مِصر، والتي تتكون من خمسة فروع ذائعة الصيت. وقد قصَد (إبراهيم) بسيارته الفرعَ الرئيسي منها؛ لا يحب الجلوس سوى في ذلك الفرع، إذ اكتسبَ سحرًا خاصًّا بإطلالته الفريدة والمتميزة على على نيل مِصر العزيزة..

لديه من الأموال ما يكفي لسدِّ ديون مِصر كلها، بل ويفيض، لكن الكِبْر قد بلغ منه مبلغَه فعاش كاسرًا الخواطر ولا مودة لأحدٍ في قلبه..

ركنَ سيارته أمام المطعم، وهندم ملابسه أمام المرآة، وإذا برجلٍ عجوزٍ شاحب الوجه رث الثياب مشعث الشعر، ضعيف وينهشه الفقر، أدخل رأسه من نافذة السيارة قائلًا بنَفْسٍ منكسرة:

- ربنا يبارك لك في ولادك يا ابني، ساعدني بأي حاجة، ماكلتش بقالي ٣ أيام.

هاجمَت أنفَ (إبراهيم) رائحةُ فمِه الكريهة، فاشمأزَّ حتى كاد يَقيءُ ما في معدته، ولما أوشكَ الرجل أن يمَسَّ بذلَته المُوقَّرة بيده المتسخة، تراجَع (إبراهيم) إلى الخلف واضعًا يده على فمه كي يصد عنه ذاك الهجوم المُباغِت، فيما تجسَّد النفور على ملامحه بكل صوره، ثم بحركةٍ سريعةٍ أغلقَ نافذة السيارة، وحاول تجاهُل الرجل قدرَ الإمكان وتفادي رائحته المقززة، وهرب بوجهه إلى الناحية الأخرى ليتناسى كلماته التي لم يصله من معناها سوى أنها تستخِف بعقله، فهو لا يتصدَّق بقرشٍ واحدٍ من أمواله، وعلى اقتناعٍ تامٍّ بأن مَن يتسوَّل لقمة العيش لا يستحق أن يتذوقها..

سحبَ حقيبته ونزل من سيارته وأحكم إغلاقها، ثم ساقَ قدميه نحو باب المطعم سريعًا، وبعد أن دلف، سقطَت دمعةٌ من عين العجوز المسكين، ليلف جسده الهزيل الضعيف راحلًا.

****

على طاولةٍ مستطيلةٍ ضخمة، في ملهى ليلي بمدينةٍ مغلقةٍ على نفسها، مخصصة لألمع النجومِ وأصحاب النفوذِ والأموال الضخمة، جلست عائلة (إبراهيم) المكونة من زوجته (مارسلين)، لبنانية الجنسية، من أصل يهودي، وقد تخلت عن ديانتها مؤخرًا لعدم اعترافها بوجود إله، وتحيا في الدنيا مُلحِدة لا تعترف بأي دينٍ على الإطلاق. وولديه؛ (فارس) ذو العشرين عامًا، ولدٌ مريب، الوشوم تملأه من رأسه حتى أخمص قدميه، له شعر طوله يبلغ نصف ظهره، حليق الذقن، أزرقَ العينين، أشقر وجميل المظهر. و(يزن) ذو الاثنين والعشرين عامًا، نحيل الجسد، جميل الوجه، رقيق الملامح، لطيف المظهر، حليق الشعر، كثيف الذقن، أبيض البشرة وبني العينين..

(إبراهيم) رجلٌ يعشق الحياة، يعتقد بأن لا إلهَ خلقها، ويعتز بنفسه وفكره، يجادل أعتى مفسري الدين، فيتفوق عليهم بدهائه، وعائلته تتْبَعه المفهوم نفسه؛ أن لا خالق في هذه الدنيا البشعة، ولا بعثَ بعد الموت، لذا فليعيشوا حياتهم كما يريدون، حتى لا تُسدِل ستارها الأخير محملًا بالندم.

تباهَت الطاولة بأفخرِ أنواع الخمور، واللحوم من كل صنف، بالإضافة إلى الموالح لتضبُط أدمغتهم مع الخمر. وانتشرَت فتياتُ التعرِّي في كل رُكنٍ بالملهى..

تحرك رجلٌ ناحيتهم في أثناء انغماسهم في ملذاتهم، اقترب من (مارسلين) وهمس في أذنها، لتضحك ناظرةً إلى سيدةٍ أشار لها إليها، ثم قامَت تلبي نداءها، لامسَت يدها وسحبتها من خصرها لتنغمِسا وسْط الحشد الراقص، فرقصتا معًا كالثعابين تلتف حول بعضها بعضًا..

بعد أن رحل الرجل، عاد بكأسين وتقدم بهما نحو (إبراهيم)، ثم ناوله إحداهما مبتسمًا، فمدَّ (إبراهيم) يده يلتقطها منه، فقبَّلَ الرجل يده مع إلقاء ابتسامةٍ واضحة المغزى إلى عينيه، ليُبادِله الأول بالابتسامةِ الماكرة ذاتها..

وفي تلك اللحظة، غرق (يزن) في رصَّات البُدرة التي تملأ الطاولة، إذ استَنشقتها أنفه بلذةٍ مصحوبة بنشوةٍ عالية. وفي الجهة الأخرى، وقف (فارس) يلتقطُ بضع صور لنفسه -بواسطة هاتفه المحمول- وهو يمثل حركاتٍ لا تفعلها سوى العاهرات.

يتعاظم انتشار العُهر والفساد بين جنبات هذا المكان في كل يومٍ وفي كل ثانية، ليُعشِّش الشيطان فوقَهم بعرشه متفاخرًا بشعبٍ من بني الإنسان.

****

«سأجيبكَ بكل صراحة، لتكون أنتَ أول روحٍ تعرِف من أكون.. ولكن حتى أوقِن أن هذه هي الروح التي أريد، حدثني أكثر عن إرادتك»

السامري إلى الأرقم

ظلمات المُحطَّمين..

في قاهرة مِصر الموحشة، في قلبِ أحد أسواقها، وفي صباح غير مشرقٍ بالمرة..

انتشر الخوف والقلق على أوجه السائرين وقاطني المدينة، وتناقلت الأحاديث فيما بينهم عن مستقبلٍ قريبٍ وعن قيامةٍ على وشك الحدوث، إنها الساعة تقترب وهم في غفلةٍ من أمرهم..

يظهر الناس بملابسهم الرثة غير المهندمة، ووجوههم المتسخة المليئة بالعبوس، ولا حديثًا ليِّنًا يخرج من أحدهم، يسيرون كالأموات يواجهون حر أشعة الشمس مدلدلين ألسنتهم، بعد أن أضحت المياه تنقطع عن منازلهم اليوم بأكمله، وإن جاءت فتكون قليلةً متقطعة لا تروي ظمأً ولا تسدُّ رمَقًا..

امتنعت البقالات العامة عن بيع المياه المعدنية، وشرعوا في تخزينها لاحتياجاتهم الشخصية، وارتفعت أسعار السلع إلى حدٍّ مهول لا يصدقه بشر، إذ جلس بائعو الخضروات في السوق وقد نحتَهُم الصمت فلم يروِّجوا لبضائعهم لعدم تحملهم النداء المستمر نتيجة قلة المياه، وقد رُفِعت التسعيرات إلى أرقام عجيبة، ليصل كيلو الطماطم إلى مئةٍ وعشرين جنيهًا، مما أصاب الناس بالذعر، وامتنعوا عن أكل الخضروات حتى شرعت في الهلاك، والمحاصيل تقترب من الموت يوميًّا، وقد خُزِّن ما استُطيع إنقاذه وتم التضحية بالبقية..

ولكن، كيف سيتناول الناس طعامهم وكيلو الدجاج وصل إلى خمس مئة جنيه، وكيلو اللحمة ارتفع ليتجاوز الألف جنيه، وبدأت قرارات فصل العمال تُصدَر بصورةٍ يومية؟!

مصنع تلو الآخر يتم إغلاقه في كل ثانية، والأموال أضحَت لا تكفي، وسكَن المنازل رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ يبحثون عن الطعام والشراب فلا يجدونه، حتى تجاوز تعداد الموتى الحدَّ المعقول.

****

وقف العم (عطية) -الرجل العجوز الذي يقطن في حي السيدة زينب- بمنزلٍ صغيرٍ قد ورثه أبًا عن جَد، وقد سكن به هو وزوجته العاقر المسكينة، وقف مذلولًا أمام المعلم (ربيع الحلو)، تاجر اللحوم الكبير الذي تدهورت تجارته وأوشكت على الانتهاء، وقد بدا على ملامح العجوز الرجاءُ وهو يقول:

- يا معلم أنا مش لاقي أكل، ومراتي بتموت، اشتري مني البيت بأي تمن أنا راضي.

ما باليد حيلة، أضحت المنازل لا تساوي شيئًا بسبب الوضع الجديد، إذ إن الأهم هو أن يعثر الفرد على شرابه وطعامه ولا يأبه لنومه، حتى وإن كان في الشارع..

بعد أن ترجَّى العم (عطية) المعلمَ آمِلًا أن يشعر بما يحمله صوته من كسرةِ نَفسٍ ورعبٍ مهيب، قابله الأخير بغضبٍ شديد وعنفه كما لو أنه جاء ليلتقط روحه:

- يلا يا راجل يا خرفان من هنا، بيت إيه اللي أشتريه! بيتك ده يومين كمان ومش هيسوى جنيه.

اقترب العجوز نحو يد (الحلو) وحاول تقبيلها ودموعه تنهمر في حزنٍ قائلًا:

- يا معلم أبوس إيديك!

دفعه المعلم بقدمه ليسقط العجوز أرضًا، وقد كاد يموت من قوة الركلة. ذلك الذي احترمه أهل الحي في أيامه كلها، ولم ينهَره أحد أو حاول الاستهزاء به، جاء اليوم الذي يُعامَل فيه كالقمامة من أسوأ الناسِ سمعة، ولم ينتهِ الأمر بأن ضُرِب على مرأى من المارَّة، بل تبعه (ربيع الحلو) بالسباب قائلًا:

- يلا غور من هنا خليني أشوف آخرة المصيبة اللي حلت علينا دي إيه..

بكى العجوز كما لم يبكِ من قبل، سالَ الدمع ولم يُحرِّك ساكنًا في قلبٍ متحجِّر يجوب الأرض ويعيث فيها فسادًا، بل قوبِل بالتجاهل من قبل المتجبِّر الذي تجاوزه ودلف إلى محله، ليتحامل العجوز على قدميه الضعيفتين ويسير نحو منزله ليطمئن على زوجته التي شارفت على الموت، وقد شعر من دواخله بأن قلبه على وشك التوقف لهول ما ألمَّ به من الحزنِ والألم، فلم يفعل سوى أنه نظر فوقه وصرخ قائلًا:

- يا رب، إنتَ المعين يا كريم!

وأكمل طريقه غير عالمٍ ما سيخبر به زوجته التي تنتظره على أمل عودته ومعه القليل من الماءِ والطعام..

تابعه (الحلو) بطرف عينه، متمتمًا بصوتٍ جهور بضيقٍ غلب محياه:

- مصايب وبتتحدف علينا، الواحد هيلاقيها من الشحاتين ولا من القرف اللي بقينا عايشين فيه.

ثم انتقل بنظره نحو خادمه المخلص القابع أمامه ساكنًا، ذلك الصبي العامِل تحت إمرته ومساعده في تجارته، التقط نفسًا عميقًا ليهدئ من روعه قبل أن يقول:

- مش عارف تستلقط لنا كام فرخة نعمل بيهم مصلحة من مزارع حبايبنا؟!

ضرب الصبي كفًّا على الأخرى، وقد ملأت الدهشة قسمات وجهه في أثناء قوله:

- يا معلم خلاص، مبقاش فيه لا فراخ ولا لحمة، واللي عنده حاجة دلوقتي بيخبيها لنفسه.

صمتٌ قبض على الأجواء، وعقل المعلم يدور في مخدعه، يفكر محاولًا إيجاد حلٍّ لتلك المعضلة التي هبطَت عليهم غضبًا من السماء، ثم التقط أنفاسه بعد أن لمعت برأسه فكرةٌ ستقلب الموازين..

مد يده، سحب صبيه من ياقته، قربه منه، ثم همس قائلًا:

- خد الرجالة وانزل لم الكلاب والقطط اللي في الشوارع، ادبحوهم وهاتوهم.

فكر الصبي للحظات، ثم تراجع إلى الخلف، فتلفت حوله ناظرًا في الطرقات، ثم قال متعجبًا:

- بس يا معلم معظم القطط والكلاب ماتت من قلة المياه!

سكت المعلم لبضع ثوان، كأنه يُقلِّب الأمر في رأسه، ثم ارتسم على وجهه شبح ابتسامة في أثناء اقترابه من الولد قائلًا:

- اللي تلاقوه هاتوه، حتى لو ميت، أنا هعرف أتصرف فيه.

تحرك الصبي من مكانه متجهًا نحو الباب خارجًا في أثناء قوله:

- أمرك يا معلم.

وخرج ليبدأ رحلته هو ورجال (ربيع الحلو) في البحث عن الحيوانات ليصنعوا منها لحمًا يتناوله الناس. فكرة خطرت على بال أحمق ولكن عقله يعمل بجِد، فالناس سيتسابقون بكل تأكيد نحو أي شيءٍ يؤكَل حتى يسُّدون صراخ بطونهم الهادر.

****

هواءٌ نقيٌّ مُشبَع بالراحة النفسية، وجمالٌ يرسُم الحياة بأبهى صورها أمام أعين الناظرين، والشمس تُداعِب الموجودات بأشعتها الحارِقة، في وسَط القصر الكبير بحديقته التي تعجز العين عن رؤية آخرها، وأمام حمام السباحةِ الواسع، جلست (يارا) ابنة (إبراهيم)، فتاةٌ في العشرين من عمرها، توفيت والدتها بمرض السرطان بعد ولادتها بعامين، ولم يحزن عليها أحد، ففي ذلك القصر، قليلون هم أولئك الذين يمس نبضُ الحزن أوتارَ قلوبهم.

وبرفقة (يارا) صديقتُها الجامعية (سلمى)، تجلسان معًا أسفل مظلةٍ ضخمة على أريكةٍ مريحة، وقد بدأتا الحديث بتذمُّر (يارا) بموضوعٍ يثير حنقها:

- على فكرة الحجاب مش فرض.. هاتي لي آية من أي كتاب بتقول إن الحجاب فرض، سواء ديني أو مش ديني، إنتِ لما بتحطي الآيس كاب على شعرك، بتشيليه تلاقي فروتك خلاص هتموت.. ده مضر يا بنتي.

زفرت (سلمى) بالضيق لانشغال (يارا) بحديثٍ تافهٍ لا قيمة له قالَته زميلتهما الجامعية (زينب)، تلك الفتاة الملتزمة بأحكام دينها، وهما تكرهانها، ولذلك حاولَت (سلمى) تهدئة (سارة) بقولها:

- إنتِ هتفضلي شاغلة دماغك بزينب طول اليوم؟! يا بنتي دي لو قلعت الطرحة هتلاقيها قرعة، مش علشان كلمة قالتها لك هتفضلي قافشة في موضوع الحجاب حرام وحلال، سيبتي أركان الإسلام كلها وهتمسكي لي في اللبس!

كادت تصيح معترضةً من حديثها، فهي لا تشغَل بالها بأحد، ولكنها تثرثر مع صديقتها المُقرَّبة، لولا رنين هاتفها المحمول الذي صرخ بغتة، وحين تفقدت المتصل صاحَت مبتسمة:

- الحقي ده سيف!

بعد أن أعربَت عن سعادتها بالمتصل، فتحَت المكالمة، ومن ثم فعَّلَت مكبر الصوت لتسمعا معًا المتكلم، فجاء صوته يقول:

- إيه، هتيجي النهارده؟

كادتا تنفجران ضحكًا لولا أنهما وضعتا يدَيهما على فاهِهما، ثم هدَّأتا نفسَيهما، لتقول (يارا):

- إيه! صاحبك مشي؟! قول متتكسفش، اوعى يكون مكيِّفكش!

وبعدما تفوهت بكلماتها ابتعدت عن الهاتف لتضحكا معًا، ثم سمعتا صوت (سيف) يقول:

- كركركر... ابقي هاتي لبس معاكِ، علشان نسيت أودي لبسك للدراي كلين.

فعادت بفمها نحو الهاتف لتقول متعجبة:

- ده على أساس إن أنا وافقت!

كاد أن يتحدث، لولا أن شقَّت (سلمى) حديثهما بقولها:

- وأنا كمان آجي؟

اشتعل غضبًا من سماع صوتها، وصاح بصوتٍ عالٍ:

- "Turn off the fucking speaker".

أغلقَت مكبر الصوت وهما تضحكان بصوتٍ عالٍ، ثم وضعته على أذنها، ليأتيها صوته قائلًا:

- على الله الـ"Bitch" دي تيجي معاكِ.

اقتربت (سلمى) من المحمول قائلةً بحنق:

- سمِعتَك على فكرة.

فنطقت (يارا) لتُنهي المحادثة:

- طب يلا اقفل دلوقتي.

أغلقت المحمول، ثم نظرت إلى (سلمى)، لتقول الأخيرة مبتسمةً في إشارةٍ إلى انتصارها:

- مش قولت لك هيجيب ورا.

ضحكت (يارا)، ثم قالت متفاخرةً بنفسها كأنها قد تغلبت على أعتى المحاربين الشرسين:

- يا بنتي آخره ٣ أيام يقعد في البيت من غيري.. مبينامش أصلًا غير وأنا بلعبله في شعره.

ضحكت (سلمى) ثم لكزَتها في كتفها قائلة:

- "It's the beginning" يا بيبي.

ردَّت (يارا) صائحةً وهي تُنصِّص قولها بإصبعين من كل يد:

- "I'm still virgin".

ضحكت (سلمى) استهزاءً بحديثها الذي لا يعني شيئًا بالنسبة إليها، فهي لا تصدقه على أي حال..

- أسبوع كمان بالطريقة دي وهيبقى فيه "two kids" قاعدين معانا، بقالكم زيادة عن ٨ شهور، هو بيجي يقعد عندك أو إنتِ بتروحي تقعدي عنده...

كادت أن تُكمل، لولا انغماس (يارا) في العبث بهاتفها، إذ أجرت اتصالًا هاتفيًّا مع أبيها (إبراهيم)، وبعد عشر ثوانٍ سمعت ردًّا آليًّا يخبرها بأن تُسجِّل رسالتها إن كان لديها أمرٌ مهم، فصاحت بعصبية:

- Shit!

إنها تكره ذلك التسجيل الممل الرتيب الذي يستخدمه أبوها، هدأت من نفسها بصعوبةِ المستحيل، ثم قالت لتسجل رسالتها:

- "Send our special food to Saif's home".

ثم أغلقت الهاتف وألقته إلى الأريكة بجانبها في لحظة وصول سيارة (أدهم) أخيها. توقف أمامهما، ثم ترجَّل من سيارته ونظر إليهما مُرحبًا بوجهٍ جامد:

- هاي..

وأكمل طريقه نحو بابِ القصر وهو يسجل رسالةً صوتيةً في محادثةٍ عبر الإنترنت بينه وبين أخرى قائلًا:

- شوفي لي ١٠ بنات لمشهد المغني في الفيلم يكونوا بيعرفوا يرقصوا.

ثم أغلق الهاتف، ودسَّه داخل بنطاله، وولج من باب القصر وصعد نحو غرفته، فدلف إليها وألقى بجسده على الفراش دون تبديل ملابسه، ليغرق في نومٍ عميق، فقد أرهقه عمله طوال الليل.

****

في عصر سيدنا آدم..

- لأقتلنَّك كي لا تنكِح أختي.

قالها (قابيل) لـ(هابيل) بعد أن تقبَّل الله قربانه، ذلك الكبش السمين الذي ظل يُطعِمه حتى أضحى أفضل ما عنده، وقصد بقوله أختهما (إقليما) التي كانا يتصارعان حول مَن منهما سيتزوجها..

جاء الأمر الإلهي بأن توأمَي البطن الواحدة يتزوجان توأمَي البطن التي تليها، ولا يجوز أن يتزوج توأما البطن الواحدة بعضهما بعضًا، فكان نصيب (هابيل) هي (إقليما) توأم (قابيل)، الجميلة الفاتنة التي خطفت قلبيهما، وكان نصيب (قابيل) هي (لبودا) توأم (هابيل)، والتي كانت قبيحةً دميمةً لا تروق لرجل. ورغم أن (هابيل) كان راضيًا بأي شيء، وكان سيوافق بأي أخت زوجةً له، فقد كان نصيبه كأخلاقه، فاتنةٌ جميلةٌ يتحاكى بحُسنها رجال (آدم) أجمعون..

ولكن (قابيل) رفض الأمر وصاح في والده معترضًا، فناجى (آدم) ربه، وكان الرد أن يُقدِّما قربانًا، ومن يُقبَل قربانه يتزوج (إقليما)..

أحضر (هابيل) أسمن الخِراف وأجملها على الإطلاق من قطيع الغنم الذي يرعاه، وقرر تقديمه قربانًا، في حين أحضر (قابيل) زرعة بصل عفنة لا تستحق أن تكون قربانًا للإله، بل إنه عندما وجد فيها ثمرةً صالحةً أكلها..

وذهب الأَخَوان معًا ووقفا فوق جبل وترك كلٌّ منهما قربانه، فرُفِع قربان (هابيل) إلى السماء، ذلك الخروف الذي ظل يُعلَف عند الله حتى نزل كبش فداءٍ لرأس (إسماعيل) فيما بعد..

وبعد أن رُفِع خروف (هابيل) إلى السماء، لم يتقبَّل (قابيل) الأمر أيضًا، وصرخ في وجه أخيه معترضًا، فكان رد الأخير:

- إنما يتقبَّلُ اللهُ مِن المُتَّقِين.

والتفَّ ليرحل في سلام. اشتعل غضب (قابيل) على خسارته، وطقَّت عيناه شررًا صرخت على إثره السماء، فاندفع نحو أخيه، وفي تلك اللحظة، اصطدمت قدمه بفَكٍّ من الهيكل العظمي لحمار مُلقى أرضًا..

دون تفكير..

دون ذرة ضمير..

وباندفاعٍ كاملٍ نواياه الشر..

رفع (قابيل) الفكَّ وباغت أخاه فضرب رأسه من الخلف بأقصى قوته، فتردَّى (هابيل) على وجهه أرضًا مُضَرَّجًا في دمائه التي نفرَت من رأسه مكونةً نافورةً حمراء، وصعدت معها روحه إلى السماء.

اقترب (قابيل) من أخيه بوجهٍ عابس، وعنفه بكلماتٍ لم يسمعها:

- سآخذها، فهي مِلكٌ لي، شئتَ أم أبَيت، حتى وإن تعارض ذلك مع قوانين آدم.

ثم جثا على ركبتيه، فعدل وضع الجثة وهزها ليتجاوب معه، ولكنه صُدِم بأنه أضحى بلا روح، فصُعِقت دماغه..

تراجع إلى الخلف، واختلجت قلبه مشاعر كثيرة حطَّمت كل حصونه..

تلفت حوله، لم يعلم ما عليه فعله، وظلَّ على حيرته تلك كثيرًا، حتى استقر إلى رفع جثة أخيه والسير بها في الصحراء، ومن ثم دفنها.

بعدها دلف على قومه، وأخذ زوجته الشرعية (لبودا) توأم (هابيل)، وهرب بعيدًا عن أبيه وقومه. تزوجها وعاش وحيدًا شريدًا يُعمِّر في الأرض بذريةٍ من نسله جاءت وقد تأصَّل فيها الشر والفساد وتعمَّقا.

(٦)

سُجِنَت الروح في جسدٍ عاصٍ، فما عاد للخير مكان..

«أتُريد مني أن أعبُدك؟! أريدُك فقط أن تعلمَ وقبل كل شيء، أنني لم أعبُد فرعونَ سوى خداعًا، رغم ما كان بيده من جزائي وعقابي.. ففِرعون لم يكن بالنسبة إليّ سوى طفلٍ أرادَ لعبةً لم يمتلِكها يومًا»

الأرقم إلى السامري

هول بني آدم..

بين جدرانٍ أربعة، في ذلك البيت الفقير للعائلة المسيحية الكادحة، وفي ظل انغماسهم في مشاكلهم العميقة المُقلِقة للنفس والمتعبة للأبدان، جلست (ماريان) ابنة (إبراهيم) على كرسي مكتبها بغرفتها المفتقرة إلى الأثاث الراقي، والتي تحوي فراشًا صغيراً جارَ عليه الزمان، ومكتبًا خشبيًا هشًا ضعيفًا، ولا باب لها، فقط ستارةٌ تغطيها..

كانت تعبث بطلاء الأظافر خاصتها، حينها دخلت عليها والدتها (فريال)، فاستكانت بجسدها البدين على الكرسي المقابل لها، ثم شرعت في الثرثرة:

- ماريان، النهارده أول الشهر.. شوفي لي ٥٠٠ جنيه من قبضِك، هدومي دابت واتقطعت، الناس مبقوش مصدقين إن أنا أمك، شوفي إنتِ بتلبسي ازاي وأنا بلبس ازاي! وهدعي لك إن الرب يبارك لك في اللي بتاخديه..

كأنها منغمسةٌ في عملية تلوين أظافرها بما لا يسمح لها بأن تسمع، فلم تنتبه إلى حديث أمها كالمعتاد؛ هي لا تحب النقاش معها، إذ ترى أنها تثرثر فقط ولا قيمةَ لكلامها سوى أذية النفس..

- أكلتك وشربتك ووديتك أحسن جامعة، ولما الرب أراد رِزقِك، تتسحبي من أمك وإنتِ داخلة بليل! أنا مش فاهمة يعني، هاخد منك الفلوس أشتري بيها قميص نوم لأبوكِ المكحكح! العيد داخل، وشكلنا هنقضي السنة كلها صيام..

سكتت للحظةٍ تستجمِع فيها حديثها، أو ربما تتحسس اهتمام ابنتها بها، لكنها فوجئت بعدم الاهتمام، لتكمل:

- يا ماريان...

هنا صاحت (ماريان) بأعلى صوتها في وجه والدتها، عنَّفتها كأنها شخصٌ غريبٌ يتطفل عليها، وقد وصلت إلى آخر غضبها:

- يا ماما، اخرجي واقفلي الستارة وراكِ!

لم تندهش (فريال) من حديث ابنتها اللاذع، فقد اعتادت عليه من الناس جميعهم، إذ إنها ثرثارة بطبعها، ولا تستقبل منهم شيئًا سوى النفور والتقليل من شأنها، وعلى الرغم من ذلك استطرَدت ما تقول:

- طب تصدقي بقى إن أنا كنت بكدِّب حلمي، ومش عاوزة أقولهولك، بس العَدرا جات لي وقالت لي إنك هتسيبي البيت، ومن غير ما تجي لي، اللبس اللي شوية بيروح من البيت لمكان تاني الرب أعلم بيه.

تركَت (ماريان) طلاء الأظافر بغضبٍ فوق مكتبها، ثم رمقتها بعينين تطقان شررًا وقالت:

- آه، علشان لما بيتساب في البيت ده، بيختفي! وفجأة يظهر ويتقال: بصوا جبت إيه، ومفيش بنت بتكسف أمها..

ثم اعتدلت على كرسيها ولفت بجسدها لتُوَلِّيها ظهرها، وأمسكت بأوراقٍ قابعةٍ على المكتب، وأردفت بالنبرة ذاتها الوحشية الخالية من أي رحمةٍ أو بِر:

- ماما، أنا عندي امتحان وعندي شغل، مش طالبة منك غير إنك تقفلي الستارة.

تحاملت (فريال) على قدميها، ثم رمقتها بغلٍّ وسُخط، قبل أن تقول:

- أنا كل يوم بتف على البطن اللي جابتك، بطن وسخة!

ثم اتجهت صوب بابِ الغرفة وتمتمَت بصوتٍ مسموع:

- عايشين في بيت نصه مال قارون، والنص التاني مستني بركة يسوع.. الرب هيوريني العدل فيكِ.

جلست على أريكةٍ قديمةٍ تآكلت بفعل الزمن، ليظهر جسدها في مرآتها المعلقة بالجدار أمامها، والتي كشفَت عن جلبابها المهترئ، فرمقته بوجهٍ عابس، ثم انكبت يدها على كتف الجلباب فمزقته شر ممزق، وفي عقلها أقدمت على فعلتها لتخبر (إبراهيم) عند حضوره بأن يشتري جلبابًا جديدًا لها، ولا رحمةَ في هذا لذلك المسكين التائه في معمعة الحياة بلا مُعين له..

جاهدَت قدميها لتقوم، وتوجهت نحو المطبخ لتُنقِّب فيه عن أي شيءٍ تأكله، فلم تجد. حينها سمعت صوت جيرانها يُخرِجون القمامة إثر إنهائهم طعامَهُم، فتقدَّمت نحو باب شقتها، ومالت بجسدها حتى التصقت به، وحين تأكدت من عودتهم إلى شقتهم، فتحت الباب وخرجت، ثم وقفت أمام صندوق القمامة الخاص بجيرانها أولئك، وشرعت في العبث بها لتعرف ما تناولوه اليومَ على الغداء وتحقد عليهم في سرها، ولما انتهت عادت إلى شقتها. تقابلت عيناها مع عينَي ابنتها، والتي أخرجت «اللاب توب» الخاص بها كي

تنهي عملها، ولكن ما إن أبصرت الأخيرة أمها حتى دسَّته داخل دُرج المكتب وهرولت صوب ستارة الغرفة فأغلقتها. حينها تقدمت أمها (فريال) والتصقت بالستار لتقول:

- رِني لي على المنيل أبوكِ، الساعة بقت ٣، عاوزة أنزل السوق.. كل أول شهر يهرب مني، كأني باخد الفلوس وأحطها في الكنيسة.

لم تلقَ استجابةً لحديثها، فمشَت في الشقة تصيح:

- طبعًا مش هتردي.. خدي بيدي يا عدرا، وعِينيني.. راجل وبنت والعجوز هي اللي بتعمل كل حاجة.

سحبت جلبابًا أسودَ مُعلَّقًا على جدار غرفتها، فارتدته، ثم خرجت من باب الشقة وأغلقته خلفها. باشرت النزول على الدرج، لولا أنها اشتمَّت رائحة طعامٍ تخللت أنفاسها من الدور القابع فوقها، فعادت أدراجها وتجاوزت السلم حتى وصلت إلى الشقة التي تنبثق منها رائحة الطعام، والتقطت نفَسًا في محاولةٍ منها لتعرف ما الذي سيأكلونه، في حين تشبَّعت قسمات وجهها بالحسدِ والغل والكره، وبعدما روَت فضولها البغيض، عادت لتستقل السلم إلى الأسفل حتى خرجَت من باب العمارة، فقابلت ولدًا تجاوز الخمسة عشر عامًا، اسمه (أحمد)، ابن السيدة الساكنة فوقها والتي اشتهَت طعامها، فاستوقفته قائلة:

- ابقى خلي أمك تنزِّل لنا ورك فرخة وطبق محشي.. ولو قالت لك لأ، ابقى فكرها بالبسبوسة بتاعة رمضان اللي فات، حاكم أمك دي...

صمتت وحركَت يديها علامةً على التعجب، ثم تركته ورحلَت، ليستغرب الولد من تلك السيدة المجنونة..

المسافة بين منزلها والسوق كبيرة، لكنها لم تستقِل أي مواصلة، بل ظلَّت تعنف قدميها حتى وصلت إلى أول السوق، ثم جلست على أحد الأرصفة. فردت قدميها وتابعت

بناظريها السيداتِ العجائزَ القاصِدات السوق، حتى وقعت عينُها على سيدةٍ يبدو عليها النُّبل والطيبة، فصاحت بصوتٍ عالٍ لتسمعها:

- آه يا رجلي، خدي بإيدي يا حاجَّة، الرب يساعدك..

توقفت على قدميها في تثاقُل، ثم أمسكَت في يد العجوز، وقالت متسائلة:

- إنتِ داخله السوق؟

فنطقَت السيدة ببرائةٍ وطيبةٍ وتبسَّمت قائلةً بوجهٍ بشوش:

- آه يا بنتي، تعالي أوصلك.

ضغطت (فريال) على يد السيدة، وحاولت تغطيتها بكُمِّ جلبابها الواسع، ثم أخرجت باليد الأخرى قاطعة أسلاك «زردية» من حقيبتها الصغيرة، وبحركةٍ خاطفة، قطعَت الأسورة الذهبية التي تزين يد العجوز، وأرسلتها إلى يدها الأخرى لدسِّها في الحقيبة. وفي لحظة وصولهما إلى السوق، توقَّفت عند بائع خضروات، ونظرت إليها قائلةً بوجهٍ باسم:

- تسلمي يا حاجة، تعبتك معايا.

ربتت العجوز على كتفها، وبوجهٍ نقي وصوتٍ حنون قالت:

- محتاجة أساعدك في حاجة تاني يا بنتي؟

ارتسمت الابتسامة الواسعة على وجه (فريال)، ثم قالت قبل أن تلتفِت مُقلِّبةً في خضروات البائع:

- شكرًا، الرب يحميكِ.

شقَّت العجوز السوق بقدميها لتنغمس بين الناس، وفي اللحظة نفسها، تركت (فريال) الخضروات التي تقلب فيها، وساقَت قدميها هربًا قبل أن تكتشف السيدة تلك المصيبة التي حلَّت عليها.

****

في كنف منزل الحاج (إبراهيم)، وبين الجدران ذات النقوش الإسلامية والمرصعة بآياتٍ من القرآن الكريم، ورائحة البخور العطرة تهدئ الأنفُس، جلست (سميرة) زوجته على الفراش مرتديةً قميص نومها، في وقت صلاة العشاء، في حين ذهب (إبراهيم) إلى المسجد ليؤدي فرضه..

أخذت تتفقَّد الموجودات يمينًا ويسارًا، وقد غلب ملامحها الحزن والانكسار، وصارت تنهمر الدموع من عينيها بطريقةٍ متقطعة، كأنها فقدت عزيزًا عليها..

يقبع فراشها في غرفةٍ متوسطة الحجم، بها دولاب ضخم يرتكن إلى أحد الحوائط، وبضع آيات من القرآن موزعة في لوحات تزين الجدران، وصورةٌ للشيخ (إبراهيم) معها حينما كانا قادمين من حجِّهما منذ عدة سنوات..

لا تلفاز ولا جهاز كمبيوتر، ولا أي شيءٍ يدعو إلى معصية، باتفاقٍ بين الطرفين، رغم عدم اقتناعهما التامِّ من دواخلهما..

توقفت (سميرة) بثقلٍ على قدميها، ثم تحركت بثباتٍ وملامح وجهها تتسم بالعبوس متقدمةً نحو الدولاب، فتحه، وعبثت بين ملابسها لتُخرِج هاتفًا محمولًا اعتادَت على تخبئته من زوجها. تفقدته بعينين ذابلتين، ثم تراجعت إلى الخلف لتجلس على الفراش مرةً أخرى برتابةٍ وملل..

فتحت الهاتف المحمول خاصتها، ثم ولجت فورًا على موقع التواصل الإجتماعي «فيسبوك»، ففتحت صفحتها، وقلَّبت فيها لتقرأ مقطفاتها الكئيبة الحزينة المملة والمليئة

بالكسرة والحزنِ والنفور من الحياة، وشرعت في قراءة تعليقات الناس التي تراوحت بين مهاجمٍ ومدافع ومواسٍ لها، حتى توقفت أمام تعليق أحدهم وقد جذبتها وجهة نظره العميقة والفلسفية، فأثار إعجابها رأيه المنمق والذي وافق عقليَّتها. تأمَّلت التعليق مرارًا وتكرارًا، وقرأته كثيرًا قبل أن تضغط زرَّ «أعجبني»، ثم تابعت التقليب في صفحتها، ليقتحم وحدتها وحزنها وخصوصيتها صوتُ رسالةٍ دقَّت بالوصول. توقفت عيناها عليها للحظات، ثم فتحتها، إنه الشخص نفسه الذي علَّق على منشورها منذ قليل ونال إعجابها تعليقه، وجدته يراسلها قائلًا:

هاي!

لحظات طالت وهي تتفحص الرسالة بعدم اهتمام، كادت تتجاهلها كالمعتاد، لولا أن رُسِمت على الشاشة كلمة «يكتب»، والتي تعني أن الطرف الآخر ما زال يُرتِّب حروفه ليتابع مجرى كلماته. انتظرت لثوانٍ كي ترى رسالته التالية، إذ غلبها فضولها من تعليقه قبلًا، ولذلك قرَّرت إعطاءه فرصة. وبالفعل، ظهرت أمامها رسالةٌ طويلةٌ وعريضة، فشرعَت في قراءتها:

شافت الرسالة ومردتش! ده معناه إنك مش عاوزة تتكلمي..
طيب، على العموم أنا معجب جدًا بتفكيرك العميق والمتمكن من عرض مشكلة بتواجهنا كلنا ومحتاجين ليها تفسير، وإنتِ تجرأتي وبدأتي تمحي التخلف والعُهر اللي انتشر وبقينا عايشين فيه بسبب مجتمع جاهل، بدعمك بقوة، وأتمنى نتناقش في يوم، هيزدني شرف، واعتبريني "Top fan" من اللحظة دي..
سوري لو أزعجتك!

قرأت الرسالة بتمعن، وقد غلبها الفضول والخوف والرعب ممتزجين مع رتابتها المملة. فكرت للحظات، ثم شعرت بالقلق يتوغل بدواخلها، فارتعشت أطرافها، ودارَ عقلها بأفكارٍ شمطاء، وبعد تفكيرٍ طويل، اهتزت أصابعها بمللٍ في أثناء تنقُّلها على لوحة المفاتيح لتكتب رسالةً إليه وترسلها.

****

المعايير الثابتة للمعيشة أضحَت غير سوية، لا شيءَ حقيقي هنا، كأن كابوسًا قبضَ على نفوس البشر مُجبراً إياهم على الخوض في غماره، قلقٌ وتوترٌ وحيرةٌ وخوفٌ من مستقبلٍ قريب..

المنازل أُغلِقت على المنكسرةِ نفوسهم، تصرخ بطونهم ويستنجدون من نهايةٍ موشِكة، وتنقلب الدنيا رأسًا على عقب ولا مُنجٍ سوى الدعاء ولا مخرج للحزن غير الصراخ الكئيب ليلًا..

الشوارع أضحَت مخيفة، مرعبة، وقاتمة على القلوب، الساعة إن تجاوزت العاشرة ليلًا لا تمر نملة. الأنفاس خافتة، مقهورة، ومغلوبة على أمرها. أما الموت فيُعشِّش على المنازل منتظرًا لحظة اللقاء، وملَك الموت يحط على كل المدن يقبض الأرواح دون استئذان..

في ساعةٍ متأخرةٍ من ليلٍ عاصف، وحين أوشك أذان الفجر أن يُرفَع، خرج (منصور)، مدرس علم النفس الذي تجاوز الأربعين عامًا، وقد بدا عليه القلق والتوتر، وارتعاش أطرافه واضحٌ للعيان..

وقف أمام منزله وقلبه يئن رعبًا، تلفت حوله بعينين غير ثابتتين، تدور بهما الدوائر، لم تكشفا له عن أي مارٍّ من ذاك المكان. سار بضع خطوات مهزوزةٍ نحو المنزل المستقر بجانب منزله، والذي يملكه (عبد العال)، المهندس المعماري الذي ترك عمله غصبًا بعدما تهدمت المصالح العامة جمعاء..

تفقد (منصور) درج المنزل -المكون من دورَين- أولًا قبل أن يتجاوز الباب، قلبه يخفق ببطء، تأكد أنَّ لا أحدَ هنا، وسار منكسرًا خائفًا غير منتظم الخطوات..

منذ شهر، لم يستطِع (منصور) مزاولة مهنته بعد أن ترك الجميع طريقهم وأهدافهم الدراسية وتخلوا عن مستقبلهم العلمي وشرعوا في تركيز كل همِّهم لتوفير الشراب والطعام. كان يملك القليل من المال الذي سرعان ما نفد منه غصبًا، عافر في الحياة بحثًا عنْ ما يسد جوع ابنته الوحيدة وزوجته المسكينة ولكنه لم يستطِع، فكانت النتيجة أن استسلم. مرت الأيام وهم يصرخون، حتى ماتت زوجته ودفنها صباح اليوم بعد أن نحُلَ جسدها وأضحى عظامًا. خاف على ابنته من أن تتبعها المصير نفسه، وخاف على نفسِه من المنية، فقرَّر سرقة أي شيء من جاره حتى يسدَّا جوعهما، وها هو يحاول مجبورًا ليستمر في العيش في دنيا فانية.

تجاوز بضع درجات من السلم حتى وصل إلى باب الدور القاطن فيه (عبد العال)، أخرج من جيبه قطعةً من حديدٍ حادة السن، وصار يعبث في باب الشقة وقلبه ينتفض، حينها شعر بتأنيب الضمير لأول مرةٍ في حياته؛ هو الذي عاش بسُمعةٍ طيبة، وتحاكى الناس أجمعون عن أخلاقه ونُبلِه، يستحيل الآن إلى مجرمٍ يسرق من أجل المعيشة..

استمر في محاولته الفاشلة، بضع دقائق مرت وقطرات العرق الغزيرة تتساقط بشراهةٍ على وجهِ البدين، نجح في نهاية الأمر بعد أن كاد يفقد كل ما لديه من أمل..

كشف المكان بعينيه قبل أن يتقدم، لم يبصر أحدًا فاطمأن اطمئنانًا مزيفًا، إذ كيف سيشعر بالراحةِ ودواخله ترتجف بالرعب حتى لو مات أهل البيت جميعًا.

تحامل على قدميه وحثهما على التحرك، دلف من الباب، تلفت سريعًا، كشف المطبخ، وتقدم نحوه خائفًا، ثم ولج إليه، فأخذ يتلفت بعينيه، وشرع في التنقيب عن أي شيءٍ يؤكل. بهدوءٍ حاول ألا يصدر صوتًا، ولكن آماله كلها ضاعت، بعدما اكتشف أنه لا يوجد طعام، فهؤلاء المساكين يعانون من الأمر نفسه، وهو الموت القريب..

كاد يرحل، لولا أن وقع نظره على بيضةٍ مركونةٍ على أحد الأرفف، تهللت أساريره، وتقدم نحوها فرحًا، فاحتواها بين يديه، وقبّلها، ثم نظر إلى فوق داعيًا الإله، كأنها جاءته حلالًا مباحًا وليست مسروقة محرمة..

التف بجسده ليرحل، وبغتة، شعر بشيءٍ يخترق معدته، ليظهر أمامه (عبد العال) ممسكًا بسكينٍ حادةٍ قد رشقها في بطنه، لتسيل الدماءِ على الأرضِ كنافورةٍ لن تتوقف..

فكّر للحظات في حياته الفائتة، فلم يجد فيها ما يستحق التأمل، سوى ابنته المسكينة التي تنتظره في المنزل وفي قلبها اليقين أنه سيعود إليها بالطعام، وها هو يتركها وحيدةً لتصارع تلك الدنيا الموحشة بمفردها.. كم أن الحياة قاسية!

تألم بصوتٍ خفيض، وأبصر ملامح جاره الغاضبة الذي دومًا ما كان يبادره التحية، إذ سحَب (عبد العال) البيضة من يده، ثم تراجع إلى الخلف ليُخرِج السكين من معدته، فشعر بأحشائه تتقطع إلى أشلاءٍ بالداخل، وسقط أرضًا. دارت الدنيا من حوله، لحظات من الألم الشديد الذي يفترسه، وأفكار مريرةٌ عن فتاةٍ صغيرةٍ لم تتجاوز العاشرة من عمرها تسكن وحدها في المنزل منتظرةً والدها بما يُغيثُها..

لم يستمر عقله في التفكير، إذ إنه شهق محاولًا التقاطَ نفَسٍ أخير، ولكنه لم يستطِع، قد سبقته روحه في الصعود، لتنتهي حياته الموحشة، ويرحل إلى ملكوت الخالق.

****

توقفت (مارسلين) زوجة (إبراهيم) بسيارتها في مرآب مركز تجاري ضخم في منطقة شيراتون، ثم ترجلت منها، فتناوَلت حقيبتها وتحركت نحو السلم المتحرك إلى الأعلى لتصعَد..

سيدةٌ في السابعةِ والأربعين من عمرها، قوامها مشدود بصورةٍ تلهب الأنفاس، ترتدي بنطالًا ذهبيًّا يلاصق ساقها التي نُحِتَت بعناية، وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ رفعَ عضلة ساقيها

فزادها إثارة، وبلوزةً ذهبيةً قصيرةً نهايتها عند البطن ومشدودة من الأعلى فتُشقُّت عن نهدَيها باحترافيةٍ ذات إغراءٍ مثير. شعرها الأشقر وبشرتها الصافية ووجهها الذي يُزيِّف سنَّها إلى الثلاثين لكثرة الحقن وعمليات التجميل التي ساعدت في إبراز شفتيها، قد زادوا من كمالِها إلى درجةٍ عالية، حتى جعلت كل من يراها يلتفت برأسه نحوهها في ذهول..

توقفت أمام محلٍّ يبيع فساتين السهرة القصيرة، هي مُعتادة على الشراء منه، فدلفت، وتفحَّصت بضعةَ فساتين، ثم أشارت إلى الفتاة العاملة في المكان بأن تأتي لها بأحدها، وفي أثناء اقترابها منها، لامسَت (مارسلين) يدَ الفتاة برفقٍ محاولةً إثارتها، فقد أخذت منها ثلاث مئة دولارٍ قبلًا مقابل تنفيذ ما طلبته منها فحققت لها مبتغاها، وها هي ستُكرِّر فعلتها..

جذبتها (مارسلين) نحو غرفة تغيير الملابس، فاعترضت الفتاة وتمنَّعَت وتراجعت إلى الخلف، فهمت (مارسلين) أن الفتاة تأبى تنفيذَ طلبها. لكنها لم تستسلم، إذ إنها بعد دخولها إلى الغرفة، خلعَت جميع ملابسها ثم أخرجت رأسها قائلة:

- تعالي ساعديني.

استجابت الفتاة وتحركت نحوها، فسحبتها (مارسلين) من يدها لتدخلا معًا..

وفي غرفةٍ أخرى بالمحل نفسه، لكنها تتوارى بعيدًا عن الأنظار، جلس مراقب الكاميرات على كرسيه، وأمامه المحل معروضٌ بأكمله على مجموعةٍ من الشاشات، مرَّت عشر دقائق لاحظ فيها اختفاء الفتاة العاملة، فشغَّل التسجيلات وعاد بها إلى ما قبل الدقائق العشر حتى عرِف مكانَ وجودها، ثم ناشدَ مدير المكان في اللاسلكي، وأخبره بأن الفتاة لم تخرُج من غرفة تغيير الملابس الخاصة بالسيدة التي حضرَت منذ قليل. فتحرك المدير سريعًا صوب غرفة الملابس، وقف أمامها لبضع لحظات، حاول سماعَ ما يدور بالداخل، وبعدما تأكدت مخاوفه، فتحَ الغرفة، ليصطدم بهما في وضعٍ خليع! صُعِقت الفتاة وصارت تُلملِم عليها ملابسها، وتبعتها (مارسلين) بثباتٍ في ارتداء ملابسها، ليصيح المدير عاليًا:

- النجاسة دي بره يا أوساخ.. ده إنتوا يومكم إسود!

ثم نادى الأمنَ الخاص بحراسة المكان، وقال بصوتٍ عالٍ:

- اقفل يابني الباب الإزاز ده، ونزل السلك عليه، واعدل اليافطة "Close"، واقفل لي كل أنوار المكان، ما عدا نور مربع ٤.. وكلم إدارة المول حالًا.

انتهت (مارسلين) من ارتداء ملابسها كاملة، ثم خرجت من غرفة تبديل الملابس، وسحبَّت كرسيًّا فجلست عليه ناظرةً إلى المدير الذي يتباهى بسلطته، وبعد أن تأكدت من تعقُّد الأمور، رفعَت هاتفها المحمول، وأجرت اتصالًا هاتفيًّا مع زوجها، ولما استقبلَ اتصالها قالت:

- إبراهيم، مول صن سيتي، الدور التالت..

فجاءها الردُّ متسائلًا عن شيءٍ يفهمه، فقالت مُصدِّقةً على حديثه:

- آه..

تساءل مرةً أخرى عن أمرٍ آخر، فردَّت بثبات:

- آه..

ليأتيها الرد الذي انتظرته، فقالت بالثبات ذاته:

- مستنياك.

في اللحظة نفسها، دلف أمن المول، ملازم أول ذو نجمتين وثلاثة أمناء شرطة، وبعد دخولهم تم غلقُ أبواب المحل، ليتقدم نحوها الضابط قائلًا:

- احنا مش هنتكلم، بس الحفلة عليكِ النهارده، متصورة وإنتِ داخله غرفة تغيير الملابس إنتِ وهي، وممسوكين في وضع مُخِل، وواحدة زيك ملهاش غير...

كاد أن يكمل حديثه ليَسبَّها على الملأ، لكن قطعَ كلامه صوت طرقٍ عالٍ آلَم آذانهم على باب المحل، فهرول أمناء الشرطة وفتحوا الأبواب لينهروا مَن بالخارج، إلا أنهم فوجِئوا بدخول (إبراهيم) دافعًا إياهم بقوة، وبصحبته عميدٌ ذو ثلاث نجومٍ ونسر، ومعهما شخصٌ آخر ممسكًا بـ«هارد» كمبيوتر خاص بتحميل بيانات. وقد توقفوا جميعًا أمام الملازم وأمناء الشرطة والمدير..

وفي لحظةٍ خاطفة، تناول (إبراهيم) الـ«هارد» من يد الرجل، وألقى به أرضًا، ثم أخرج مسدسًا كان معلقًا في بنطاله، وضربَ طلقتين ناريتين على الـ«هارد» على مرأى من الجميع، ثم شدَّ (مارسلين) من يدها واحتواها أسفل ذراعه، وخرجا من المحل في ذهولٍ تامٍّ من الجميع. وبعد أن رحل، قال العميد مُوجِّهًا حديثه إلى الضابط وأمناء الشرطة:

- في حد هنا اتحرش بمدام مارسلين، وحضراتكم متصرفتوش، ده غير إن فيه هارد مضروب بطلق ناري، وده بيدل إن اللي عمل كده له سلطة في المكان.

ثم نظر إلى مدير المحل بعينين ثاقبتين، ليرتعش الأخير شاعرًا من أعماقه بأنه قد أوقع نفسَه في مصيبةٍ لن يخرج منها على خير.

****

قوم لوط..

ارتمى (عاكف) -حاكِم قوم (لوط)- على فراشه، وبجانبه رجلٌ آخر غارقٌ في نومه. تحرك الأول بعيدًا عنه، وتقدم نحو كوب خمرٍ وضعه قبلًا على الأرض، فرفعه مرةً واحدة، وإذا به يسمع طرقًا على الباب، فالتقط نفسًا قبل أن يفتحه، لتظهر أمامه زوجة (لوط). دخلَت على الفور ثم أوصدَت الباب خلفها، ونظرت في عيني (عاكف) الذي لم يفهم شيئًا حتى الآن، ثم نطقت قائلة:

- هناك رجالٌ وسيمون لم تُبصِر عيناك مثلهم من قبل، غرباء مرُّوا على قريتنا صدفة، وقد استضافهم لوط في منزله، وتسحبت أنا خلسةً لأخبرك قبل رحيلهم.

سمع (عاكف) كلماتها والتمعت عيناه، ثم خرج إلى الطرقات يجمع رجال القرية أجمعين، ثم ركض وهُم من خلفه يهرعون، وبعدما وصلوا إلى منزل (لوط)، وقف (عاكف) في مُقدِّمتهم، ثم صاح بصوتٍ عالٍ تجاوز جدران المنزل:

- أخرِج ضيوفكَ يا لوط، إننا نشتهيهم لنا.

سمع (لوط) صياحهم، فشعر بالحرَج أمام ضيوفه، وخرج إليهم على الفور صائحًا بهم:

- يا قوم، نساء القرية أطهر لكم، اتقوا الله، ولا تُلحِقوا بي العار والذل مع ضيوفي!

تلقى (عاكف) كلماته، ثم ألقى بسهمٍ قاتل في قلبه ليقتل آماله:

- يا لوط، أنتَ تعلم أننا لا نشتهي نساء القرية، بل في ضيوفك ما نريد.

ازداد (لوط) حزنًا، وشعر بوحدته لعدم انتمائه في الأساس إلى القرية، فدلف إلى بيته وأغلق الباب خلفه.

هجم (عاكف) وأشار إلى رجال القرية بالهجوم، وشرعوا في الخبط على الباب، في حين وقف (لوط) خلفه يحاول منعهم، حتى كُسِر الباب تحت أيديهم وولجوا إلى المنزل، ليُصعَقوا بعدم وجود ضيوف، فتسمَّرت أقدامهم للحظات، ثم نظروا إلى بعضهم بعضًا بخيبة أمل، فرمق (عاكف) زوجةَ (لوط) بغلٍّ وحقد، قبل أن يرحل عازمًا على قتلها وقتل (لوط) ليعيش في الأرض مفسدًا يتَّبِع شهواته ويغوي قومه فيكونوا في ضلالٍ مبين.

****

«ماذا ستفعل لتُثبِت للناسِ بأنكَ الإله وأنا الملاك؟»

الأرقم إلى السامري

قناعاتٌ لا تتجزأ..

في مصعدِ عمارةٍ ضخمة، وقف (فارس) ابن (إبراهيم) يتفقد مظهره في المرآة، ثم قلب يديه أمام عينيه ليبصر أظافر أصابعه الطويلة النظيفة الملونة، ثم عدلَ القرط الذهبي الذي يشُق حاجبه، وأخرج لسانه ليرى الدبلة الحديدية المُثبَّتة فيه من المنتصف. ابتسم والتقطَ صورةً بالكاميرا الأمامية، قبل أن يتوقف المصعد ويخرج، بعدها دخل إلى عيادةٍ لإزالة الشعر بالليزر، فتوجه نحو مكتب الاستقبال. دونت الفتاة الجالسة اسمه، ثم سألته:

- جاي لإيه النهارده؟

فأشار إلى جسده كله متفاخرًا بذاته ونطق بلسانٍ معوج كفتاةٍ متقصِّعةٍ قائلًا:

- ليزر "For full body hair removal".

وبعد أن انتهى ودفع المال، تحرك نحو غرفة الجلوس، فاختار كرسيًّا واستكان عليه، ثم وضع القدم على الأخرى كسيدةٍ حسنة المظهر، وتفقد المكان بعينيه، ليُبصِر أمامه شيخًا وبجواره سيدة منتقبة. ابتسم لهما فتجاوزاه بأعينهما. حينها رنَّ هاتفه المحمول باتصالٍ من صديقه الحميم، فردَّ عليه بتقصُّع وبغير انضباط في أثناء اهتزازه قائلًا:

- أيوه يا حبيبي.

وضحكَ بصوتٍ عالٍ خليع، ثم أكمل:

- لا بتهزر!

هنا انتبه الشيخ وحنَقَ مما تراه عيناه، فقال مناجيًا ربَّه:

- أستغفر الله العظيم!

سمعه (فارس) فعلَت ضحكاته الساخرة، فعلَا الشيخ باستغفاره ثم سحب زوجته من يدها وولجا إلى غرفةِ انتظارٍ أخرى. تصنع (فارس) أنَّ شبكة هاتفه المحمول قد تشوَّشَت وتظاهر بعدم القدرة على السماع، ليقوم من مجلسه، ثم ذهب نحو الغرفة التي ولجَ إليها الشيخ، وجلس على الكرسي الذي بجانبه، ثم أغلق الهاتف ودسَّه في جيبه وقال موجهًا حديثه إلى الشيخ:

- الأوضة اللي هناك الشبكة فيها زي الخره.

ثم انتقل بنظرِه إلى السيدة المنتقبة متابعًا:

- مش كده يا مدام؟!

انفعَل الشيخ وعلا صوته حتى كادت تنفجر عيناه لشدة الغضب:

- والله ما في خره غير...

رفعت زوجته يدها إلى فمه تكتمه حتى لا يُكمِل حديثه، ثم همسَت بصوتٍ خفيض:

- بس! احنا في عيادة.

ابتسم (فارس) كأنه يتلاعب على أوتار الثبات لدى الشيخ، ثم استطرد حديثه ليزيد حنقَه:

- عندك حق يا شيخ، بقينا عايشين في مجتمع صعب جدًا، مفيش حد هنا بيتقبل الرأي الآخر، فعلًا كله خره.

هدأ الشيخ من روعه وحاول التماسك، ثم التمسَ في حديثه شيئًا يؤكد ما رأته عيناه، ليقول:

- آه، إنتَ من بتوع الرأي الآخر، والجنس الآخر! والله أنا كنت بكدب نفسي، بس كنت أكاد أُجزِم.

تجاهله (فارس) بعينيه ونظر أمامه، ثم أشار بيديه علامةً على عدم الاهتمام قائلًا:

- أجزم ولا مأجزمش، أجزم لك أنا بالله.

تلك كانت القشة التي قصمَت ظهر البعير؛ كيف يتعدى على الذات الإلهية بتلك الطريقة الفجَّة؟! ما زاد غضب الشيخ، فقال سريعًا بانفعالٍ لمَ يستطِع كظمه:

- أستغفر الله العظيم! إنتَ بتقول إيه؟!

ثم توقف على قدميه، وقال معترضًا على أسلوب حياةٍ عجيبٍ يراه بأُمِّ عينيه:

- ما إنتَ اللي زيك مبيفهمش في ملة ولا دين، وواخد كل حاجة هزار.

رد عليه (فارس) بالهدوء نفسه، دون ذرة انفعال، وقد غلبت قسمات وجهه الابتسام:

- اللي زيي ازاي يعني؟!

أخذ الشيخ سؤاله على محمَل الجِد، ولذلك ردَّ شارحًا:

- دي حاجة إنتَ بقى اللي عارفها عن نفسك، مش إنتَ قولت مجتمع مبيتقبلش الرأي الآخر، مسألتش نفسك هو ليه المجتمع مبيتقبلش الرأي الآخر؟!

وضع (فارس) القدم على الأخرى، ورمق بعينيه الشيخ مُتوعِّدًا إياه بنظراته، فتفنَّن في إلقاء أسئلته بعناية:

- إنتَ شيخ قدامي، وتفقه في الدين.. قل لي ليه المجتمع مبيتقبلش الرأي الآخر؟

في تلك اللحظة، على الرغم من ثبات (فارس) فقد غلبه فضوله، يريد معرفة رأي الشيخ فيه، ولذا يحاول استفزازَه بكل طريقةٍ ممكنة ليسمع ردَّه، ورغم أنه قد يؤلمه، فإنه استمع إلى ما يقول بتأنٍّ:

- والله على حسب، إذا كان الرأي ده بيقبل النقاش أو لا يقبل..

توصَّلا معًا إلى لحظة الفصل، هنا الشيخ على وشك إلقاء محاضرته، و(فارس) على وشك الوصول إلى مبتغاه، فتساءل الأخير بصوتٍ هادئ رزين:

- طيب هو إيه المقياس أصلًا؟!

أدركَ الشيخ ما يدور في خُلدِه؛ هذا الشاب يحتاج إلى مَن يتحدث معه، يحتاج إلى معرفة آراء الناس فيه، يحتاج إلى النصيحة، أو ربما يحاول فقط مُجاراته الحديثَ ليس إلا، حتى لو لم يُغيِّر من مُعتَقَده شيئًا. ولذلك هدَّأ الشيخ نفسَه وتمالَك أعصابه، ثم التقط نفسًا عميقًا وجلس مكانه، ونظر في وجه (فارس) مُتصنِّعًا الابتسامة، إذ إن عيناه تتحاشيان النظر إليه، ثم قال:

- من غير نقاش فلسفي كتير، وكلام علماء، وآيات قرآنية وأحاديث، أو حتى كلام من أي ديانة تانية..

سكتَ للحظاتٍ يستجمع فيها أفكاره، ثم ألقى بِكمَته بذكاءٍ وثبات:

- ولنفترض إن فيه مصنع بيصنع سكاكين حامية وحلوة، وليها كل أنواع الفاكهة والخضار علشان تتقطع بيها، راح واحد اشترى سكينة منهم، ومسكها وقعد يكنُس بيها الشارع، الناس هتبص له ازاي؟ هتشوفه أهبل ابن أهبل.. السكينة مصنوعة كده، علشان نقطع بيها، مينفعش نبدل سبب صنعها بحاجة مش هتنفع أصلًا، مش هيبقى ليها غاية، ولا ليها مبرر.. قُل لي بقى إنتَ، ينفع تاخد سكينة وتكنس بيها شارع؟!

بعدما أنهى الشيخ حديثه، انتظَر رد (فارس) عليه، إلا أن الأخير ألبَسَ ملامحه رداءَ العبوس، وأنزل قدمَه المرفوعة عن أختها، ثم رمقه بغضبٍ دفين، وتحامل حتى وقف وخرجَ من الغرفة عائدًا إلى الأولى، متحاشيًا إياه بالكامل كأنه غير موجود، لكن عقله لم ينسَ من كلام الشيخ -الذي اقتحم كل مشاعره وآلمها دفعةً واحدة- حرفًا واحدًا، بل أشعل في أعماقه حربًا فكريةً كان قد أخمدها مع فطرتِه -التي جُبِل عليها- منذ سنين.

****

في ليلٍ مهيب، وسْط المباني الشاسعة الارتفاع، وبين غموض أفكار البشر المريب، وفي الوقت الذي تتستَّر فيه العقول على ما تشعر به في هدوء، توقفت سيارة (يزن) ابن (إبراهيم) أمام إحدى البنايات، فخرج (يزن) منها وبجانبه شخصٌ تبدو على وجهه علامات الاستغراب، ودلفا من باب البناية، ثم استقلَّا المصعد قاصدَين شقةً بعينها في أحد الأدوار، ففتحها (يزن) وولجا إليها معًا..

شقةٌ واسعةٌ ذات مساحةٍ تكاد تُماثِل مساحةَ قصر، مكونةٌ من ستِّ غُرَف، كل غرفةٍ لها أربعة أسِرَّة وأكثر من خمسة حمامات، وقد احتوَت الشقة كلَّ أنواع الترفيه؛ شاشاتُ تلفازٍ في كل مكان، أجهزةُ كمبيوتر، طعامٌ يكفي مؤونة أعوام، فاكهةٌ طازجة وأخرى عَطْبة وبعضها قد غزاه العفَن مُلقاةٌ هنا وهناك، خمورٌ تغرق المكان، ومخدرات من كل صنفٍ ونوع..

لم تكن الشقة فارغة، بل بها أكثر من عشرين فردًا من كل الأعمار يمارسون الحرية بكل صورها، هنا من يشرَب الخمر، وهناك من يشُم البُدرة، وثالث يدخن الحشيش والميرجوانا، ورابعًا يشاهد أفلام إباحية، وخامس يتحدث مع غيره في الهاتف وقد خرج حديثه مريبًا غريبًا يمس الذاتَ الإلهية! كأن شيطانًا يُحرِّكهم، هناك من يجلس عاريًا، وآخر يفعل أشياء قبيحة، وآخر يجرح يده، وآخر يُهندِم ملابسه..

ولج (يزن) من باب الشقة في أثناء تفحُّص الشاب وضعَ الشقة وحالَ ساكنيها، وقد هاب الأخير الدخول في بادئ الأمر، لكن الأول صار يحثه على الدخول ويشجعه بسحبه من يده وهو يقول:

- ادخل "Dude" متتكسفش.. هي دي بقى الـ"Without name"، كل واحد هنا عايش في العالم الخاص بيه، "You can make your own"..

وبعد أن دخل فاندمجَ مع الموجودين، أقدمَ أحد ساكني الشقة نحو (يزن) متسائلًا:

- مين ده يزن؟

ردَّ (يزن) وهو يفردُ ذراعيه عن آخرهما في أثناء التقاطه نفَسًا عميقًا:

- ده الـ"New free bird".

ثم اعتدل وأشار إلى الرجل في أثناء قوله:

- جمَّع لي الناس، عندنا اجتماع للعضو الجديد.

نفَّذ الرجل على الفور، فجلسوا جميعًا في صالون الشقةِ الواسع على كراسيَ مرصوصةٍ بعناية، ووقف (يزن) أمامهم يشير إلى الشاب الجديد قائلًا:

- عندنا "New free man" النهارده وهو محمد..

ثم بدأ في الشرح بدقةٍ عاليةٍ موجِّهًا نظره إلى الجالسين حتى لا يفوتَ العضو الجديد شيئًا، وقد ركز في حديثه على كل ما هو مُهِم:

- طبعًا هو لسه مش عارف أي حاجة، داخل هنا غريب، يا ريت كل الناس تساعده ومتعرفهوش أي حاجة، لأنه دلوقتي زي طفل جديد، مولود النهارده، سيبوه يعرف، يحس، يلمس، يميز، اوعوا حد يقول له وجهة نظره، لأن دي في حد ذاتها اختراق للحرية الخاصة بيه.. مفيش سياسة، مفيش قواعد..

ثم نظر إلى (محمد) العضو الجديد، فابتسم في وجهه وأردف:

- مفيش "Line" تمشي عليه، ومفيش حد هيوجِّهك.. عاوز تعمل أي حاجة اعملها، لو هتوصل إنك تخرج فضلاتك على واحد من اللي قاعدين، محدش هيعترضك، ولا حد هيرفض.. كل ده علشان توصل.. توصل لأيه؟ وإيه سرعتك واستيعابك؟ ده اللي إنتَ هتقدر تحدده.. اوعى تفتكر إن احنا جماعة أو لينا مسمى، بالعكس، احنا النقيض لكل حاجة ممكن تكون فاهمها دلوقتي.. السبب الوحيد اللي خلانا نتجمع، إن احنا فاهمين، وفاهمين قوي، وإنك تتجمع معانا فده معناه إنك فاهم.

ثم ربت على كتفه، ليبتسم (محمد) ويبادله الجميع الابتسامة نفسها مُرحِّبين به، وقد تفاخروا بذاتهم لزيادتهم شخصًا آخر مقتنعًا بفِكرهم وفِكر (يزن) الذي لا يهدف إلى أي شيءٍ سوى.. نشر الإلحاد.

****

- ميساويش غير فرخة وإزازة مَيه من الكبيرة، وبكده أكون عامل معاك واجب يا أستاذ فهيم..

قالها المعلم (سيد) صاحب نصف عقارات منطقة الأباجية بحي السيدة عائشة، والذي كسدَت تجارته بعد تلك الواقِعة المأساوية التي انهارت بسببها البلدة، وقد وقف أمامه الأستاذ (فهيم). رجلٌ في عقده الخامس، محاسب سابق في شركةٍ كبيرة، وعاطل عن العمل حاليًّا، يبحث عن طعامٍ وشرابٍ يعينه على المعيشة هو وأخته المريضة بالقلب، والتي تقطن معه لعدم زواجه حتى بلغ سنه هذه. نظر (فهيم) إلى حُجَّة (عقد) البيت التي تقبع في يده، امتلأت عيناه بدمعٍ يأبى السقوط، فحاول تمالُك نفسه، ثم نظر إلى المعلم (سيد) قائلًا:

- ماشي يا معلم، بس اديني فرصة لحد بكره أسيب البيت.

ابتسم (سيد) للقرار الذي اتخذه (فهيم)، إلا أنه لم يكن يعلم في قرارة نفسه إذا ما كان كاسِبًا أم خاسرًا؛ هو يملك مخزنًا به بعض الطعام والشراب ويحاول مساعدة الناس عن طريق الاستحواذ على عقاراتهم مقابل القليل مما يُبقيهم على قيد الحياة ليومٍ واحد. ولا حيلةَ له فيما يفعله، يعتقد أنه يفعل الصواب تقرُّبًا إلى الله، فهو يعرف جيدًا أن العقارات لا قيمة لها في هذا الزمان، ولكنه ينظر إلى مستقبلٍ من الممكن أن يتبدل، ويعود الزمن كما كان..

تناول عقدَ البيت من (فهيم)، ثم أخرج قلمًا من جيبه، وأشار إلى خادمه بإحضار زجاجة الماء والدجاجة كما وعد، ثم نظر إلى المغلوب على أمره قائلًا:

- استلم حاجتك يا أستاذ فهيم، ووقع لنا هنا لو تسمح.

أمسك (فهيم) القلم بيدٍ مرتعشة؛ لم يتصور يومًا أنه سيبيع منزله، ناهيكَ عن الثمن البخس الذي حصل عليه في المقابل. فكر للحظات عن مكانٍ يبيتُ فيه ليلته القادمة، وفكر في أخته المريضة، لكنه لم يستطع هزم ظروفه التي نهرَته، ولذلك خضَع فوقَّع، واستلم زجاجة الماء والدجاجة بلهفةٍ غير مصدق، ثم قام من كرسيه راحلًا، ليسمع صوت المعلم (سيد) محذرًا:

- بكره يا أستاذ فهيم.

أشار إليه (فيهم) برأسه علامةً على الموافقة المكسورة. توجه إلى المنزل فرحًا، فأخته لن تصدق ما أحضره معه، مشى حاضنًا الزجاجة والدجاجة ومُقرِّبًا إياهما إلى قلبه، ودلف إلى أحد الأزقة، سار مبتسمًا رغم القسوة التي يعيش فيها، يفكر فقط في وجه أخته حين تراه ومعه سبيلٌ للحياة في يده..

لحظات مرت وهو يسير على قدميه المرتعشتين الضعيفتين على طريقٍ أعرج في حارةٍ جانبية، وفي أثناء غرقه في عمق أفكاره، صُدم بغتةً بشيءٍ في وجهه، فسقط أرضًا وانقلبت أرضه إلى سماء، وظلت عيناه زائغتان حتى هدأ اهتزازهما، وكُشِف له مجموعةٌ من الرجال

ممسكين عصِيًّا خشبيةً في أيديهم، وقد ضربه أحدهم في رأسه لتوه. فانتبه لما سيحدث على الفور، وزحف سريعًا نحو زجاجة الماء والدجاجة التي سقطت أرضًا فتغبَّرت بالتراب والعفن، حضنهما ونام عليهما وصدَّرَ لهم ظهره، فانهالوا عليه بعصيِّهم ضربًا حتى كُسِرت ضلوعه، ولم يبعَث صراخه المكتوم إلى الجدران من حوله إلا لحظات انكساره. حاول أن يفدي أشياءَه بروحه، لولا أن ضربه أحدهم في يده ضربةً غشيمةً كسرت ذراعه، فسقطت الدجاجة أرضًا، وتابعها بعينيه حتى سحبها أحدهم بين يديه فرِحًا غير مصدق، وكاد يصعد معها ببصره، ولكن جسده وآلامه حالَت دون ذلك، فصرخ بصوتٍ عالٍ وحاول حماية زجاجة الماء، ولكنهم انهالوا عليه ضربًا وقد بدا أنهم لن يتركوه إلا بعد أن ينهشوا آخر ما لديه من قوت.

تقلَّب بجسده فوق الزجاجة، ليجُرَّه أحدهم من قدميه، فانفتحت الزجاجة دون قصد، وهُدِر نصفها، فانهمر الدمع من عينيه وهو يرى الماء يجري على الأرض فتتشربه، وصرخ بصوتٍ عالٍ مهول تلك المرة، في حين سارع الرجال بالتقاط الزجاجة بما تبقى فيها، وركضوا جميعًا تاركين جسده الضعيف الذي يحارب الموت، وروحه التي تتحرك في نفسه متألمةً تعافر للخروج..

زحف أرضًا، والدموع تتسابق على النزول من عينيه، بلغ منه الألم مبلغًا عظيمًا وشعر بأن عظامه كلها قد تهشمت، إلا أنه اقترب من الماءِ المسكوب أرضًا، فلاصَق وجهه بالأرض، وأخرج لسانه بصعوبةٍ بالغة، ثم أخذ يلحس الماء، ليتكوم التراب والطين في حلقه، فانقلب لينام على ظهره متألمًا شاعرًا بألمٍ مهول، ثم نظر إلى السماء، وصرخ بصوتٍ تناهى إلى مسامع أهل البلدة كلها.

****

«العالم مليءٌ بالأفواه المُثرثِرة، والعقول الفارغة،
والعيون التي تودُّ أن ترى ما لم ترَه من قبل.. وكل هذا،
يحتاج فقط إلى إنسانٍ صاحب إرادة، ويستطيع أن يتقدَّم
إلى الأمام، فيَستغل ما هو موجودٌ ليُستغَل، حتى يصل
إلى درجةٍ من العُلوِّ يستطيع بها السيطرة على إرادةِ
الآخرين، بقليلٍ من كلامه المعسول، وعباراته الساحرة..
أستطيع أن أكون مِلكًا، سواءٌ بمساعدتك أو بموافقتِك
على أخذي لهذا أو بدون.. ما كان لإنسانٍ يسعى إلى
تحقيقِ شيءٍ أن تقع فرصةٌ في مصيدته ويتركها
لتتلاشى»

الأرقم إلى السامري

بين الخطأ والصواب..

في ممرٍّ ضيق مفروشٍ بذرات التراب المتكدسة فوق الموجودات، وفي ظل رائحة العفن التي تُعبِّئ المكان، بقاعةِ أفراحٍ نادرًا ما تسعَد بعُرسٍ، إذ إن عدد المناسبات التي تُقام فيها خلال السنةِ قليلةٌ جدًّا وتكاد تُعَد على أصابع اليد الواحدة، وإن أُقيمَ حفل زفاف فإنه يكون لعائلةٍ فقيرةٍ لا تملك من المال الكثيرَ لإقامةِ عُرسٍ فخم، إذ تتجه إلى قاعة «اللؤلؤة» لسعرها المنخفض، دون الالتفات إلى مستوى الخدمة المعدومة فيها، ولا الديكور القديم، ولا المكان الردئ أو المشروبات العفنة. سلك (كيرلس) عامل البوفيه الممرَّ على قدميه الضعيفتين، يرتدي حُلةٌ قديمة. هو شابٌّ في السابعةِ والعشرين من عمره، قانِطٌ من الحياة، يحيا فيها كشجرةٍ تالفةٍ أُصيبَت ثمارها بالآفّاتِ فلم يعد يقربها أحد، يعيش فقط حتى تمر الأيام ويحين ميعاد اللقاء الأخير..

انتهى الممر الذي ارتصَّ على جانبيه بضع غرفٍ بلا أبواب، مفتوحةٌ على الإطلاق، وإن كان لبعضها باب فإنه يكون رفاتًا، لم تحوِ تلك الغرف أي أشخاصٍ أو دلائل على أحياءٍ بها، فقط التراب والعفن يجوبها من كل اتجاه..

وقف أمام غرفةٍ ذات بابٍ مُهدَّمٍ خرِب، فولجَ إليها، ليتجلى أمام بصره (إبراهيم) بلحيته الكثيفة وشعره الطويل، ذلك الموظف الخمسيني الذي يجوب الأرض ليسد بطن ابنته وزوجته، الضعيف الذي لا يقوى على شيء، ورغم ذلك بغيض والبُخل يجري منه مجرى الدم..

وجده يَفترِش المكتب مرتديًا نظارته وحوله كومةٌ من الورق البالي، وبجانبه خَزنةٌ بها بعض الأموال القليلة، فهو موظف الحسابات المسئول عن تسليمِ العمال مرتباتهم، والوحيد العامل في المكان.

رمقَ (إبراهيم) (كيرلس) داخِلًا إليه، فحدَجَه بنظرةٍ ثاقبةٍ من أسفل نظارته، حينها ناوله (كيرلس) سيجارةً وهو يقول:

- صباح الخير يا عم إبراهيم.

التقط (إبراهيم) السيجارة، دقق فيها قبل أن يقول آنفًا:

- صباحك مطفي، فين الولاعة اللي خدتها مني من ١٣ يوم ومن ساعتها مشوفتكش؟

جلس (كيرلس) على الكرسي القابع أمام المكتب، ضعيف متهالك ويبدو عليه الكِبَر، ثم قال غير مُبالٍ:

- إنتَ لسه فاكر يا عم إبراهيم، دي زمانها اتحللت! كل حاجة دلوقتي بقت تتحلل.

ترك (إبراهيم) الورق الذي يعبث فيه من يده، ثم دسَّ السيجارة في جيبه وسلط عليه ناظريه قائلًا بخُبث الماكرين:

- لا دي بلاستيك، مبتتحللش، بتنزل وبتسقط في حاجة، يا في جيب يا في علبة سجاير.

صاح (كيرلس) بصوتٍ عالٍ معترضًا، وحاول وصفَ حاله في كلماته التي تنبض ألمًا:

- والمسيح الحي ما في غيرها أهي وبديهالك، يا رب بس ترضى عني وتخلصني من اليوم ده.. باجي عندك بحس إني باخد ٨٠٠٠ جنيه في الشهر.. دول كلهم ٦٨٤ جنيه يا عم إبراهيم!

أخرج (إبراهيم) ورقةً من درج المكتب، قلب فيها، ودقق النظر قبل أن يقول:

- لأ، ٦٧٣ جنيه، عندك خصم ١١ جنيه علشان كسرت كُباية..

زفر (كيرلس) بالضيق المرير وقد صُعِق مما سمِع، ثم صاح معترضًا:

- هي الكُباية بـ١١ جنيه؟! هات ٢٠ جنيه وأجيب لك ٦.

تجاهله (إبراهيم) وتابع عبثه في الورق وهو يقول:

- نوع عن نوع يفرق يا خفيف.

ثم أخرج ورقة، في حين ظل (كيرلس) يشعر بالحنق يتملَّكه بسبب دخوله إلى ذلك المكان البغيض. مدَّ (إبراهيم) إليه الورقة ومعها قلمٌ قائلًا:

- امضي..

تسلمها (كيرلس)، واحتوى القلم بين أصابعه وشرع في كتابة اسمه، في أثناء قول (إبراهيم):

- وبعدين ما إنتَ بتاخد زيهم في نص الشهر، إيه مش معيشينك؟! ده غير البقشيش.

انتهى (كيرلس) من التوقيع، ثم نظر إلى (إبراهيم) ضاحكًا بتساؤل:

- إنتَ روحت سيتي ستارز قبل كده يا عم إبراهيم؟

مد (إبراهيم) ذراعه نحو خزنة الأموال، فسحب المبلغ الذي سيتسلمه (كيرلس)، وقد عدَّه قبلًا وجهزه ليعطيه إياه عند وصوله. وبالفعل، تناوله منه (كيرلس) في أثناء رده عليه:

- لأ، بس بنتي راحتها وهي في إعدادي وجت دايخة من الدودة.

انفجر (كيرلس) ضاحكًا وهو يعد المال الذي تسلمه للتو، ثم قال:

- دي مش ملاهي، ده مول! أقل حاجة فيه أغلى من حياتي وحياتك، وحياة صاحب المكان اللي بيقبضك.

ولما انتهى من العد، نظر إليه آنفًا ومد المبلغ إليه مرةً ثانيةً قائلًا:

- دول ٦٦٥ جنيه! خد عد.

دسَّ (إبراهيم) رأسه في الأوراق القابعة أمامه تشكو ربها منه، وأشار إليه بأن يعيد ماله إلى جيبه وعلَّل بقوله:

- ما أنا عارف إنهم ٦٦٥ جنيه؛ ناقصين ٨ جنيه، تمن الولاعة.

صاح (كيرلس) بأعلى صوته ناظرًا إلى الثعبان الماثل أمامه، والذي لو أتيحت له فرصةٌ لنهشَ لحمه حيًّا جراء شُحِّه المَقيت:

- ما أنا مدي لك سيجارة!

نظر إليه (إبراهيم) مُربِّعًا يديه على مكتبه، ثم قال ليُنهي هذا الحديث الممل:

- الولاعة بـ١٠ جنيه، والسيجارة بـ٢ جنيه، نقَّصتهم لك.. ويلا شوف رايح فين علشان ورايا شغل.

ثم عاد ببصره ليغرَق في أوراقه التي لا تحوي أدنى شيءٍ مهم، فخرج (كيرلس) من المكتب مُمتَعِظًا ومِلء قسمات وجهه الغضب والنفور، فيما أخذ لسانه ينهال بالدعاءِ

عليه. مشى وتركه وحيدًا في مكتبه العفن، وما إن تجاوز الممر، حتى أبصر عامِلًا آخر على وشك الدخول ليأخذ دوره في تسلُّم مهيته، فرمقه بحسرةٍ على ما سيُلاقيه في الداخل.

****

قوم ثمود..

في ليلٍ عامرٍ بالصمتِ المهيب، وفي كوخٍ ضخمٍ يسكنه أحد عمالقة قوم ثمود، (قدار ابن سالف) الجبار العتي الكافر المغرور، أشعل نيرانًا وقلَّب فيها خروفًا يشويه ليستلذ بلحمه هو والجبابرة الجالسون معه، ثمانية آخرون لا يؤمنون بـ(صالح) نبيًّا، وبغضوا الناقةَ التي تُشارِكهم مشرَبهم..

القرية كلها تروي عطشَها من بئرٍ واحدة، وبعد أن جاءهم (صالح) بمعجزته، تقاسمَت معهم نصيبهم في الشرب، يومٌ لها ويومٌ لهم، وفي اليوم الذي تشرَب فيه يشربون هم لبَنها، إذ تكون قد شربت ما جادَت به البئر كله. وقد فاض الكيل بـ(قدار) فقرر الخلاص منها، إذ لن يقبلوا العيش مقيدين لأجل أنا تنعَم الناقة بنصيبهم بعد الآن، تلك المعجزة البغيضة في نظره، وكرهه لـ(صالح) قد سوَّدَ قلبه..

نظر (قدار) إلى المجتمعين في خيمته، فرسان أشداء يستطيعون النيل من أعتى المحاربين، وأكثر المفسدين في القرية..

قلَّب الخروفَ على ناره مستمتعًا بحرقه في أثناء قوله:

- لأول مرةٍ أبصر في قوم ثمود ضعفًا تملك منهم حتى خرُّوا راكعين، بعد أن تحاكَت عن قوتنا القرى المجاورة فهابوا مواجهتنا وقدموا لنا الولاء والطاعة والقرابين.. الآن نحن مذلولون أسفل أقدام ناقةِ صالح الأربعة، ولا حيلة لنا.. نُقِلت الأخبار إلى أعدائنا، وتلاعبت

الألسنة بالحديث عن ضعفنا، نحن العمالقة الجبارون، نخشى من ناقةٍ تحرِمنا من نعمة الماء كأننا مساكين!

بعد أن أنهى حديثه، رفع أحدهم سيفه وصاح قائلًا:

- خُذ قرارك وسيفي فداك.

توقف (قدار) على قدميه، ونظر في أعينهم جميعًا، ثم قال بصوتٍ جهور:

- قراري سيُنفَّذ الآن، نتحرك معًا ونقتلع رأسها، وبعدها نقتُل صالح وننهي هذه المهزلة.

خرجوا جميعًا حاملين الأسلحة خلفَ (قدار ابن سالف)، حتى وصلوا إلى الجبل الذي انشقَّت منه تلك المعجزة الإلهية، والتفوا حولها جميعًا. فتنقلت الناقة بعينيها المرتعدتين يمينًا ويسارًا تبحث عن مخبأ لها، وقد أدركت بفطرتها نواياهم، وكادت تركض لولا أن أصابها أحدهم بسهمٍ في قدمها أرداها أرضًا، فانتهز (قدار) الفرصة وهجم عليها وذبحها بسيفه..

وقد كان لتلك الناقة ابن، ركضوا خلفه محاولين قتله، فانشقت الصخرة وابتلعته، ورغم أن المعجزة بانت جليةً وما زالت حاضرة، فإن (قدار) ومن معه شعروا بالفخر لما انتهوا -في اعتقادهم- من تلك الكارثة التي حلَّت عليهم، وعادوا جميعًا متباهين أمام قومهم بذبحهم ناقة (صالح)، إذ غواهُم (قدار) قبلًا، وكانت تلك هي النتيجة، تخلَّصوا من آيةِ الله لهم.

****

بين جنبات مطعم (إبراهيم) المتمركز في وسَط البلدة، وبينما الحضور مشغولون بطعامهم وشرابهم وضحكاتهم مع عائلاتهم وأحبابهم، جلس (إبراهيم) منطويًا إلى طاولته التي تبعد عن ضجيج المطعم، منهمكًا في أمرٍ ما على جهاز الكمبيوتر المحمول خاصته،

ويبدو عليه التركيز بكل ما يملك من انتباهٍ في المحتوى الذي تعرضه له الشاشة. وأمامه جلس المستشار ذو الصيت العظيم في البلدة (سعيد حجازي)، ممسكًا بشيشته يفترسها بين شفتيه، رجلٌ خمسينيٌّ ذو نفوذ واسع، صديق (إبراهيم) كغيره من الناس المهمين في البلد، إذ إن لدى (إبراهيم) علاقاتٌ على نطاقٍ واسعٍ بكل المسئولين عن حركة البلد اقتصاديًّا وسياسيًّا في هذا الاتجاه أو ذاك.

طال الصمت لبضع دقائق حتى شقَّه (إبراهيم) -وهو ما يزال في غمرة تركيزه- بقوله:

- جدع يا عوني، كده أنا أحبك.

سحب المستشار (سعيد) كرسيه ليستكين بجانب (إبراهيم)، ثم دقق في الشاشة، ليُصعَق اندهاشًا قبل أن يتساءل:

- مش ده عوني أبو جريشة نائب رئيس الجمهورية؟

رد (إبراهيم) برتابةٍ غير ملْتفِتٍ إليه والابتسامة تغزو محياه:

- هو.

ضرب التعجب عقلَ (سعيد) حتى كاد يتلفه، ثم نظر إلى (إبراهيم) وقال ووجهه يعلوه الاستغراب الشديد:

- يخرب بيتك! ازاي قدرت تعمل كده يا إبراهيم؟!

التفت إليه (إبراهيم) بوجهٍ جامدٍ مُقبِض، ثم سحب «لَيَّ» الشيشة من يده وسحب منه نفَسًا قبل أن يقول مفاجئًا إياه:

- مفيش حد في البلد دي ملوش سيديهات عندي، الطفل في بطن أمه بيتولد له سيديهات عند إبراهيم.. إنتَ نفسك سيديهاتك وفضايحك كلها عندي..

جحظت عينا (سعيد) وفُغِر فاهُه، كاد يفقد وعيه مما سمِع، وتراقصت أمام عينيه كل لحظات الفِسق التي عاشها في حياته، والأخطاء التي ارتكبها، وهُيِّئ له أن (إبراهيم) يعلَم بها أكثر منه. كاد يتحدث لولا أن لسانه انعقَد غصبًا، فلاحظ (إبراهيم) اندهاشه وقال ضاحكًا:

- أيوه متَّنحش، سيديهاتك عندي، ويلا أقعدلك على ترابيزة تانية علشان دي أسرار ناس مينفعش تشوفها.

علامات الذعر تملَّكت (سعيد) الذي حاول أن يبدو طبيعيًّا لكنه فشل، فنفذ على الفور طلب (إبراهيم)؛ ليس خوفًا، لكنه أحس من دواخله أن الصاعقة التي أصابته على وشك أن تفقده وعيه، ولذلك رحل..

أخرج (إبراهيم) هاتفه المحمول من جيبه، فضغط بضعةً من أزراره ليُجري اتصالًا مع ابنه (أدهم)، وما إن ردَّ صاح قائلًا:

- فيه قدامي حتة لايف بتفرج عليه، هيعجبك، ما تجيلي نتفرج سوا..

أتاه الرد من الجهة الأخرى يكسوه الضحك والتعجب:

- إنتَ مبترحمش؟!

انفجر (إبراهيم) ضاحكًا بدوره، ثم قال في أثناء نوبةِ ضحكه:

- لأ.. ما تسيبك من إنتاج أفلام المهرجانات الهابطة بتاعتك دي وتكبر شوية.

فاخترق صوت (أدهم) أذنيه من الجهة الأخرى بتساؤله:

- عاوزني أعمل إيه يعني، آخد الأفلام اللي بتصورها للسادة الوزراء والمستشارين وصفوة المجتمع وأنتجها وأعرضها في سينمات الوطن العربي؟!

التقط (إبراهيم) نفسًا ثم استراح في جلسته وقال:

- مش بالظبط كده، بس هي نفس الفكرة؛ مواقع النت كتير، تقدر تجيب كام بنت ركلام يكونوا حلوين، وتعمل بيهم شوية أفلام وتنزلها، هتمسك التراب يتحول دهب، شعب بلدك تعبان، لما هيصدق..

استمع (أدهم) بعنايةٍ قبل أن يقول مُعلِّقًا:

- ما إنتَ قُلتها في الأول، مواقع النت كتير..

تابع (إبراهيم) التقاط الأنفاس من الشيشة والمُحمَّلة بالأدخنة السامة، ثم زفرها في أثناء قوله:

- هدعمك، وهخليك تريند أول في الوطن العربي كله.

تساءل (أدهم) بعد أن استمع إلى كلمات أبيه:

- ازاي بقى؟!

ترك (إبراهيم) «لَيَّ» الشيشة وهو ما يزال يتفرس الشاشة أمامه، وقال:

- هيكون أول موقع ينزل فضايح الفنانين والمشاهير ورجال السياسة التُقال "حصري"، وقتها الفيو عندك هيكون عالي جدًا، وكل فترة هظبط لك فضيحة شكل، وفي وقت قليل جدًا هتبقى رقم واحد في السيرش بتاع جوجل، وأهو بالمرة تكون وسيلة نضغط بيها على الناس دي.

ضحك (أدهم) رغم التماع الفكرة في عقله، ثم رد مبتسمًا:

- أوعدك أفكر.. وبعدين إنتَ كل السيديهات اللي بتمسكها فيديوهات شمال؟!

نقل (إبراهيم) الهاتف المحمول إلى الأذن الثانية، ثم دقق في الشيشة فوجد فَحْمها قد تحول إلى رماد، فامتنعَ عن مناداة النادل ليُغيِّر الفحم حتى يستمتِع بما تُبصِره عيناه، وأبعد الشيشة عنه ليردَّ قائلًا:

- أبوك في جيبه البلد كلها، مش بس فيديوهات، أنا معايا أوراق توقع رئيس الجمهورية نفسه.

يعلم (أدهم) أن (إبراهيم) داهية، يستطيع الإيقاع بالدولة كلها بغمضة عين. استمع إليه، وبعدما أنهى حديثه قال:

- ربنا يبعدنا عن شرك.

ضحك (إبراهيم) وقد غلبه حسُّ الفكاهة في أثناء رده:

- أو يقرَّبك منه!

سحب الهاتف المحمول من على أذنه، وأغلق المكالمة الهاتفية، ثم وضع القدم فوق الأخرى ودقق مُستلِذًّا في تفاصيل المقطع الذي يُعرَض أمامه، ثم قال ضاحكًا مُتمتِمًا لنفسه:

- ده إنتَ طلعت شقي قوي يا عوني، ميبانش على سنك يا راجل يا عجوز!

ثم انفجر ضاحكًا، وضبط وضعية الكمبيوتر المحمول لتكون عالَمَه الوحيد، وترك الدنيا وما فيها، فجلس متفقدًا ما يدور داخل شاشته، وقد قرر التركيز حتى نهاية المقطع وهو غارقٌ في السعادة القصوى، بعد أن استطاعَ إمساك الخطأ الأول لنائب رئيس الجمهورية، ذلك المتعجرف الذي يتخفَّى تحت رداء الشرف، وها هو يتمرَّغ في أحضان إحدى الفنانات العاهرات التي وصلت إلى مجدها عن طريق التخلص من شرفها..

ولم يكن ذلك بالتأكيد محض صدفة، إذ استطاع (إبراهيم) إجبارَها على الإيقاع بـ(عوني)، وهذا بعد تهديدات منه بفَضحِها، فهو يملك القدرة على الإيطاح بها. ومَن في هذه الدولة يستطيع الإفلاتَ من مصائب (إبراهيم) التي تملأ خزنته؟!

لم يقف الأمر عند هذا وحسب، ها هو يصنع تسجيلًا حصريًّا للواقعة غير المُشرِّفة من مكانه، مُقرِّرًا حفظه، إذ بالتأكيد سيحتاجه يومًا كغيره!

****

في صباحِ يومٍ رتيبٍ كغيره، والناس يتسابقون كالوحوش في الطرقات يسعون إلى أرزاقهم، يندفعون كالنملِ في زحام السير، يركضون ناظرين في ساعاتهم محاولين استيعاب الوقت الذي ينسلُّ من بين أصابعهم كالماءِ الجاري..

قصد الشيخ (إبراهيم) محطةَ القطار السريع «المترو» وسط زحمةِ الأجساد المتلاصقة، قطع تذكرةَ ركوب، ووقف على رصيف المحطةِ ينتظر القطار، والذي عند وصوله دلف إليه ووقف في منتصف العربة. عندها أبصره أحد الركاب من الشباب، ودقق فيه فوجده شيخًا بلحيةٍ بيضاء كثيفة وشعرٍ ذي خصلات يختلط بياضها بسوادها طويلة مُدلَّاة من أسفل قبعته الدينية الصغيرة، فتوقف له على الفور وأجلسه مكانه ليتبادلا الشُّكر..

استكان (إبراهيم) على أريكة القطار، وإذ بجانبه شابٌّ في العشرينات من عمره بيده مصحفٌ يتلو منه القرآن بصوتٍ عالٍ ليسمعه الجالسون حوله. أنصتَ إليه (إبراهيم) لبضع ثوانٍ وأمعنَ في التركيز، حتى توقف الشاب عند إحدى الآيات، فقاطعه (إبراهيم) قائلًا وهو يوجه حديثه إليه:

- «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ».. بتخرَّج لسانك في الذال، وبتعطش الجيم، مبتقولهاش جيم، بتقولها چيم.

صدَّق الشاب باسم ربه العظيم وحدَّد مكان وقوفه في المصحف، ثم أغلقه ونظر إليه بوجهٍ باسمٍ بشوش:

- شكرًا لحضرتك، أنا الفترة اللي فاتت دي بحاول ألتزم بأحكام التجويد والتشكيل ومخارج الألفاظ، بس كتير بتقع مني.

وعلى غير المتوقع، تحوَّلت ملامح وجه (إبراهيم) فرسمَت على محياه غضبًا سحيقًا، وإذا به يقول بنبرة هجوم حادَّة:

- لا يا أخويا متقعش منك، بعد كده ابقى اقرأ في سرك مش في العلن، علشان لما واحد يسمع منك القرآن ميسمعوش غلط.

حاول الشاب الاعتذار بطريقةٍ متحضرة:

- لا طبعًا مش قصدي أسمَّع الناس القرآن غلط!

دقق (إبراهيم) في وجهه وقال مستفزًا إياه:

- أمال قصدك إيه؟!

ابتسم الشاب، ثم قال شارحًا بوجهٍ منير:

- قصدي أسمَّع الناس إن فيه قرآن بيُقرأ في المكان، فممكن واحد يطلع المصحف يقرأ زيي، وواحد تاني يكون ربنا رايد يوصَّل له رسالة على لساني فتغير حياته.

على الرغم من الهدوء الذي يُغلِّف محيا الشاب ورده الأنيق، فقد أكمل (إبراهيم) حلقةَ الهجوم، وقد جَهُر صوته حتى إن الناس حولهما شُدَّ انتباههم إلى الحديث وما يدور:

- ولما تقول له الآية دي، تقولها له غلط! وبعدين هو ربنا هيسيب علامات الدنيا كلها ويبعتها معاك إنتَ؟!

شعر الشاب أنَّ نفسَه تتهاوى، أنَّ قدرَه يتدنَّى، وأنَّ الشيخ يضمه إلى قائمة أسفل السافلين، فأنهى النقاشَ بقوله:

- حضرتك كده بتقلل مني، وأنا برفض أسلوب الحوار.. شكرًا.

ثم فتح المصحف ليكمل قراءته غيرِ عابئٍ لذلك السفيه المُهرطِق الجالس بجانبه، ليقول (إبراهيم) في استهزاءٍ متابعًا الحطَّ من شأنه:

- يا حبيبي أنا لا بقلل منك ولا من غيرك، أنا بقلل من طريقة التفكير في الدين اللي بقت مستهتِرة.. أقرأ القرآن غلط، يبقى أنا كده بوصل رسالة.. فيه أحكام، فيه طريقة، فيه أسلوب.

هنا صاح الولد معترضًا بصوتٍ جهورٍ آنفًا:

- وأنا مش مقعد خمسة قدامي بقول وهما بيقولوا ورايا، بالعكس، إنتَ لما صلحت لي قُلت لك أنا بتعلم.. الدين يُسر يا شيخ.

استمر (إبراهيم) في تعنيف الشاب كأن غايتهُ ألا يقرأ قرآن مرةً ثانية، فجاءت كلماته لاذعة، قوية، وتحمل في طياتها كل معاني الاستحقار:

- أيوه يُسر، وافضلوا يسَّروا فيه كده، لحد ما تقلعوا هدومكم كلكم وتمشوا عريانين في الشارع! كمل يا أخويا كمل.

تجاهله الشاب تمامًا، ثم فتح المصحف وأكمل القراءةَ بصوتٍ عالٍ كما كان يفعل، في حين سلَّط (إبراهيم) ناظريه عليه ولم يَحِد عنه، وتربَّص به كأنه ينتظر منه خطأً ليُحطِّم من شأنه مرةً أخرى..

توقف القطار، فدلفت فتاة إلى عربتهما، مرَّت من أمامهما وجلست في الجهةِ المقابلة، وفي أثناء مرورها رفعَ الشاب عينه نحوها دون قصد، ولما رآها عاد ببصره وغضَّ الطرف عنها، فاستغل (إبراهيم) الموقف وقال سريعًا:

- هاه! طب ما تقول صدق الله العظيم، وبعدين بص.

توقف الشاب عن القراءة وأغلق الشاب المصحف بعد التصديق باسم الله العظيم، ثم نظر في عينَي (إبراهيم) متعجبًا:

- أستغفر الله العظيم! أبص على مين؟!

وقع الشاب في مصيدته مرةً أخرى، فلفّ (إبراهيم) شباكه حول رقبته وأكمل ضربه بسَوط فلسفته المريضة:

- يا أستاذ إنتَ لو مريض نعالجك، مش واخد القرآن وسيلة لجذب الانتباه، وإنتَ أصلًا من جواك مش سليم.. النظرة الأولى لك، والثانية عليك يا شيخنا!

لم يلتفت إليه الشاب، بل سحبَ حقيبته وهو يقول له:

- لا ده إنتَ أكيد إنسان مش طبيعي!

لملم أشياءه وتحرك بعيدًا عنه حتى وصل إلى نهاية العربة، وإذا بعجوزٍ مُسِن تجاوز الستين -كان يتابع الموقف- سألَ (إبراهيم) متعجبًا:

- هو في إيه يا شيخ؟

فصاح (إبراهيم) بصوتٍ عالٍ، ليسمعه كل من في العربة، وتفوه بكلماتٍ كالصخر يرميها من فمه:

- الراجل الطيب قاعد بيقرأ قرآن وهو من تحت بعينه عمال يبص على النسوان وهي قاعدة..

لفتت كلمتُه الأخيرة انتباهَ سيدةٍ أربعينةٍ جالسةٍ بالقُرب، مما جعلها تقول في استغراب:

- نسوان!

تنبَّه (إبراهيم) سريعًا وأبدى اعتذاره بقوله:

- معلش يا حاجة، حريم، لساني فلت مني..

ثم علا بصوته حدَّ السماء، ونظر إلى الشاب الذي تركَه ورحل، ووجه حديثه إليه على مرأى ومَسمَع من الجميع:

- ابقى غُض بصرك الأول قبل ما تفكر في الحسنات اللي إنتَ عاوز تاخدها من القرآن، ده لو إنتَ عاوز تاخد حسنات، مش بتدور على لذة دنيوية منه.. أستغفر الله العظيم..

ثم أخذ يتمايل في جلسته يمينًا ويسارًا ليكتسي برداءِ الوقار والخشوع، في حين تابعه الناس بانتباهٍ وصلَ إلى أشُدِّه، إذ بدا كأنه سيلقي خطبة، وبالفعل علا صوته متحدثًا:

- العبادة في السر أفضل كتير من إن أنا أعلنها وتبقى تصرفاتي على النقيض منها، يعني مثلًا حاطط في صباعي سِبحة إليكترونية وما بين صوابعي التانية فيه سجارة، أي نعم لسه مفيش حاجة حازمة إن السجاير حرام، بس أهو فيها شك.

خرج صوت شابٍّ في التاسعة عشرة من عمره، يرتدي قبعةً على رأسه وملابسه تتماشى مع الصيحة الجديدة، موجهًا حديثه إلى (إبراهيم):

- إيه ده! هي السجاير مش حرام؟

التفت إليه (إبراهيم)، وقال بصوتٍ ودودٍ مبتسمًا في أثناء اهتزازه:

- هي أقاويل، في مجموعة بتقول حرام ومجموعة بتقول مش حرام.. فا إنتَ بتاخد الرأي اللي يعجبك، ومنك لربنا بقى..

التفت الشاب إلى صديقه الواقف بجانبه، ولكزه في كتفه وهو يقول:

- شوفت، أهو شيخ وبيقول مش حرام، متفضلش تصدعني بكلامك بقى!

كاد (إبراهيم) أن يكمل خطبته لولا توقُّف القطار بغتة، ولما التفت ليرى اسم المحطة، وجد أنها وجهته، فاندفع وقام من كرسيه راكضًا وتجاوز الباب قبل أن ينغلق بسرعةٍ مهولة..

وقف للحظات بعد نزوله من عربة القطار يتابع نظرات الناس التي لم تتركه، ثم أخرج السبحةَ من جيب جلبابه، ومشى يُتمتِم بالتسبيح متلاعبًا بلسانه ذاكرًا اسم الله، في حين تربَّصت نظراته الثاقبة بكل من يمر بجانبه يتفحصه، كأنه يحثهم على النظر إليه ليُقدِّروه فيعرفوا أنه شيخٌ زاهدٌ ولا يهمه من أمر الدنيا شيء ويعمل فقط لآخرته!

****

وقف بجسدٍ مُنحنٍ، تخفَّى خلف حطام جدارٍ متآكلٌ نصفه في منطقةٍ متطرفةٍ تُصنَّف مقلبَ قمامة، فردَ ذراعيه أمامه، ثم ضغط زنادَ مسدس سكَن في حِجْر أصابعه..

لقد استطاع سرقته من «أمين شرطة» في قِسم مهدوم يتبع الحي الذي يقطن فيه، إذ ثارَ الناس على رجال الشرطة طالبين منهم الرحمة والتدخل فيما يحدث لبلدهم، لكن لا حيلة لهم. ذلك كان آخر قسم شرطةٍ في ذلك الحي، قُتِل معظم من فيه من ضباطٍ وعساكر وأمناء كرَّسوا حياتهم لحفظ الأمن والأمان، وقد استطاع ذلك الولد -من بين كل تلك الاشتباكات المهولة التي أدت إلى سقوط الكثير من الضحايا من الجانبين- أن يتسحَّب ويضرب أمين الشرطة البدين ذلك بحجرٍ ضخمٍ على رأسه، فتسبب له بجرحٍ ليس بالهين، وسرق بندقيته وهرب، وها هو يستخدمها الآن ليُنقِذ عائلته التي يوشك رصيد أنفاسها أن ينفد..

عدل جسدَه، وتحرك بضع خطوات إلى الأمام، ودقق بنظره على ذلك الكلب المسكين النحيل الجسد، والذي يزحف بحثًا عن فتات الطعام يسد بها جوعه أو رشفة ماءٍ تُنهي ظمأه، ولكنه أبدًا لن يجِد، فحياته على أعتاب النهاية، وهو على وشك الموت..

تحول الولد إلى نمرٍ وانحنى بجسده في استعدادٍ للانقضاض، وفي لمح البصر، وبعدما تأكد أن الكلب وقعَ في مرماه، ضغط الزناد، ليصرخ الكلب ويسقط من فوره أرضًا. خرج الولد من خلف الجدار باسمًا، واقترب من الكلب الذي يزحف محاولًا الهرب والدماء تتساقط من معدته بغزارة، وما إن صار قُبَالته، حتى ضغط زناد مسدسه مرةً أخرى، لتصيب الطلقة الثانية رأسه فيسقط جثةً هامدة..

انحنى الولد ورفع جثة الكلب بصعوبةٍ مستحيلة، إذ إن قوته خائرةٌ بالفعل نتيجة جسد ضعيف، وسار نحو منزله والفرحة العارمة قد تخللت قلبه؛ لقد أحضر طعامًا سيكفيهم لنصف شهرٍ على الأقل، وسيفخر به أفراد عائلته بكل تأكيد، سيفخرون بوجود مَن يأبه لتأوُّهاتهم واستنجادهم المفزع.

****

الملكة بعل..

منذ زمنٍ غابر، عاش بنو إسرائيل في مدينة بعلبك (لبنان حاليًّا)، وانتشر بينهم العُهْر والفساد والكفر والشرك بالله، فتملك منهم الكِبْر والجبروت، وطغَت قوتهم حتى وصلت عنان السماء..

هاجَت جنبات المدينة في صباحِ يومٍ لم تسطَع فيه شمس، بعد أن وصلت رسالة تهديدٍ صريحة إلى الملك، إذ تحمل إعلانًا واضحًا بالحرب عليه، مما زاد غضبه وحَنَقه، وشرع في تجهيز نفسه على الفور وارتداء درعه الكاسِر، ثم خرج إلى جنوده وأمرهم بصرامةٍ أن كونوا كالصخرِ لا يهتز، ومَن يمسُّ ملِكَكم كأنه مسَّكُم جميعًا. وسحب جيشه المهول وخرج متجهًا صوب مَن يُعجِّل بموته دون أن يدري.

ترك زوجته (بعل) -وهما لم يمر على عرسهما سوى شهرين- وحيدةً مهمومةً كئيبة، ولكنها كانت تُخفي في دواخلها فسادًا وشرًّا مُطلَقًا. وبعد أن رحل زوجها لأول مرة، بدأت تحكُم هي البلاد وتتولى زمام أمورها بالقوة والظلم، فحوَّلت المدينة إلى بؤرة عذاب، إذ لم يتجرأ أحدٌ على ذِكْر الملك أو الملكة بكلمةٍ بذيئة، ولم يستطِع الناس الهرب من فرض الضرائب عليهم بمقدارٍ ضخمٍ من الأموال، غير إجزالِ الملكة بالهدايا والعطايا وتقديسها وخشية جبروتها. حتى إن شخصًا قد سبَّها في غيابها، فأخذ خبره يتناقل بين الناس في المدينة إلى أن وصل الملكة، فأمرت بتقطيعه إلى ستِّ قطع أمام المارة دون رحمة؛ القدمان والذراعان والرأس ثم بقية الجسد! مما أجبر الكُلَّ على الخوف منها والرعب، وعاشوا تحت جدران منازلهم يقدسون ملكةً جبارةً تجنبًا لقسوتها..

مرت السنوات ولم يعُد الملك، إذ استمرَّت حربه والتي نزف جرَّاءها بنو إسرائيل وفقدوا الكثير، لتزداد (بعل) في جبروتها واستبدادها، حتى أتى ذلك اليوم المروع..

في يومٍ عاصفٍ من أيام الشتاء، أمرت (بعل) ببناءِ معبدٍ ضخمٍ وصُنْع تمثالٍ مهيبٍ لها، ومن ثم خرجت على القوم، فألقت خطبتها على مسامعهم، وخرج صوتها يهز كيانهم:

- من هذه اللحظة، لا إلهَ سوى بعل، ستسجدون لي، وستُقدِّسونني، وستُصَلُّون لي، وسأرحمكُم وأغفر لكم.. أما من يتكبر ويرفض السجود، سيكون مصيره الحرقُ في نارٍ لا تخمَد.

وبعدما ألقَت خطبتها، وقف الناس مذهولين، لا يعرفون ما هُم مُقدِمون عليه، وفكَّروا لدقائق، وحين نظروا في عينيها خافوا ظُلمها، ثم سجدوا واحدًا تلو الآخر، ومَن رفض تمَّ إحراقه حيًّا أمام الجميع. ومرت السنون وهم لا يعبدون سوى صنم (بعل)، حتى ماتت كأي إنسانٍ فانٍ، ولكن قوانينها رُسِّخت في عقولهم، فظلوا يسجدون لتمثالها ويعبدونه ويقدسونه ويقدمون له القرابين بكل جهل.

****

«بعد أن تعهدنا بالميثاق الأكبر، العهد الذي لن ينفصل أبدًا، أريدُ أن أرشِد عقلكَ إلى شيء يجب عليه ألا ينساه، سيكون هناك الكثير ممن يدّعون الألوهية، والأكثر ممن سيَدْعون إلى عبادة إله واحد غيري، ومنهم بالتحديد شخصٌ سيُضِل كثيرًا ممن خلَقْت، وسيقول إن هناك إلهًا واحدًا، وسيَسحر الكل بكلماته التي ستحمل كثيرًا من معاني الغيب»

السامري إلى الأرقم

الصراع الأبدي..

نهارٌ مشرقٌ يداعب الجمادات، بين تلال الراحة النفسية والسعادة الغامرة، وسْط الهدوء الغامر بنسيم الهواء المحمل بأكسجين الحياة..

جلس (إبراهيم) في حديقةِ منزله القابع في قريةٍ منعزلةٍ عن الطبقةِ العامة، قريةٌ للأغنياء فقط، ارتخى على أريكةٍ مريحةٍ أسفل مظلةٍ ضخمة، وأمامه طاولة صغيرة يرتكز عليها جهاز كمبيوتر محمول صغير. كان يرتدي نظارةَ نظرٍ من النوعِ الفاخر، ويحدق في شاشةِ الجهاز أمامه، ويُعذب حروف لوحةِ المفاتيح بالضربِ المستمر، إذ يؤلف كتابه الثاني الذي يدعو إلى الحرية ونشر الإلحاد بين الناس، كتابٌ ذو فكرٍ متفلسفٍ عميقٍ يحمل العديد من النظريات الكافرة السامة، هدفه الفساد ورسالته الضلال..

حمامُ السباحة أمامه يرسم مشهدًا سِحريًا يريح عينيه، وملابسه المكونة من قطعةٍ واحدةٍ ذات ألوان زاهية تغطي أسفلَ جسده وتنعشه، وزجاجةُ الخمر القابعة بجانبه تخدمه بملء كأسه تارةً تلو الأخرى فتُعمِّر دماغه بأفكاره القاتلة التي ينشرح لها عقله..

في أثناء انغماسه التام بين حروف كلماته، ولج من باب القصرِ ابنه (يزن) بسيارته الباهظة الثمن، وعلى الكرسي بجانبه شخصٌ أربعينيٌّ بدَت عليه اللهفةُ عند دخوله. ركن السيارة في المرآب، ثم تحرك هو ومَن معه صوب (إبراهيم)، والذي وقف بدوره فور رؤيته إياه، ليحتضنه (يزن) ويقبله في جبينه، ثم قدَّم له الشخص الأربعيني قائلًا:

- Dad، ده عزت، عضو جديد في الـ"Without name"، قرأ الكتاب بتاعك وكان عاوز يقابلك، وأنا وعدته إني هعمل ده.

مدَّ (عزت) يده وصافح (إبراهيم) بحرارة، وقد ارتسمت على وجهه معالم الدهشة والفرحة وهو يقول:

- حضرتك شخصية صعب جدًا إن حد يقابلها أو يقعد معاها، وأنا حقيقي سعيد إني واقف قدامك دلوقتي.

صافحه (إبراهيم) مبتسمًا برتابة، ثم حيَّاه دون إبداءِ أي تعليق عنْ ما قال:

- أهلًا عزت.

ثم جلس ثلاثتهم على الأرائك المريحة المرصوصة بعناية، ورفع (إبراهيم) القدمَ على الأخرى لتحتضنا بعضهما وسألَ ضيفه:

- قُل لي، مبسوط في الـ"Without name"؟

شبك (عزت) يديه ومال بجسده إلى الأمام ورد باسمًا:

- أنا مع كل ما يهدف إلى الحرية.

تلقى (إبراهيم) كلماته بتركيز، ثم أشار إليه قائلًا:

- أهم حاجة يكون عندك اقتناع داخلي، وفوق ده كله تطور من الفكرة، دي مش شركة لها قوانين واحنا بنتبعها، ده ارتقاء بالذات، إنتَ اللي بتحدد عاوز إيه.

ابتسم (يزن) واقتحم الحديث ليُثني على صديقه مفتخرًا:

- عزت لسه جديد بس ذكي، وعنده رؤية قوية.

سلط (عزت) ناظريه عليه بقسمات وجهٍ مريحةٍ تنُمُّ عن العرفان.

- ميرسي يزن..

ثم انتقل بنظره إلى (إبراهيم) بالابتسامة العذبة ذاتها، وقال بلكنةٍ متحضرةٍ يغلبها الرقي:

- الحقيقة، أنا من أشد المعجبين بأفكار حضرتك، قرأت لك كتاب "No God"، كان تحفة فنية، وحاولت كتير أقابلك علشان أتناقش معاك، لحد ما اقتنعت إني ممكن أقابل رئيس الجمهورية أسهل!

ضحك (إبراهيم) بصوتٍ عالٍ، ثم نظر إلى (يزن) وهو يقول مبتسمًا:

- صاحبك شكله لطيف يا يزن..

في اللحظة نفسها، أقدم عليهم الخادم ليضع كأسين آخرين غير الموضوعين أمام (إبراهيم)، فعبث الأخير في زجاجة الخمر، وملأ لنفسه كأسًا في أثناء قوله موجهًا حديثه إلى (عزت):

- كاس؟

فرد (عزت) مبتسمًا دلالةً على الترحاب:

- يشرفني.

ملأ (إبراهيم) كأسًا لـ(يزن) وناوله إياها، ثم ملأ الكأس الثانية لـ(عزت) ومده إليه قائلًا:

- مقولتليش رأيك في الكتاب.

التقط (عزت) الكأس من يده، ليعود بظهره إلى الخلف ويقول:

- صادم، هيعري حاجات كتير قوي متغطية من زمان، الناس لازم تفوق..

شعر (إبراهيم) بالراحة في الحديث مع (عزت)، ولذلك أعادَ قدميه الواحدة فوق الأخرى وجلس مستريحًا في أثناء ارتشافه من كأسه وهو يقول:

- هما لحد دلوقتي مش قادرين يصدقوا ويقتنعوا إن مفيش أي دليل على الطرح الديني..

ترك (عزت) الكأس على الطاولة دون أن يشرب منها رشفةً واحدة، كأن التفكير قد غلب عقله، وتجاوب مع حديث (إبراهيم) بقوله:

- شيء غريب جدًا، لما بلاقي حد متمسك بدينه سواء مسيحي، أو مسلم، أو يهودي!

رد (إبراهيم) على الفور كأنه قد توقع السؤال قبلًا، وقد جاءت كلماته مشبعة بالكفر والإلحاد والتعدي على الأديان السماوية بصورةٍ مقززة تقشعر الأبدان وتُهلِك العقول من تلك الدماغ التي تُفكِّر كالشيطانِ المريد المتكبر على كل ما حوله:

- التقليد، الإصرار والتصميم، الإيمان الأعمى.. الـ٣ أفكار دول مرتبطين جدًا ببعض، تخيل كده معايا إن طفل اتولد بديانة، خلينا نسميها زي مدرسين الرياضة ديانة (أ)، وواحد تاني اتولد بديانة (ب)، وواحد تالت اتولد بديانة (ج).. الـ٣ أطفال دول كبروا، وصلوا لسن بيسألوا فيه عن الديانة، بسبب اللي شايفينه في عالم الكل بيدعي فيه الإيمان، لخوفه بقى من أخطائه أو خوفه من حاجات تانية مش موضوعنا.. الـ٣ دول سألوا عن ديانتهم، وكل عيلة من عائلات الـ٣ قالوا لهم ديانتهم، فاتولد عندهم الفكرة الأولى، الاتباع، أو بمعنى أصح، التقليد لأجدادهم. وهنا الغلطة الكبيرة، ماخدوش فرصتهم إنهم يختاروا، لا قالوا لهم إنتم هتبقوا كده.. كبروا شوية، فالفكرة الأولى كبرت، واتولدت الفكرة التانية، فبقى عند كل واحد من أصحاب الـ٣ ديانات إصرار وتصميم على إن ديانته هي الصح، فبدأت الصراعات بإقناع كل واحد إن هو الصح، بأدلة من عقيدته هو، ممكن

يكون أصلًا صاحب الديانة مش مقتنع بيها، بس هو عاوز يكسب النزاع الديني الفكري والأبدي، اللي عمره ما هيخلص، علشان هو أصلًا ماخترش دينه، فبينتج عن النزاع ده كل اللي إنتَ شايفه في المجتمع، من غير تفسير إنتَ أكيد فاهمه.. فبدل ما يحقق صاحب العقيدة هدفه وهو إقناع أصحاب العقائد الأخرى بفكره كنتيجة أساسية، من غير ما يحس، بيبقى عمل لنفسه مشكلة كبيرة جدًا، إن هو بيولد جواه الفكرة التالتة، وهي الإيمان الأعمى، وهنا بيحاول يقنع الناس باللي هو مش مقتنع بيه.. علشان كده لما تيجي تسأل واحد أي سؤال ديني، بيجاوب وهو متردد، ولو إنتَ عارضته وجيبت له أدلة حتى لو مش صحيحة، فهو بيفكر ويقول لك هسأل واشوف.. هو نفسه أساسًا مش مقتنع.

بغيضٌ لا يفكر سوى بجزءٍ ضئيلٍ من عقله، فلا هو متفتحٌ ومتوسعٌ لفهم ما استعصَى على عقله، ولا أفكاره ثابتةٌ ذات مرجعٍ ثقيل، والأكثر جحودًا في هذا هو التحام (يزن) ابنه معه في الحديث ليزيد من جرعةِ الكفر البيِّن:

- بالظبط زي اللي بنشوفه في الأفلام الدينية لعبدة الأصنام، كانوا بيتبعوا تفكير جدودهم، من غير أي أدلة على إنه الدين الصحيح، لحد ما بيظهر دين جديد، من غير أدلة برضه، وبتنشأ الحرب العقائدية ما بين الطرفين.. مع إن العقل والمنطق بيقول إن لازم يكون فيه دليل لكل حاجة، والمصيبة الأكبر هي إن مفيش دليل أصلًا على وجود إله..

التقط (إبراهيم) نفسًا محملًا بالهواءِ يتخلل رئتيه، ثم تجرع الكأس كاملةً ليرتوي جوفه، وأردف في أثناء تركيز (عزت) على كل كلمةٍ تُقال كأنها محاضرةُ كفرٍ وجذبِ انتماءٍ إلى أفكارهم السامة السقيمة:

- ونيجي هنا للحق، الحق أدلته دايمًا واضحة، نقدر نقول إن الشمس بتطلع، إن فيه شمس، بنشوفها، علشان كده بنصدق وجودها، مفيش حد بيشكك في وجود الشمس، لإنها حق، مفيش حد بيدور على إنه يثبت إن فيه شمس ولا لأ، الشمس مش محاطة بالألغاز.. لكن الدين لأ، الدين كله ألغاز، الدين مش حق، لأن أدلته غير واضحة..

التقط (عزت) نفسًا غير مصدقٍ ما سمعه، كأن أرطالًا من الأفكار المريبة قد قُذِفت في عقله بغتة، قلبه خفق بسرعةٍ مهولة، حاول استيعاب الأمر، وقد شعر بقشعريرةٍ مزقت كل خليةٍ من جسده خوفًا ورعبًا مما يسمع، لكن كلامه خرج مخالفًا كلَّ مشاعره:

- الحقيقة كلام منطقي جدًا..

أمسك (إبراهيم) زجاجة الخمر في يده، وملأ كأسًا أخرى، فناوله (يزن) كأسه ليملأها له، وقد شعر بالفخر إثر الثناء الذي تلقاه من (عزت)، فهو يعشق المجاملات وكلمات الإطراء المبالغ فيها. بدأ يرتشف بضع رشفات من كأسه، وبعد أن انتبه، حطَّم (عزت) ثقته بكلماتٍ تحمل في طياتها نوعًا من الاستهزاءِ بكل النظريات التي يحاول تطبيقها:

- بس مع احترامي ليك، الإلحاد دايمًا نظرياته مهزوزة، وغير متماسكة، وسهل جدًا أي عالم دين من أي ديانة بأدلة ضعيفة يثبت إنه مبني على أساسات مزيفة أو ملهاش أصل..

صُعِق (إبراهيم) من حديث (عزت) الذي حادَ إلى مجرى آخر، لكنه حاول أن يبدو طبيعيًّا، وقرر أن يُهلِك نفسه لإقناعه بأفكاره مهما كلف الأمر، في حين رمقَ (يزن) (عزت) بنظرةٍ حادةٍ مغلفةٍ بالضيق والاشمئزاز، ولذلك اعتدل (إبراهيم) في جلسته، ثم استراح ملتقطًا نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- بنظرة واحدة عميقة للتاريخ، تقدر تثبت صحة كل نظريات الإلحاد.. الأديان كلها لها تاريخ، قبل المسيحية، وقبل اليهودية، كان فيه أديان تانية كتير، طوائف، عقائد متعددة.. اليهودية والمسيحية والإسلام خدوا من الأديان دي أفكار كتير جدًا، طوروها ونسبوها للوحي المقدس، وللإله.. كان فيه مثلًا الديانة الزرادشتية قبل اليهودية.. أفكار وقصص دينية كتير، الإنسان دلوقتي اكتشف إن لها أصول قديمة جدًا قبل الكتب السماوية.. ازاي أنا ممكن أصدق أو أعتنق ديانة أساسها مبني على أصل تاريخي قبل ظهورها، ده دليل واضح على النقل وعدم قداسية الكتب السماوية، وإن بشر هما اللي كتبوها..

أنصت (عزت) إلى كلماته بدقةٍ عالية، وصار يُقلِّب الأفكار في عقله فيما هو جالسٌ يسمع. ولما سكَت (إبراهيم)، تجرَّع كأسه كلها في رشفةٍ واحدةٍ في دلالةٍ على انتهائه من الحديث، ليبتسم (عزت) محاولًا تصنُّع القبول والرفض معًا في بعض الجمل المرتبة:

- المجتمع مش هيقدر يتقبل فكرة الملحد، هيرفضه، فكرة إن فيه حد مش معترف بوجود إله، أو ديانة.. أكيد وجودنا مش من العدم، احنا مخلوقات، ده إثبات كفيل إنه ينبهني بوجود خالق، الكون عبارة عن شيئين بينهم تضاد، خالق ومخلوق، مفيش زرعة بتطلع من الأرض من غير ما يكون في حد حط البذرة..

أضحَك (إبراهيمَ) النصفُ الأول من كلامِ (عزت)، والذي يواجه فحواه يوميًّا في حياته حتى اعتاد عليه، فأجابه متجاهلًا النصف الثاني بتعمُّدٍ كأنه يحاول سحبه إلى طريقٍ آخر حتى لا تشتعل المناقشة في أمورٍ فرعيةٍ وتتحول من مجرد دردشةٍ طبيعيةٍ إلى مناظرةٍ بحتة:

- الرفض ده قديم بالمناسبة، والإلحاد مر بتاريخ قاسي جدًا من الرفض والإنكار.. بعض الملحدين أُعدِموا، والبعض الآخر أُحرِقوا أحياء.. العاطفة الدينية دايمًا بتنسى مبدأ الرحمة، لو قرأت في الكتب السماوية هتلاقي كتير من الأحكام اللي بتجيز القتل والرَّجْم والجَلْد.. مفيش في الديانات رحمة.. المجتمع دايمًا رافض فكرة الملحد، وأنا مش ملحد علشان أستفز المجتمع، أنا كده لأني بتمنى إن المجتمع يتحرر...

قطع كلامه لتتوجه يده صوب زجاجة الخمر كي تصُب كأسًا أخرى، حينها استطردَ (يزن) الحديث متجاهلًا -كما فعل والده- الجزءَ الثاني من كلامِ (عزت)، هذا على الرغم من عدم تقبُّله طريقةَ حديثه وقد كاد ينسحبُ من الحوار، لكن رفضَه واقتناعَه حركا مشاعر الكفر في دواخله ليُدافِع عن فكرة الإلحاد باستماتة، وقد استند إلى الكلمة الأخيرة التي قالها والده فأكمل عليها وبنى نظريته:

- من وجهة نظري، الأديان هي سبب كل المعضلات اللي احنا فيها، وأساسها عدم التحرر، الناس لما تفهم إنهم بكده بيتحرروا، ويستوعبوا، هيقدروا ياخدوا قرارهم وهما

مغمضين.. أي إنسان لازم يفهم إن الإلحاد اختيار وارد وممكن، وميفضلش دايمًا حابس نفسه في دايرة الخوف، خايف من النار، خايف من العقاب، غلط إن الناس تعيش دايمًا في خوف، الخوف هو الدافع الوحيد والأساسي اللي بيحرك للإيمان بالديانات، لو مبتخافش من النار مش هتعمل الغلط، ده لو كان أصلًا غلط.. الغلط ده عندهم هما، لأنهم غير متحررين، القيود قفلت عليهم عقولهم.. لازم يفهموا إن الملحدين كتير جدًا، قدروا يتحرروا ويتمسكوا بحرية عدم اقتناعهم بالمهزلة العقائدية القديمة.. مش معنى إن الناس اختارت متشوفهمش، يبقوا مش موجودين، هما كتير، وكتير قوي كمان، الناس بس اللي اختارت عدم اعترافها بيهم، علشان كده مش شايفينهم.. احنا أعدادنا كبيرة، احنا موجودين في كل زاوية.. لو جربنا نعمل خانة في البطاقة للديانة، إن كان مسلم أو مسيحي أو يهودي أو بلا ديانة، المجتمع وقتها هيعرف ويفهم إن عددنا كبير جدًا.

سكوتٌ عمَّ المكان وفرشَه بالصمت القاتم، شعر (عزت) بالراحة لانغلاقِ أفواهِ هؤلاء المُدَّعين الأفَّاكين، فاستجمع حفنةً من الأكسجين يُنعِش بها رئتيه بعد كل هذا الجدال، وراجع مرارًا ما قالوه قبلًا، فاضطرب جسده بالاشمئزاز المريع، وما استفزَّ عقله هو معاملتُهم إياه كساذجٍ لا يفهم، وتجاهلهم حديثَه المهم منذ البداية. لذلك، قرر الهجوم بكل ما يملك من قوى مُتحصِّنًا بإيمانه المنيع، فليحترق (يزن) ومجموعته الكافرة، ومعهم أبوه السكِّير الفاسد الفاسق:

- مع احترامي ليكم ولنظرياتكم، بس أنا بدأت أمسك شوية خيوط واهتزاز في كلامكم، مش معنى إنه منمق ومقنع هيكون سبب لإني أصدق اللي بتقولوه؛ يعني مثلًا أنا سألت سؤال واضح ومحدد، وهو إن وجود مخلوقات دليل على وجود خالق، الكون مش من فراغ، السما والنجوم والأرض والبحر، الإنسان نفسه كائن معقد جدًا، مستحيل يكون اتوجد من نفسه، مستحيل كل الأشياء المحيطة بينا تكون ظهرت من العدم، كل ده بفعل خالق هو اللي كان سبب في وجودها، كل المؤشرات اللي حواليا بتثبت إن فيه خالق.. ورغم إن سؤالي واضح ومحدد وبسيط مع بعض الأدلة المنطقية، حضراتكم بتقولوا

كلام ملوش علاقة بالسؤال، كأنكم بتتعمدوا إنكم تبعدوا عن الإجابة، وده دليل على ضعفكم، أو عدم اقتناعكم بأفكاركم زي ما أستاذ إبراهيم وصف المتدينين!

أنزلَ (إبراهيم) كأسَ الخمر من يده، وقد شعر بالحنَق جراء حديث ذلك التافه المتعجرف، فرمق (يزن) بطرفِ عينه في إشارةٍ إلى الضيق والعتاب، ثم أعاد التدقيق في وجه (عزت)، وصبَّ حديثه مُركِّزًا على وجهة نظره المنطقيَّة بالنسبة إليه:

- مفيش دليل علمي واحد على وجود إله، بعيدًا عن كل الأساطير الموجودة في الكتب السماوية اللي مستحيل العقل والمنطق يصدقها، تقدر تجيب لي دليل علمي واحد على وجود إله؟!

ابتسم (عزت) وأشار إليه بيده قائلًا:

- إنتَ.

تعجب (إبراهيم) من إجابة (عزت) التي تنُم عن السخرية، فقال مستغربًا:

- نعم؟!

استراح (عزت) في جلسته لما وجدَ نظرياتهم الضعيفة أخذت تتهشَّم لعدم فَهمِهم حديثه، ولذا شرح مُبسِّطًا:

- الإنسان دليل علمي واضح على وجود خالق، الإنسان إثبات قاطع على وجود إله، بس إنتَ اللي متعمد تبعد بأفكارك غير المنطقية.. إنتَ عامل زي شخص اتولد أعمى مش قادر يميز بين الألوان، لإنه ببساطة مشافش، ميعرفش شكل اللون عامل ازاي، لو قُلت له أحمر هيتخيل في عقله شكل التفاحة المدورة، لأنه لما سأل في يوم عن لونها قالوا له أحمر، فاتكون في ذاكرته إن اللون الأحمر عبارة عن تفاحة! كل نظرياتك عاملة زي التفاحة للأعمى، فاهم إنها لون أحمر، ومش قادر تحدد جوهرها؛ إنها ثمرة اتزرعت بفعل فاعل، في حقل كبير بيترش يوميًا بالميَّه، علشان تكبر وتتحول إلى شجرة، تثمر وتخرج تفاح،

وبعدين نقطفها، علشان نفهم إنها عبارة عن لون وطعم وريحة وشكل وغذاء، وقبل كل شيء إن فيه واجِد ليها، وإنها اتزرعت بفعل فاعل.

كاد (إبراهيم) أن يتكلم، لولا أن (يزن) أوقفَ كلماته قبل خروجها، وردَّ محاولًا تحطيم نظريات (عزت)، مهاجمًا إياها:

- إيه وجه التشابه؟! أنا واحد من الناس مش هعرف اللون الأحمر غير لما أشوفه بعينيا، حتى لو إنتَ قُلت لي إن التفاحة لونها أحمر، مش هصدقك، لأني اتعودت أفكر وأحلل قبل ما أقتنع.. يعني أنا عمري ما أقتنع إن فيه إله غير لما أشوفه بعينيا، ساعتها بس أقدر أقول إنه موجود.

اندهش (عزت) وقد أُفعِمَت رأسه من أفكارٍ عجيبةٍ أثارَت كل ذرةِ احتقارٍ في دواخله تجاهَ هؤلاء الذين يحتاجون إلى إعادة تأهيلٍ لعقولهم وتنقيحٍ لأفكارهم الهائمة، ولذلك حاول أن يكون رده متزنًا وقويًّا:

- المشكلة إنك شايف بعينيك، بس بتتعمد تكون أعمى، مش شرط أشوف ربنا علشان أصدق وجوده، هو اللي خلق عينيا، ازاي أصلًا أشوفه! العين رؤيتها محدودة، لو أنا واقف في مكان وجيه حد ضربني على راسي وأغمى عليا، لما أفوق في المستشفى هبقى عارف ومتأكد إن فيه حد ضربني، ولكني مشوفتهوش.. كل حاجة حواليك بتثبت إن فيه إله، عينيك نفسها اللي مش شايفاه بتثبت إن فيه إله.. بس المشكلة إن اللي زيكم بيكونوا مهزوزين وغير مقتنعين بكلامهم، بس المكابرة هي اللي بتخليهم متمسكين بأفكارهم، وعلشان كده بيكون صعب جدًا تغييرها..

ساد الصمت للحظات، وكاد (يزن) أن يرُدَّ له الصاعَ صاعين من التحقير والاستهانة ويقذِفه بجَمِّ غضبه، لولا أن أشار إليه (إبراهيم) بوجوبِ الصمت، ثم ابتسم ودقق جيدًا في آخر جملةٍ تفوَّه بها (عزت)، ليرد عليه هو مُقتنِعًا بكل كلمةٍ يقولها:

- أنا كل يوم بجدد قناعتي، كل يوم بجدد أفكاري، المتدين هو اللي دايمًا قافل على نفسه، لأنه دايمًا خايف من النار، خايف من التفكير، مقتنع بمنطق «لو فكَرت هتتجنن»، ازاي لما أفكر هتجنن؟! حتى الجملة مش راكبة على بعضها، أنا لما أفكر هجدد من نفسي وهطور نفسي، الأديان هي اللي مبتطورش من نفسها.. كلامك غير مقنع يا عزت، كل تساؤلاتي مقدرتش تجاوب عليها، والحجج اللي مبنية عليها إجاباتك كلها ضعيفة، إنتَ معندكش إجابة، علشان عقلك مقفول، غبي، عمرك ما هتوصل لنقطة التفكير اللي أنا وصلت لها، علشان كده مستحيل يكون بينا تلاقي..

حاول (عزت) تهدئة نفسه وإحباطَ الإعصار الثائر بداخله، لكنه لم يستطِع كبحَ بركانه الغاضب في بواطنه، ولذا صاح بصوتٍ عالٍ فانقلبَت نبرته من الرقي والتحضُّر إلى الهجوم الهائج:

- كلامك شبه كل اللي اعترضوا على كلام الأنبياء قبلك، قافل عقلك ومش قادر تتقبل الفكر الآخر.. غريبة! رغم إنكم بتدعموا الحرية، فين الحرية وإنتم مش متقبلين غير أفكاركم الساذجة والعقيمة، علشان كده اللي قبلكم عذابهم من ربنا كان كبير..

ضحك (إبراهيم)، فتحامل على قدميه واقفًا، ثم سحَب الكأس بيده وأشار إليه مستهزئًا:

- كده إنتَ بدأت حلقة التخلُف بتاعة الشيوخ! مش قادر أتخيل إن فيه ناس مصدقة الأساطير الساذجة اللي مكتوبة في الكتب المقدسة زي ما بتقولوا عليها، مفيش أي منطق بيقول إن سفينة تشيل كل الحيوانات مع بعض من غير ما تاكل بعض، مفيش منطق بيقول إن فيه عذاب بينزل من السما، ولا طيور بتشيل لهب من غير ما تتحرق.. عاوز تفهمني إني لو شتمت الإله بتاعك دلوقتي هيعاقبني؟!

قام (عزت) من مجلسه وقد تبدلت ملامحه إلى الغضبِ المُحتدِم، وصاح بأعلى صوته في وجه (إبراهيم) إثر آخر جملةٍ تفوَّه بها:

- إنتَ ازاي تتكلم بالتبجح ده عن ربنا اللي خلقني وخلقك؟! إنتَ مجرد شخص حقير معدوم الفكر، متخلف، اللي زيك الحرق رحمة ليهم!

وبعد أن قذف كلماته وقد تناثر لعابه لشدة غضبه وحنقه، اندفع بكامل قوته مهاجمًا (إبراهيم) بشخصه فلكَمه في وجهه، ليسقط الأخير أرضًا جراء ترنُّح جسده من أثر الخمر، ثم ارتمى عليه وعضَّ أذنه بأسنانه. صرخ (إبراهيم) وقد نزفَ وجهه، فانقضَّ (يزن) على (عزت) وأبعده عن والده، ثم ركلَه في بطنه في اللحظة التي أسرعَ فيها حراس القصر نحوهم، فأمسكوا بتلابيب (عزت) وانهالوا عليه ضربًا حتى كادوا يقتلونه..

تحامل (إبراهيم) على قدميه ممسكًا أذنه، ثم نظر في عيني (عزت) قائلًا:

- كنت عارف إنك كده من أول ما تجاهلت كاس الخمرة، معندكمش غير الأسلوب الهمجي ده تردوا بيه على الكلام العلمي والمنطقي..

ثم اعتدل في وقفته، في حين أخذ (عزت) يلتقط أنفاسه بصعوبةٍ بالغةٍ وقد امتلأ وجهه بالكدمات أثر الضربِ المبرح الذي تعرض له من الحراس.

نظر (إبراهيم) أمامه بغضب، ثم صاح بقوةٍ في وجه الحراس قائلًا:

- ارموه بره.

فجرُّوه على الأرض جرًّا مثل كيس قمامةٍ عفِن لا قيمةَ له، ليتخبَّط مُلوِّثًا الحشائشَ بأحمر دمائه.

اقترب (إبراهيم) من زجاجة الخمر، فرفعها بقبضته ثم ارتشف منها وهو يسير متوجهًا إلى باب القصر، والتحق به (يزن) منفعلًا بعد أن بصقَ غضبه أرضًا، وقد شعر من دواخله بأن هؤلاء الرعاع سيحاولون إفساد حلمه ومجموعته التي يحاول تكوينها ويسعى لاستمرارها، إذ إنها السبيل لنشر رسالته، وهي خلق جيلٍ جديدٍ حُرٍّ له قناعةٌ مبنيةٌ على حرية الفكر والاقتناع. لكنه أبدًا لن يستسلم، فمَن يسانده أقوى من جيشٍ كاملٍ محمل

بالأفكارِ والنظريات الدينية، إنه أبوه (إبراهيم)، ذلك الداهية الذي دومًا ما يتفوق على أعتى المحاورين دون أن تهتزَّ له شعرة، وسيظل هكذا، حصنًا منيعًا.

❋❋❋❋

في أحد الأحياء الراقية، وبين جنبات أحد المنازل الموحشة، سكن ثلاثة أفراد مكونين من أبٍ لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره بعد، وأمٍّ توقفت عند عامها الرابع والعشرين ولا أمَل لديها في المواصَلة، وابنهما الذي تجاوز سن الثالثة بأشهر قليلة..

جلس الأب على الأرض الباردة ناظرًا إلى ابنه الذي يصرخ باستمرار دون توقف، وبجانبه أمه تحاول تهدئته، صراخ الولد مهول يصل إلى عنان السماء، يستنجد بوالديه، ولكنهما يحتاجان إلى مَن يُنجِدهما أيضًا، فهما قليلا الحيلة مغلوبان على أمرهما..

نظرت الأم إلى طفلها بعينٍ باكية، ثم صاحت ولا سامع لها:

- يا رب..

ثم انتقلت إلى عيني الأب ودموعها تتساقط بغزارة:

- الولد هيموت من الجوع يا إسماعيل، اعمل حاجة!

جاءها رد فعل الأب غريبًا وموجعًا، إذ إنه لم يتكلم، بل أحسَّ بشعورٍ مؤلم، بأن عدم وجوده أفضل. نظر إليهما بشفقة، ثم رفع يديه الاثنتين وصار يصفَع نفسه ويصرخ بصوتٍ عالٍ شقَّ الجدران، يبكي بحرقةٍ ولا يعرف ما عليه فعله، العذاب أعظم من أن يتحمله قلبه، يصرخ ولا معين له سوى ضربه نفسَه. ركضت نحوه زوجته والطفل يبكي بين يديها، ضمته إلى صدرها، وصرخَ الثلاثة معًا استنجادًا بالمولى كي يُخلِّصهم من عذابهم.

❋❋❋❋

لم يعُد للصمتِ وجود، فقط ضجيجٌ يؤلم الأبدان فيحاصرها بالريبة ويشد الوثاق، مرعب، مخيف، كأنه صوتُ الموت يُحدِّثهم، طبولُ حربٍ ضروسٍ تُعنِّف نَفْسها نحو الخلاص، نحو الارتقاء، ونحو محاولة تعظيم قَدْر الذات، إذ إن النفسَ ماتت ولم تعُد لها قيمة في قلوب الضعفاء، أولئك المقبورين في أسفل السافلين!

الأجساد متآكلة، القلوب تنتفِض وجَعًا، والحياة تضيق بهم حتى نهشَت ما تبقى..

الضعف..

الاستسلام..

الانسياق نحو ما بقي، أو ما يظنون أنه باقٍ..

والمبارزة الأخيرة للفوز بالحياة، حتى لو كانت بلا قيمة، بلا هدفٍ منشود!

تلك هي النفس البشرية؛ تهاب الموت، تبغضه، تحاول الابتعاد عنه، هو العدو الأكبر والحقيقي، هو الصراع الأزلي في محاولة التخلص منه والفوز بحرية الخلود. لكنه دائمًا يفوز، كالمحيط يبتلِع في جوفِه الكلَّ دون تمييز، يزحفُ على الموجودات يُهلِكها فتذبُل مع عوامل الزمن، ينقضُّ على فريسته ساحبًا روحها من دنيا الفناء إلى ملكوت البقاء. فتُقاسي الروح، تُحلِّق، فلا تعلم أَهِيَ مُتحرِّرة من سجن الجسد الذي انتهك حُرمَتها أم إنَّ سلاسلَ الموت سلبَتها حريتها بلا رجعة!

حول أسوار النهاية التي تُغلِّف كهفَ اللذة الأخيرة، المياه الأخيرة، وشجرة الحياة الأخيرة، تضاعفَ تجمهُر الحشد العظيم حتى قاربوا على الخَمس مئة ألف شخص، كأن الناس يُهروِلون لاهثين نحوه من كل حدبٍ وصوب، إذ يأتون مُعلَّقي الأنظار تجاه الشيءِ الذي اجتمعوا له كافة. يدفعون الأسوار الحديدية الشامخة ببسالةٍ فلا يهتزُّ لها طرف، كأنما صُنِعت من صلابةٍ لا قوة لبشريٍّ على هدمها، عاليةٌ مهيبةٌ لا يستطيعون تسلُّقها، ذات أعمدةٍ متلاصقةٍ متماسكة..

وفي قلب الكهف، استند (إبراهيم) إلى عكازه يُتابِع حركاتهم، نظرات أعينهم الظمأى، وألسنتهم المُدلَّاةِ خارج أفواههم. فاستشعَر ضعفَهم، نفوسَهم الضائعة، صبرَهم الذي خبا، عقولَهم البالية وقلوبَهم السوداء. وصار يبتسم بفخرٍ وعزة لما حققه في لحظاته العظيمة، تلك نهايةٌ مُشرِّفة، يتباهى بها ويزهو، بل يُقدِّس نفسه متعاليًا، ومتكبراً..

- القصة بتنتهي..

قالها بصوتٍ ضعيفٍ خامِد، ثم تلفَّت ببصره في أرجاء الكهف وقصدَ صخرةً تستكين في ركنٍ فيه، فجلس عليها محاولًا كبحَ قوى الضعف التي تتملكه، ثم استند إلى عكازه من جديد ناظرًا إلى الماثلين أمامه في صمتٍ رهيب:

- مشاعر متخبطة ما بين خوف وسعادة..

تلفت حوله، وتنهَّد زافرًا أنفاسًا عَطبة، ثم قال وعيناه هائمتان في تضاريس الكهف:

- الاستنتاج الأول: الإنسان بيكون عنده اقتناع تام بالفكرة اللي بتكمِّل في دماغه، ولما بيطرحها، ويشوف فكرة تانية الناس بتصقف لها، بيبتدي يفقد إيمانه بفكرته، وواحدة واحدة يبقى من التابعين، اللي بيصقفوا لفكرة تانية..

تنقَّل بناظريه نحو الواقفين أمامه، ثم تحامل على عكازه حتى توقف، وشرع يسير بخطًى وئيدة قائلًا:

- الاستنتاج التاني: الحقيقة دايمًا قدام عينيك، ولكن محجوبة بشيء غير مرئي، علشان تضِلك.. رغم ذلك -غالبًا- بتكون عارفها، لكنك بتحاول تتحاشى وجودها، ورغم الإثباتات الكتير اللي بتكون قدامك، بتحاول تطمسها وتغطيها بكل ما تملك من قوة، علشان وجودها بيثبت ضَعف نظرياتك، وقد إيه عقلك ضئيل..

توقف عند عتبة الكهف، فجَالَ ببصره في الموجودات حوله، كأنه يكتشف الدنيا بعد غيابٍ طالَ أمدُه، ثم قال متأملًا:

- الاستنتاج التالت: الزمن أهم عامل في الكون، مش محسوس، ولا ملموس، ولكن أثره موجود، ظاهر، عارف ومصدق بوجوده.. رغم إنك مش شايفه، مؤمن جدًا بيه، بتخاف منه، وأحيانًا بتتمنى مروره، أو هدوءه، ولكنه دايمًا بيفاجأك، علشان يخطف كل ما تملك، من غير أي استئذان، حرامي، خسيس، متطفل، مجبر على تقبله، وتقبل التغيير اللي بيحصل بسببه..

وبعدما فرَغَ من استنتاجه الثالث، نظر إلى أولئك الذين يحاولون بجَهدٍ مُضنٍ هدمَ الأسوار الحديدية، فضيَّق عينيه وأخذ يُحدِّق فيهم، ثم قال:

- الاستنتاج الرابع: الموت هو الحقيقة المُطلَقة الوحيدة اللي ماختلفش عليها البشر، العدو الأكبر للمخلوقات الحية، بينهم وبينه حرب أزلية مبتنتهيش، ودايمًا هو المنتصر.. مينفعش تستخبى منه، دايمًا موجود، حواليك، وملوش ميعاد، ولا إنذار، وبسبب الخوف منه ممكن تعمل أي حاجة في سبيل إنه ميصيبكش بعياره، حتى لو كانت على حساب نفسك، المهم تقدر تحافظ على حياتك، مهما كلف الأمر..

رمى ببصره خلفه، ونظر إلى الماثلين كالتماثيل يستمعون إليه، ثم أشار إليهم بعصاه مُردِفًا حديثه في أثناء سيره نحو الصخرةِ مرةً أخرى:

- الاستنتاج الخامس: الخوف هو المحرك الأساسي لكل الدوافع، الهرب، الحب، التمسك، والبقاء.. مفيش خوف، مفيش قوانين، لو مخوفتش مش هتنفِذ، هيكون فيه خلل كبير، وكل شيء هيكون غير محسوب، وده هيولد اندفاع، موت، كُره، جبروت، وعدم اتزان.

ولما وصلَ إلى الصخرة، تأوَّه وهو يجلس عليها، لكنه إليها استراح، ثم نهَلَ من الهواء قِسطًا ينعش رئتيه، وابتسم شاعرًا براحةٍ قصوى، كأن مبتغاه على وشك التحقُّق، على وشك أن يصبح يقينًا مُؤكَّدًا..

كل شيء على أعتابِ النهاية، والنهايةُ هي ما ستُخلِّصه من كل تلك الأحداث الرتيبة والمملة، ومن انتظارِه المؤلم في سبيل أن تُعِيد إليه ما سعَى دائمًا إلى تحقيقه، وما تمنَّاه!

(٧)

وكأنما تظن أن الدنيا تحمِل في غايتها كل أنواع إنكار الذات..

عدم قبول النفس..

وجوب تغيير ما كُتِب عليك باعتباره وصمةَ عار..

أن تتمرد عليها وتصرخ ثائرًا..

أن تُظهِر حقيقتك..

أن تكُف عن التلون..

وما إن تفعل، حتى تنكشِف المرارةُ الطافحةُ في قلبك..

فيظهر الشيطانُ المريدُ في أبهى ثوبٍ تعبَّد فيه مُشرِكًا بالإله!

«لقد مات فرعونُ وجميع وزرائه، ونجى المؤمنونَ
بموسى وربه.. فعَن أي إلهٍ تتحدث؟ !»

الأرقم إلى السامري

خيطٌ رفيع..

ليلٌ شديدُ الظلمة حلَّ على الأنحاء، فسترَ العُصاةَ الذين خلَوا بمعصيتهم، ووَهب نسمات الصفاء للمنكسرين الذين خلَوا إلى ربهم، ومع اقتراب ساعةِ صلاة الفجر، وبينما يطغى الهدوءُ شامخًا تارة، ثم يشقُّه نباح الكلاب وعواؤها الذي تقشعِّر له الأبدان تارةً أخرى، فيتقلَّب بين الصمتِ والصراخ؛ يسير (إبراهيم) مرتديًا جلبابه صوب مسجدٍ صغيرٍ أُختير إمامًا له منذ عدة سنوات، والذي يُهمِل أحيانًا فتحَه، ويواظب في أحيانٍ أخرى على الفروض الخمسة كلها في قلبه، لا أحدَ يفهمُ عقليَّته المُعقدة. وصلَ بعد كبير مجهود، توقف أمام بابه، ففتحه ودلف إليه، ثم جلس بجانب المِنبَر، وشغَّل المذياع على محطة القرآن الكريم، كي يعلم من المُنادي في الأثير ميقاتَ صلاة الفجر، وما إن رُفع الأذان في المحطةِ أغلَقَ المذياع، وشرع في التكبير والجَهر بالأذانِ بدوره في مكبر الصوت..

بعد أن انتهى من التأذين، صلَّى ركعتين، ثم جلس منتظرًا ميعاد الإقامة. لكن لم يدخل مُصَلٍّ واحد إلى المسجد، مما زاد حنقَه، إلا أن ذلك يعزو إلى عدمِ فتحه المسجد في معظم الأوقات..

أقام الصلاة، ثم بدأ فيها وحده، وظل المسجد فارغًا إلا منه..

دقيقةٌ مرت راكضةً ثم ولج أحدهم مهرولًا، شابٌّ في الثلاثين من عمره، وقف إلى يمينه ودخل الصلاة معه، وقد بدا عليه الخشوع وتملكه البكاءُ في أثناء سجوده. ولما أنهَى صلاته وجلس مكانه يسبح، نظر إلى (إبراهيم) الذي لم يلتفِت إليه لحظة، وإنما غرق مع مسبحته يردد ذِكر الله. فتراجع الشاب وتردد كثيرًا قبل أن يُقدِم إليه، لكن واتَته الجرأة ففعل، ثم جلس بجانبه، ونظر إليه مُطرِقًا رأسه، وبصوتٍ متلجلج -بعد انتباه (إبراهيم) إليه- قال:

- اعذرني يا شيخ، محتاج أسألك سؤال.

ترك (إبراهيم) مسبحته، ثم دقق في ملامح الشاب بنظراتٍ جامدةٍ قائلًا:

- اتفضل.

وبسكون اللام الأخيرة، تشبثَت الرعشة بأوصالِ الشاب وصار لسانه يتخبَّط خوفًا، كأنما مصيبة وقعَت ويعجَز عن النطق بها، لكنه تماسك وقال بشفتين تَصْطَكَّان:

- أنا...

لم يستطِع، تمنَّى لو تُخسَف به الأرض قبل نطقها، فتوقف على الفور وأخذ يفكِّر ناظرًا إلى أسفل، ليقول (إبراهيم) آنِفًا:

- يا ريت بسرعة لإني عاوز أقفل المسجد.

رفع الشاب رأسه، وصوَّب ناظريه إلى عيني (إبراهيم) بوجهٍ كسَته حُمرة المعصية، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ مرتجف على استحياء:

- أنا زنيت يا شيخ، ومش عارف أكفَّر عن ذنبي ازاي، بس أنا تُبت، والله العظيم تُبت..

سكتَ لبرهة، ثم قال مُحاسِبًا نفسه مُقشعِرَّ البدن:

- أنا خايف من ربنا..

وما إن تفوَّهَ بها حتى انفجرت مدامعه ببكاءِ الندم، في حين ظلَّ (إبراهيم) يدقق فيه بملامحَ متحجرة، والأغرب تصرفه المريب الذي رمَى الرجل بصاعقة عدم الفهم والتعجب، إذ إنه نفرَ منه وقام من جانبه، فأغلقَ مكبر الصوت وأطفأ الأنوار وتوجه نحو باب المسجد.

شعر الشاب بالرُّعب من ردِّ فعل الشيخ، فركض إليه مهرولًا وأوقفه قبل خروجه، لسأله في وَجَل وارتعاد:

- هو ذنبي كبير للدرجة دي يا شيخ؟!

مال (إبراهيم) بجسده نحو حذائه فأمسكه وأخذ يضرب فردتيه ببعضهما بعضًا لينفض عنهما التراب، ثم قال دون النظر إليه:

- فيه أربع شهود؟

حاول الشاب أن يُدرِك المغزَى من سؤال (إبراهيم)، لكنه عَجِز، فقال متعجبًا:

- مش فاهم!

فكرَّر (إبراهيم) سؤاله ولكن بصورةٍ أكثر وضوحًا:

- فيه أربع شهود شافوك وإنتَ بتزني؟

ضيق الشاب عينيه مندهشًا من السؤال، إلا أنه أجاب على أي حال وحاول شرح موقفه:

- لأ، محدش شافني.. بس ده إيه علاقته؟! أنا باعترف إني زنيت، مش بثبت جريمة زنا!

رمى (إبراهيم) حذاءه أرضًا ليرتديه، ثم قال فيما هو واقفٌ على باب المسجد ناظرًا إليه:

- «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». وقفتك معايا واتهامك لسيدة بإنها زنت معاك ده اسمه رمي محصنات، وفيه ثمانين جلدة.. ما دام مفيش شهود يبقى مفيش زنا..

ما زالت قسمات العَجَب تتشكَّل وتَتَشعَّب على ملامح الشاب الذي وجد صعوبةً بالغةً في فهم كلمات (إبراهيم)، ولذلك اتخذ موقف الدفاع عن نفسه:

- أنا مش قصدي أرمي محصنات! أنا باعترف يا شيخ، أنا زنيت وندمان..

جذبه (إبراهيم) من يده ليخرج من المسجد، وبدوره ارتدى الرجل حذاءه في أثناء غلق (إبراهيم) الباب، ثم نظر إليه وربت على كتفه قائلًا:

- ما دام مفيش أربع شهود يبقى مفيش ذنب، اتطمن.

وتركه يصارع دهشته في مبارزةٍ بين صوابٍ موءود وخطأٍ مقصود، ورحل هكذا بسلامٍ بعدما أخرج مسبحته فهَمَّت لتتابع تسبيحاتها وتفرَّغ لسانه ليَنهجَ بذكر الله، ولم يلتفت خلفه لحظةً كي يرى مفعول كلماته على ذلك المهزوز الذي وقفَ متسمِّرًا كأن على رأسه الطير!

****

أصحاب السبت..

- يا قوم، إن موسى يأمرنا بألا نصطاد في يوم السبت، رغم أن الحيتان تظهر في البحر على مَقرُبةٍ تتبختر في ذلك اليوم، وتبتعد في بقية الأسبوع فيكون صعبًا اصطيادها.. نحن لن نعترض على حُكم رب موسى، لن نصطاد يوم السبت، ولكننا سنقيم الحواجز والحفر، فإذا قدمت الحيتان يوم السبت حاوطناها واصطدناها يوم الأحد، وبهذا لا نخالفُ الشرع.

قالها (محراب)، أحد سكان المدينة الساحلية التي يقطنها بنو إسرائيل، وهكذا تحايل على ما أمرهم به (موسى)، إذ إنهم طلبوا منه أن يجعل لهم يومًا يُصلُّون فيه ويتعبَّدون، فناجى ربه وعاد ليخبرهم أنه قد اختار لهم يوم الجمعة. إلا أنهم اعترضوا على أمره وأخبروه بأنهم يختارون يوم السبت، فصدرَ القرار الإلهي بأن تكون الطاعة والعبادة في يوم السبت، وبقية أيام الأسبوع للطعامِ والشراب والحياة الدنيا، ولكن الرضا لم يجد إلى نفوسهم طريقًا، فاستكبروا وتحايلوا على قوانين الله وغفلوا عن الاختبارِ الصعب الذي وُضِعوا فيه..

وقد خرج من بينهم (محراب) ليكون قشة النجاة بالنسبة إليهم، وها هو أقنعهم ليسلكوا طرقًا ملتويةً فيحتالوا على شرع الله. وبالفعل، حفروا الحفرَ وأنشأوا الحواجزَ واصطادوا السمكَ في يوم الأحد، واستمر الوضع لأسابيعَ يترأَّسهم فيها (محراب)، حتى حدثت الفاجعة، إذ نزل عقاب الله من السماء بأن يُمسَخوا إلى قردة فلا يتكاثرون، وأن يعيشوا حتى انتهاءِ أجلهم ثم يموتون.

****

حيٌّ راقٍ لا يسكنه سوى صفوة المجتمع، هادئٌ بلا ضجيج مزعج ولا ضوضاء مقلقة، تصطفُّ فيه عمائرُ شاهقة يصل علُوُّها إلى حد السحاب، صامتةٌ جميعها ومغلفةٌ بالسكون المُقبِض إلا واحدة، تلك التي حظيَت شقةٌ واسعةٌ فيها بساكنٍ يبدو عليه الثراء الفاحش، إذ غمرَها الأثاث الباهظ الثمن، وتزيَّن كل ركنٍ منها بما يُضفِي على الأعين الراحة والطمأنينة. في قلب تلك الشقة، غرفةٌ واسعةٌ تحوي فراشًا كبيرًا في وسَطها بجانبه كومود، وعلى طرفها مرآةٌ تعكِس كل جنباتها، وتشُقُّها شرفةٌ ذات ستائر من النوع النادر، في حين انغرس بين طيات أحد جدرانها مشغِّلُ موسيقى يبث النغمات والألحان لتشدو في أرجائها..

اعتدلت (سميرة) زوجة الشيخ (إبراهيم) فوق الفراش، لا ترتدي قطعة ملابس واحدة، عارية كما أنجبتها أمها، ثم تحركت صوب الشرفة المفتوحةِ على مصراعيها وأمامها الفراغ مُتجسِّدًا في هيئته، إذ لا مباني تعلو تلك العمارة الشديدة الارتفاع. وقفت أمام شرفتها ممسكةً بسيجارةٍ تفترسها بين شفتيها، فيما داعبَ الهواء مفاتن جسدها بعدما أغوته..

سرحَت للحظاتٍ متجاهلةً الموسيقى الهادئة، وقد شعرت بحريةٍ ليس لها مثيل ولم تشعُر بها من قبل. التقطت شهيقًا نقيًّا تغنَّت به رئتاها، ثم رمقت ساعة الحائط الأثرية المعلقة، لتجدها قد بلغت السابعة ليلًا. تراجعت بعينيها صوب الفراغ غير مباليةٍ بزوجها الذي يوشك على العودة إلى المنزل، ثم قالت بصوتٍ مسموع:

- أول مرة أحس إني نايمة مع راجل.

اعتدل النائم على الفراش بلا قطعة ملابس تستره، ولما جلسَ سحَب زجاجة خمرٍ مُلقاةٍ على الكومود، وارتشف رشفةً قبل أن يقول:

- تعرفي إنك شبهي!

ضحكت بصوتٍ خفيضٍ رقيقٍ كفتاةٍ لم تبلغ رُشدَها بعد، والتفتَت إليه شامخةً بجسدها قائلة:

- يزن، احنا مفيش طريق بنتلاقى فيه، إنتَ لك فكرك وأنا ليا فكري..

إنه (يزن)، الابن الأول لـ(إبراهيم)، ذلك الملحد المتكبر الجاحد على الحياة كلها. لم يستطِع مقاومة سحرها الذي جذبه من تلابيبه، فقال وهو يقف ساحبًا منشفةً كانت بالجوار فستر بها النصف السفلي من جسده:

- عيبِك إنك مبتعرفيش تقدري الأمور، أنام معاكِ ده معناه إني لقيت فيكِ حاجة مش موجودة في غيرك.

عادت بعينيها لتغرق في الفراغ، رافعةً يدها اليمنى التي تحتوي السيجارة بين أناملها، تغتصبها بين شفتيها من آنٍ إلى آخر، في حين تداعب الموسيقى أذنيها بلا كلل. ودون أن تلتفت هذه المرة، قالت:

- وإنتَ عيبك إنك مغرور.. مش معنى إني وافقت أنام معاك يبقى احنا شبه بعض، أنا بس حسيت معاك اللي محسيتهوش مع جوزي، حسيت بنفسي، وإني ست بجد، وده مش معناه إن جوزي وحش أو تقليل منه، هو بس ملغبط ومش مفهوم!

تنفس (يزن) الصعداء، وحاول تصنُّع الهدوء في أثناء قوله:

- لما نكون مع بعض، يا ريت منحاولش نجيب سيرة تالت ما بينا..

صمت للحظاتٍ فتحَ فيها درج الكومود، ليُخرِج سيجارةً ملفوفةً مُكتنِزةً بالحشيش، فأشعلَها وهو يقول:

- لما دخلت كلمتك على الفيسبوك أول مرة، كنت عارف إن هيبقى فيه بينا حاجة، ولما شوفتك عجبتيني، رغم إني مش مقتنع بالبتاع اللي بتلبسيه على وشك، ولكن فكرك بيميزك.. احنا شبه بعض، بنحب نكون قادة؛ أنا قائد مجموعتي، وإنتِ ليكِ مجموعتك الخاصة..

شدَّ من سيجارته هواءً محروقًا بالسموم، في حين استمعت إليه (سميرة) دون الالتفات، فأخذ يُدقِّق في تفاصيلها وقال:

- يا ترى كام حد انتحر بسببك؟!

ما زالت غارقةً بعقلها في الفراغِ أمامها؛ تشعر بالراحة التامة لوقوفها دون ملابس، كأنها طيرٌ ذو جناحين يُحلِّق في سماءِ الحرية، أو ما يدَّعون أنها حرية! لم تقف مرةً أمام (إبراهيم) كما هي بهذه الصورة، دون تغطية عورتها، إذ يعاملها كالجماد ولا يقدرها، لكن (يزن) عرِف جيدًا كيف يعامل الامرأة، ولذلك غرقت بين أحضانه لتعوِّض نفسها عنْ ما قاسَته قبلًا.

التفتت إليه وأولَت ظهرها للشرفة، فدغدغَ الهواءُ الآتي من الخلف جسدَها بنعومة، ثم ردَّت:

- عشرين تقريبًا!

تحامل (يزن) على قدميه، ثم استطرد متسائلًا:

- وكام حد متابعِك ومقتنع بكل اللي بتقوليه؟

اقتربت (سميرة) منه، لم تكتفِ بتلك التي انتهى أجلها بين نيران شفتيها، بل تناولت سيجارة الحشيش من يده، فسحبت منها الهواء بعميق الأنفاسِ وهي تقول:

- ممكن نقول مليون!

تحرك (يزن) ليقف أمام المرآة، ثم قال مندهشًا:

- مليون! عدد كبير مش قليل.

ثم التفتَ إليها، ونظر في عينيها قائلًا:

- الناس دي اقتنعت بأفكارك رغم إنهم ميعرفوش عنك أي حاجة غير فكرك اللي بتنشريه، وصورتك بالنقاب اللي حطاها، الناس دي محتاجة اللي يوجههم، ولما صدقِت لقت قائد زيك.. إنتِ بالنسبة لهم طوق النجاة اللي بينقذهم من العادات والتقاليد الدينية اللي بتبث لهم السموم في عقولهم..

أحسَّت (سميرة) في قرارة نفسها أنَّ (يزن) يرمي إلى صفة التشابُه بينهما، فأدارَت كلماته في عقلها قبل أن تقول:

- أنا مقتنعة بكل كلمة بقولها بعيدًا عن الأديان، بلاش تربط بيني وبينك، الفكرة كلها إني مقتنعة اقتناع تام إن الانتحار مش حرام، وبحاول أجيب أدلة على الكلام ده، أنا من حقي أنهي حياتي وقت ما أحب، وقت ما أحس إني خلاص مش قادرة أكمل، من حقي أختار طريقة موتي، مش لازم أفضل مستنية رحمة الإله علشان ياخد روحي.

أدرك (يزن) أنَّ (سميرة) تحتاج إلى أن يكون لها حيِّزها وفكرها الخاص، دون مُهاترات لن تفيد بشيءٍ سوى خسارتهما بعضهما بعضًا، لكنه معجبٌ بكل كلمةٍ تتفوه بها، ويشعر من دواخله أنها تُكمِله، ولذلك حاول أن يبتعد عن بؤرة المناقشةِ قدر الإمكان:

- رغم إن كل الكلام ده مرتبط ارتباط تام بالدين، بس خليني أحاول مدخلش معاكِ في النقاش ده، لأني أصلًا مش معترف بالدين، وكمان فخور جدًّا بتفكيرك، بس خليني أسألك سؤال استثنائي.. إنتِ ليه مانتحرتيش لحد دلوقتي؟

كأن (سميرة) قد اعتادَت الرد على هذا السؤال مرارًا..

- أنا الفكرة وأساس القاعدة، لو مت كل حاجة هتموت وهتنتهي معايا.

حاول (يزن) استفزازها ليفهم لُبَّ أفكارها وما يدور في عقلها، ولذلك أتبَعَ السؤال بآخر:

- وليه متكونيش خايفة ومش مقتنعة بكلامك؟!

ضحكت (سميرة) بصوتٍ عالٍ هزَّ صداه الأرجاء، فقد علمت ما يدور في عقل (يزن). سحبت نفسًا من السيجارة في يدها، ثم واصلَت النظرَ من الشرفة لتَعلَق في الفراغ مرةً أخرى، وقالت بثقة:

- متستفزنيش، أنا مش غبية علشان تلعب بعقلي، كل الحكاية إني مستنية الوقت المناسب، بعد ما يآمن أكبر عدد ممكن من الناس، وقتها ممكن أنفذ وأنا راضية.

ثم استرخت بعدما استبدلَت بغاز النيكوتين المحترق أوكسجينًا نظيفًا، وألقت بالسيجارة من الشرفة ليُحلِّق رمادُها في الهواء. وفي اللحظة ذاتها اقترب منها (يزن)، احتضنها من الخلف وقبَّلها من جبينها، فاستلْقَت على صدره مُحاوِلةً نسيان كل لحظةٍ مشقةٍ قاسَتها في حياتها، فيما ظلَّت ألحان الموسيقى تداعبهما بهدوء.

****

«لا تُرهِق عقلك بالتفكير، فلم يحِن وقتُ التفكير بعد..
سبعُ ليال.. ستُنَقِّي فيها روحك، لتسمو على جميع
الكائنات، فتكون جاهزًا لترتفع إلى منزلةٍ عظيمة..
النفسُ تحتاج إلى قتلِ الضمير واستئصالِ الشعور بالذنب،
والجسد يحتاج إلى ارتكاب المعاصي حتى يهدأ ويحُدَّ
من شهواته وميوله»

السامري إلى الأرقم

بداية الاستسلام..

لحظات صمتٍ قاتلة مرت عليه في أثناء وقوفه المهيب في غرفة مكتبه، إذ وقف ينظر إلى صورته المعلقة في واجِهة المكتب، في حين يتبارز عقله في معركةٍ ضاريةٍ ستنتهي بسقوط الكثيرِ من الأفكار المَيتة. تحرك ذهابًا وإيابًا، ثم تقدم نحو المكتب وأخذ يُجمِّع حفنةً من الأوراق فوق بعضها بعضًا، وحين انتهى همَّ بالرحيل، لولا أن فُتِح الباب بغتةً وولجَ منه رئيس الوزراء المصري قائلًا:

- العالم على وشك السقوط يا سيادة الرئيس، ومحدش هيقع عليه اللوم غيرنا، لازم نهرب.

التقط الرئيس المصري الكلمات بعنايةٍ فائقة، وابتسم ابتسامةً باهتة، ثم تحرك نحو منفذِ الخروج قائلًا:

- هنهرب من إيه يا سيادة الوزير؟! ده شيء ملناش يد فيه، ومع ذلك عارف إننا هنتحمل وصمة العار أمام الشعب، بس الهروب مش نتيجة، ده شيء أصاب العالم كله، هيحصل لنا إيه يعني! هنموت؟! ما كده كده كلنا هنموت.

ثم نظر إليه قبل الرحيل، وربت على كتفه وقال:

- كنت مثال للشرف، وبتفاخر إني كنت قائد لك، اعفِ كل الوزراء من مهامهم، وأغلق المبنى، وكل واحد يروح يعيش الباقي من عمره في بيته بين أولاده. ومتفكرش تسافر، المطارات كلها قفلت، البلاد كلها بتقع يا سيادة الوزير.. لنا الله.

تفوه بآخر كلماته، وابتسم في وجهه، ثم خرج من الباب متوجهًا إلى زوجته وأبنائه، فما عادت هناك دولة، ولا رئيس ولا حكومة؛ الحاكم الجديد تسلَّم منه الراية، وهذه المرة ليس شخصًا مَن يقود، بل فساد وانهيار يترأسهما الموت.

****

جلسَ (فارس) القرفصاء على فراشه بين جدران غرفته محتضنًا ساقيه وغارقًا بوجهه بينهما في البكاء، لا يشغَل باله سوى الحديث الذي دار بينه وبين الشيخ في مركز إزالة الشعر، وعقله يتردد دون توقف كأنه هو العدو اللدود يريد الفتك به. مأساةٌ غرق فيها دون معرفة سبيلٍ للخروج، قلبه يتقطع دون معين، لا يشعر بشيءٍ سوى الألم يتملَّك من كل ذرةٍ فيه..

«قُل لي بقى، ينفع تاخد سكينة وتكنس بيها شارع؟!»

أخذت الكلمات تتردد في عقله بلا هوادة، غير عالمٍ أيُّ الطرُق صحيح؛ ما تفوه به الشيخ من ترهات من وجهة نظره، أم طريق المِثليَّة الجنسية الذي يتبعه بكامل إرادته..

تحامل على قدميه حتى توقف، ثم نظر في مرآته والدمع يتساقط منه، تفقد جسده، وصار يتحسسه بأنامله، بدايةً من عنقه حتى سُرَّته، ثم توقف بغتة، فالتف وتحرك خارجًا من غرفته، نزل على درج القصر، حتى وصل إلى الساحة الواسعة في الأسفل، فوجد والده

(إبراهيم) جالسًا يشاهد فيلمًا على شاشة العرض الضخمة التي تتوسط القصر، وفي يده زجاجة خمرٍ يتجرعها..

وصل إليه (فارس)، جلس بجانبه، واحتضنه ودمعه ينهمر. انتبه (إبراهيم) وارتعش قلبه خوفًا، فضمَّه نحوه، وإذا بـ(فارس) يخرج من بين ذراعيه وينظر في عينيه، ثم فجَّر قنبلةً عقليَّة الصنع، صاعقةً لا يمكن تفاديها، لكن (إبراهيم) تقبَّلها بصدر رحب:

- أنا هعمل عملية تحويل جنسي.

صمتٌ أطبَق على المكان، ثوانٌ مرَّت حتى تمالك (إبراهيم) فيها ذاته لاستقبال المفاجأة ذات المعيار الثقيل، وقبل أن ينطق ردَّه، قال (فارس):

- كل حاجة فيا بتقول إن أنا بنت.

ثم أجهش بالبكاء بلا توقف. ربَّت (إبراهيم) عليه وحاول تهدئته، ثم قال:

- فارس، اهدا، احنا في بيت ديموقراطي قايم على الحرية، ده اللي علمتهلكم وإنتم صغيرين، ده قرارك لوحدك ومش لازم تاخد رأيي فيه، اعمل اللي يريحك، بس أهم حاجة تكون سعيد.. واستعد كويس لمواجهة العالم بقرارك ده.

وبعدها ضمَّه إليه ضمًّا شديدًا ليشعره بالأمان، فكفَّ (فارس) عن البكاء وكَفكفَ أدمُعَه مبتسمًا براحةٍ لم يعهدها من قبل.

****

في زقاقٍ ضيق، أمام كومةٍ من القمامة، ارتمى رجلٌ على جانبه الأيمن، رثُّ الثياب متسخُ الجسد غير مهندم، يبكي وقد تذكر كيف كانت أحواله منذ شهرٍ مضى، وذلك التحول الغريب الذي لم يتوقع حدوثه. كان فقيراً ولكنه مستور، والآن صار شحاذًا لا يعطف عليه

أحد، ومعدته فارغةٌ منذ ما يقارب الثلاثة أيام، ولسانه جفَّ من قلة الماء، حتى إنه ذات يوم تبوَّل ليرتشف من مائه كي يعيش..

تساقطت دموعه وبلَّلت الأرض تحته فكانت إشارة بدء انهيار البشرية جمعاء، ولم يعد يوجد قلبٌ رؤوفٌ كما كان فيما مضى، الحياة أضحت صعبة، غير عادلة، وقد انتهت..

ينتظر لحظة لقاء خالقه، ينتظر موته وصعود روحه، تلك رحمةٌ ستُغيثه..

دقائق مرت عليه في ليلته الموحشة، بطنه تؤلمه ونفسه يضيق، ولا معين سوى زمجرته الكئيبة وعينيه اللتين جفتا لكثرة ما هدرتا من مائهما..

حاول الزحف على الأرض، حتى اقترب من القمامة بجانبه، قلَّب فيها بيديه بحثًا عن الطعام، فلم يجد شيئًا سوى العفن. تقزز واشمأز وأفرغ ما في معدته، ليخرج فقط الهواء، ثم تنقل على قدميه الرخوتين، فصار يسقط تارة ويقف تارة أخرى، محاولًا التمسك بالحياة ورفض الرحيل بالموت..

وفي أثناء خطواته الضعيفة المتهشمة، هاجمت أنفه رائحةٌ نتنة، كأن جثةً قد تحلَّلت هنا، فالتفت حوله وتتبَّع الرائحة حتى نهاية الزقاق..

وفي أحد الأركان، اصطدمت عيناه بقطةٍ ميتةٍ منتفخةِ البطن، وقد طغَت رائحتها في المكان، فاقترب منها وجثا على ركبتيه. فكر للحظاتٍ طالت، قبل أن ينظر إلى السماء كأنه يترجَّى الخالق بأن يقبض روحه، ثم أمسك القطة بيديه الاثنتين، فضغط عليها لتنفتح بطنها، وبجسدٍ مرتعش، وبنفَسٍ مكتوم، أغمض عينيه، وقرَّبها من فمه، ثم قضم قضمةً تقتله برائحتها، وبعدما كاد يبتلعها، ألقى بالقطةِ أرضًا، وبصَق. ثم شرع يخرج ما في معدته، وصرخ ممسكًا ببطنه، ثم سقط أرضًا، وامتزج بكاؤه مع صراخه المهدور.

****

«العظمةُ في أن تعلَم، أن تفهَم، أن تكون على درايةٍ
كاملةٍ بذاتكَ وبكل ما يدور حولك»

السامري إلى الأرقم

الفاجعة..

جلس (إبراهيم) إلى طاولته المفضلة في مطعمه، منغمسًا في شاشة الكمبيوتر المحمول خاصته، والذي يعرض تسجيلًا مرئيًّا مُخِلًّا لأحد الوزراء، ولما انتهى من مشاهدة التسجيل، سحب الكمبيوتر في يده، وتحرك ضاغطًا على قدميه يحثهما على السير معنفًا الأرض محاولًا تجاوز ساحة المطعم الخاصة به، وبعد أن خرج، قفز في سيارته وألقى بالكمبيوتر على المقعد الخلفي، ثم استقبَل المقودَ وحلّق بعيدًا..

توقف في مرآبٍ عمومي بميدانٍ واسع، وركن السيارة فيه، ثم سحب حقيبته وخرج مهرولًا، توجه نحو حمامٍ عام، ولما ولج إليه غابَ خمس دقائق، ثم خرج وقد خلع هيئته مرتديًا عمامةً وجلبابًا فضفاضًا وممسكًا في يده مسبحة. وقف للحظةٍ يتلفت حوله يتأكد أنَّ لا أحد يراه، ثم رفع سماعة هاتفه المحمول ليُجريَ اتصالًا، وحين استجاب الطرف الآخر قال:

- أيوه يا سميرة، أنا في الطريق.

ثم خرجَ إلى الشارع على قدميه ممسكًا مسبحته متمتمًا بذكر الله، في أثناء إطراقه النظر إلى الأرض غاضًّا بصَره عن السيدات حوله.

****

تقلبت (يارا) ابنة (إبراهيم) على فراشها شاعرةً بجهدٍ جسديٍّ غير عادي، تحاملت حتى جلست ونظرت في ساعتها، فاكتشفت أنها نامت لأكثر من خمس عشرة ساعة. لم تكن هذه المرة الأولى، فمنذ خمسة أيام والأمر صار يتكرر يوميًّا على نحوٍ غريب. أحسَّت أنها على وشك أن تقيءَ ما في جوفها، فسارعَت إلى الحمام المُلحَق بغرفتها، اقتحمته وأفرغت ما في معدتها، ثم اعتدلت ونظرت في مرآتها تتفقد ملامح وجهها الذابلة. دارَت أفكارٌ جمَّة في عقلها مُهلِكةً إياها، لقد مرَّ أكثر من شهرٍ على تلك النزوة التي حدثت بينها وبين (سيف). تشعر بالتعبِ والأعراضُ لا تبشِّر بخير، ثم إن انقطاع الحيض جزَمَ النقاش، بالإضافة إلى تحجُّر ثديَيها على غير العادة، تلك أعراض حملٍ بكل تأكيد..

تكوَّمت حول نفسها في الحمام، حاولت استيعاب الأمر؛ كيف ستخبر أخاها (أدهم)، وأباها الذي زرعَ فيها ثقته؟! وماذا عن (سيف)؟!

التقطت نفَسًا أرادَ ألا يعود، ثم شعرت بتشنُّجاتٍ أسفل بطنها، فقلقت وقررت إجراء التحاليل اللازمة حتى لا تبني نظرياتها على أوهام.

****

في عصر زكريا..

حشدٌ عظيمٌ لقومٍ جبَّارين، بنو إسرائيل يظلمون ويتكبرون ويقتلون الأنبياء المرسلين، تجمعوا بأعدادٍ مهولة تحت راية واحدة، وهي قتل (زكريا)! هُم لا يطيقون حديثه الممل عن عبادة الله الواحد الأحد، فخرجوا والغضب يتملكهم، وقد عَمِيَت أبصارهم عن الحقيقة وسكن قلوبهم الشر والحقد والقسوة..

ساقهَم (هادر) خلفه بعد أن ملأ عقولهم بفكرة الانتقام والقتل وإراقة الدماء، حتى وصلوا إلى بيت (زكريا) الجالس في محرابه يدعو الله، وما إن سمع الأخير صوتهم وعلِمَ نيتهم، ركض مسرعًا فخرج من بابٍ خلفي، وهرب إلى حديقته متخفيًا خلف الأشجار..

اقتحموا المنزل باحثين عنه، قلبوا الأثاث رأسًا على عقب، وانتشروا باحثين في الآفاق..

وقف (زكريا) أمام شجرةٍ تشبه المنزل الصغير في تكوينها، فدلف بين جذوعها ليستتر عنهم، وجلس متواريًا بين أغصانها يسمع صليل خطواتهم ودوِيِّ صياحهم..

شقوا الحديقة بطغيانٍ جبار، وأخذوا يحرقون جذوع الأشجار، في حين ركض (هادر) كالمجنون يبحث عن مبتغاه، حتى وقعت عيناهُ على جزءٍ من ثوبِ (زكريا) يبرز من الشجرة، فنادى بني إسرائيل وأشار لهم إلى مكانه، فهجموا عليه وأحاطوه من كل اتجاه، ثم أحضروا منشارًا وشرعوا في نَشْر الشجرة من جذعها و(زكريا) بداخلها، فشطَروه إلى نصفين وأخرجوا جسده قطعتين وقدموه إلى (هادر) مهللين فرِحين بانتصارهم السحيق.

****

في قلب ساحةٍ واسعةٍ مليئةٍ بالكراسي المتراصة بجوار بعضها بعضًا، والتي تحمل مؤخرات النساء الثرياتِ من صفوة المجتمع، اللاتي يرتدين أثمنَ الملابس ذات الماركات العالمية ويضعن مساحيق التجميل الباهظة ثمنها، فيظهرن بجمالٍ مُصطَنع، مع تراوح أعمارهنَّ بين العشرين والخمسين، جلسنَ مستمعاتٍ إلى ما يقال أمامهن بتركيزٍ عالي الجودة لم يعهَدْنه في حياتهن..

وقد نُصِبَت أمامهن منصةٌ عاليةٌ فجلس عليها ثلاث سيدات ذوات مكانةٍ رفيعةٍ في المجتمع؛ على الطرف الأيمن زوجةُ رجلِ أعمال قد استولى على سوق العمل في جيبه، وعلى الطرف الأيسر زوجةُ وزيرٍ له مكانته في الدولة، وفي المنتصف (مارسلين) -زوجة (إبراهيم)-

المتميزة بأفكارها الخاصة، والتي لما أتاها دورها أطلقَت كلماتها مندمجةً في الحديث، إذ قالت:

- المجتمع رأيه إن الست فيها شيء معين ناقصها يمنعها إنها تقدر تحدد إمتى تخرج من البيت وإمتى ترجع من بره، مع إن مشكلة التأخير بره مش مشكلة كبيرة عند الراجل، يعني مش شيء غلط ولا شيء مؤذي للكائن البشري، إنما قاعدة تُطبَّق على المرأة فقط.. ودي مش حرية! وجود البنت بره البيت في وقت متأخر مش معناه إنها بتعمل حاجة غلط، وبعدين مين اللي قرر إن الأشياء الغلط بتتعمل بس بليل، احنا ممكن نغلط بالنهار عادي جدًا، المنطق بيقول إن الشيء الغلط لازم يكون غلط على الجنسين، مفيش أي شيء بيقدر يعمله الراجل ومبتقدرش تعمله الست يبرر التفرقة دي والمعايير المزدوجة، ومحدش يقول لي أصل الراجل بنيته الجسدية أقوى، إيه علاقة بنيته الجسدية بالموضوع؟! البطريق مبيقدرش يطير زي النسر لأن لونه أسود، أيوه البطريق لونه أسود، بس إيه دخل لونه بالطيران؟! وبعدين الفكرة مش بس في التأخير، هل البنت تقدر تدخن عادي؟ تقدر تلبس اللي هي عاوزاه؟ تقدر تنام بره البيت؟ هل هي حرة تقرر تجيب أطفال أو لأ؟ تسافر لوحدها؟ تعمل علاقات؟ تكون مطلقة؟ تدي جنسيتها لأولادها؟ هل فيه راجل بيحاول دايمًا يهتم بنفسه علشان مراته متبصش بره؟ هل فيه راجل بيقبل يفضل مع مراته الخاينة علشان ولاده؟ هل في راجل لما مراته بتخونه بيتقال له: «عادي، مجرد نزوة، ما كل الستات بتعمل كده، متخربش بيتك، علشان ولادك»؟! الراجل عنده خيارات كتير جدًا في مجتمعنا، لكن البنت لأ، البنت مجبرة تمشي في طريق واحد، ولو غيرت فيه أي شيء بينقلب عليها المجتمع. الغلط لازم يكون غلط على الاتنين، مش غلط بس على الست لأن العاهات والتقاليد بتقول كده. واحد كان عايش من ٣٠٠٠ سنة، ليه أنا أعيش على نفس أفكاره وعاداته وتقاليده؟ وأد البنات كان عادات وتقاليد، قتل الأطفال علشان نقدمهم قربان للآلهة كان عادات وتقاليد، المفروض ناخد من عاداتنا وتقاليدنا الشيء

المنطقي ونسيب الباقي.. بنربي البنت إنها لازم تتعلم تطبخ وتكنس وتغسل، لأنها لو مبتعرفش محدش هيتجوزها.. مش لازم الست تضيع عمرها علشان جوزها وعيالها، لكن لو ده قرارها ومبسوطة فدي حريتها، ولو قررت تبقى سيدة أعمال برضه حريتها، ولو قررت متتجوزش ولا تخلف برضه هي حرة، هي مش مجبرة علشان المجتمع بيقول كده.. المجتمع بيقول إن الست ممكن تخرج تشتغل وتساعد جوزها في مصاريف البيت، لكن الراجل ميساعدهاش في شغل البيت، احنا بنربي الولد من وهو صغير إن أمه وأخته هما اللي يعملوا له كل شيء، مع إن المنطق بيقول إن الإنسان لما يكبر لازم يبدأ يشيل مسئولية نفسه.. ولازم تفهموا إن أكبر عدو للمرأة هي المرأة نفسها، لما ترضى تكون ضعيفة ويتاخد منها حريتها، لما ترضى تفضل متجوزة واحد بيضربها ويخونها أو مش مبسوطة معاه لأنها خايفة من المجتمع، لما تقنع نفسها وتربي بناتها إن المرأة لا تستحق أن تتساوى مع الرجل، يبقى لازم تعرفوا إن المرأة هنا عدوة نفسها.. لازم نتحرر من عهر العادات والتقاليد، لازم نتحرر من المجتمع علشان نقدر نعيش طبيعيين مع بعض، احنا كسيدات مش عبيد، احنا عندنا القدرة نعمل أكتر من الراجل، ولكن المجتمع رافض يتقبلنا بالشكل اللي يليق بينا، وعلشان كده لازم نغير تفكيره العقيم بنفسنا.

صدرت كلماتها لاذعةً قويةً تُلهِب عقول كل المستمعات أمامها، واللاتي أشعَلن فتيل التركيز على أشدُّه، فأيَّدْنَها في فكرها واتَّبعنَ منطقها المُطبَّق، ودعَمنَ حرية المرأة التي تدعو إليها (مارسلين) كي تُحرِّر المجتمع، كما تزعم.

****

«للملاك ثوبٌ لا يشبِه أثوابَ البشر، فلتختلِف عنهم، كما الأرقَم دومًا مختلف.. تحرَّر»

السامري إلى الأرقم

اقتراب النهاية..

في أثناء الهدوء العاصف والسكينة المقلقة للروح إلا من أصوات الناس المعذَّبين بين جدران منازلهم الهادئة، وفي أحد الطرقات الموحشة، إذ كل الطرق أضحت قاتلة، ظهرت من العدم عربةٌ مُحمَّلةٌ بالقطط والكلاب الميتة، يجرها شخصٌ ويسير بها مناديًا، فأقبل الناس عليه من كل حدبٍ وصوب، ثم دقائقُ والتفوا حوله كالجراد، ووقف هو بجسده القوي العريض المنكبين أمام عربته، يناشد الناس لشراء بضاعته، وشرعوا بالفعل في إخراج الأموال من منازلهم، والإسراع لشراء أي شيءٍ لسد جوعهم، مهما كان..

بهظَت الأسعار، ورغم ذلك كان الإقبال على الشراء كبيراً، إذ تكالب الناس حول العربة يشترون، ويدفعون كل ما يملكون، حتى إن الرجل لم يجد مكانًا يضع فيه أمواله من كثرتها، فمن يملك مالًا أكثر يأخذ الذبيحة كاملة، ومن يملك الأقل -وهو بالأصل كثير- يأخذ ما يعادله من اللحم..

وفي وسط الغوغاء والحدث المهيب، خرج المساكين -الذين لا يملكون من الأموال شيئًا- من كل مكان، وحاولوا التقاط أي قطعةٍ من اللحمِ لالتهامها، أحاطوا بالرجل يرجونه ليعطيهم أي شيء، فرفض بحدة، ودفع أحدهم ليقع أرضًا. هنا انقضَّ عليه بقية الناس يضربونه، وانقلبت العربة بما تحمله من لحمٍ على الأرض، وتقاتل الناس مع بعضهم بعضًا لسرقة اللحم، هناك من استطاع أخذ قطعةٍ والهرب، وهناك من استطاع بقوته سرقة جسد كلبٍ كامل أو قطة، وهناك من يحاول ولا يحصل على شيء، حتى إن من اشتروا حاولوا الرحيل بغنيمتهم ولكنهم لم يسلَموا من المشرَّدين، وفي غمضة عين تجاوز عدد المتقاتلين حاجزَ المئة..

سقط عددٌ لا بأس به من الضحايا مضرجين في دمائهم، وقُتل صاحب العربة وغرق في دمائه، فيما سُرقت أمواله، وتقاتل الناس كالحيوانات لينولوا بعض طعامهم، واصطبغت الأرض بالأحمر القاني، دماءُ ضحايا أناس لم يسعوا سوى لسدِّ بطونهم التي تصرخ وتئن

من كثرة الجوع، فالحياة قسَت عليهم وأسدلَت ستار الحزن في حياتهم لتخبرهم أن الدنيا على وشك الانتهاء، أن اعملوا لآخرتكم! ولكنهم لا يفعلون شيئًا سوى سفك الدماءِ ومساعدة الفساد على الانتشار والتوسع ليلتهمهم جميعًا.

****

- طريق الإنسان المستقيم مُحاصَر من جميع الجهات، بظُلم الأنانية، واستبداد الرجال الأشرار، باسمه المقدس، باسم المحبة والإرادة الحسنة، سأرعى الضعيف خلال وادي الظلام، لمن حفظ أخاه بصدق، وأُلهَم الأطفال الضائعين، وسألقي بعقابي الشديد وغضبي العارم على أولئك الذين يحاولون التضليل، فيعلموا أنني أنا «الرب»، عندما أصُب غضبي على هؤلاء..

استهَلَّ البابا في الكنيسة بتلك الكلمات بادئًا بها خطبته، في أثناء تجمهر الحضور مستمعين إليه بخشوع، ومن بينهم (إبراهيم)، والذي جلس وسطهم مُسلِّطًا ناظريه صوب البابا، حتى غرق في بحر كلماته، واستمع إليها بعنايةٍ فائقة، وترك كل جوارحه خارجًا إذ لمست الكلمات دواخله. ودون إرادة منه، دسَّ يده في جيبه، وأخرج مسبحته، ثم شرع في التسبيح عليها وترديد اسم الله كمسلمٍ انتهى من صلاته لتوه!

ثوانٌ مرت حتى صبَّ الجميع أعينهم عليه غير مستوعبين؛ هناك من تفحَّص صليبه المدقوق على يده ليتأكدوا من انتمائه المسيحي، وهناك من كان يعرفه جيدًا وقد تعجب لتصرفه هذا، بعد أن علا صوته حتى وصلَ إلى آذان الحضور جميعًا، وقد وصل إلى البابا نفسه الذي وقف ناظرًا إليه بتعجُّبٍ واستنكار..

انتبه (إبراهيم) إلى انغماسِه المريب في التسبيح في مكانٍ كهذا، فتلفت بناظريه حوله، ليُصعَق بأعين الجميع تتفرَّسه، وقد امتلأت قسمات وجوههم بالغضب العارم. حاول

تفادي الأمر فلم يجد وسيلة، فما كان منه إلا أن تسحَّب مبتعدًا فيما هم ينظرون إليه، وركض فأسرعَ بالخروج من الكنيسة.

****

في ممرٍّ ضيق مُزيَّن على الجانبين بصورٍ للفنانين والفنانات الرُّوَّاد في الأفلام الأبيض والأسود القديمة، هؤلاء النجوم الذين تركوا بصمةً لن تزول من السينما المِصرية حتى لو بعد مئات السنين، سارَت (ماريان) ابنة (إبراهيم) متبخترةً في المنتصف، حتى وصلت إلى بابِ مكتب عُلِّقت عليه لوحة كُتِب عليها بخطٍّ عريضٍ «المُنتِج أدهم إبراهيم». ابتسمت قبل أن تدفع الباب وتدخل دون استئذان، فأبصرت (أدهم) جالسًا على كرسي مكتبه القابع في الوجهة وخلفه صورةٌ كبيرةٌ تجمَع أعظم فنَّاني الزمن الجميل، واضعًا القدمَ على الأخرى ومُسلِّطًا ناظريه نحو شاشةٍ كبيرةٍ تعرض له فيلمًا من إنتاجه لم يُعرَض في السينمات بعد، وقد انغمس فيه يتابع كل أحداثه بتركيزٍ شديد..

وما إن ولجت (ماريان) حتى جلست على الكرسي المقابل. وحين التفتَ إليها، أطفأ مشغل الفيلم، ثم ابتسم قائلًا:

- وحشتيني.

ردت عليه بدلالٍ مُصطَنع:

- لو وحشتك كنت سألت..

ضحك ومدَّ يده فوق مكتبه مشيراً قائلًا:

- إنتِ شايفة بنفسك زحمة الشغل.

لم ترد عليه، فحاول فتحَ حديثٍ آخر متجاهلًا الأول، فالأهون عليه أن يهاجر تاركًا إياها ليتجنَّب نكدها..

- على فكرة، قرأت المقال بتاعك الأخير، إنتِ مش هترجعي غير لما يجرا لك حاجة..

جحظت (ماريان) عينيها عن آخرهما، ثم نظرت إليه قائلة:

- خلي الناس تفوق.

ضحك (أدهم) متعجبًا، ثم تحامل على قدميه ليقوم وهو يقول:

- بقى السادات خاين؟!

أشارت بيدها تأييدًا على ما كتبت، وقالت:

- آه، وعميل إسرائيلي كمان.

تقدم بخطوات ثابتة، فجلس على الكرسي المقابل لها قائلًا:

- يا بنت المجانين، بطلي لعب في التاريخ يا ماريان.

أشاحت (ماريان) بناظريها، ثم قالت بصوتِ المعترض:

- ده مش لعب في التاريخ يا أدهم، دي حقايق لازم الناس تعرفها.. وبعدين خليك في الأفلام بتاعتك..

مد يده ممسكًا يديها، وجذبها نحوه متفوهًا:

- لا خلينا في المهم!

نظر في عينيها، غرق فيهما، واستشعر من دواخله أنها اللحظة المناسبة، وحين دقَّقَت هي الأخرى في عينيه تخبطَت فيهما كالموجِ دون أن تشعر، وما إن تاهَت فيه حتى نزعها بقوةٍ قائلًا:

- تتجوزيني؟!

صُعِقت من الكلمة، فسحبت يديها من بين قبضتيه قائلة:

- إنتَ مجنون؟!

جحظت عيناه من رد فعلها، وحاول الفهم، لكن لم تتركه في حيرته كثيراً، فقامت من كرسيها وأعطته ظهرها وهي تقول:

- إنتَ نسيت إنك مسلم وأنا مسيحية!

لحقها ووقف خلفها في أثناء خروج الكلمات من فمه:

- وإيه يعني؟! مش أول اتنين يتجوزوا بعض بالشكل ده!

التفتت إليه، ثم قالت معترضة:

- في مجتمعنا ده الدنيا هتتقلب علينا.

أمسك يديها، ضغط عليهما بقوةٍ ليبث فيها الأمان وهو يقول:

- وإيه المشكلة لما نواجه؟

سحبت يديها مرةً أخرى، واستدارت مبتعدةً عنه..

- أدهم، أنا بحبك وبموت فيك، وأتمنى فعلًا أعيش عمري معاك، بس أنا فكرت في الموضوع ده كتير، وخُفت.

صاح بصوتٍ عالٍ علامةً على اشتداد حنقِه وغضبه:

- بلاش ضعف، ولو خايفة قوي كده، ممكن نتجوز في السر لحد ما نشوف حل..

التفتت إليه، فاقتربت منه والتصقت به، ثم احتضنته بين ذراعيها وهي تقول:

- طيب ممكن تسيبني شوية أستوعب بس اللي إنتَ طلبته ده وبعدين أرد عليك؟

خرج من بين أحضانها، وتقدم صوب كرسي مكتبه، فجلس عليه ليقول آنفًا:

- مع إني عارف إنك بتدلعي، بس ماشي، مش هاعترض، اعرفي بس إني مبحبش أستنى كتير.

عادت إلى كرسيها المقابل للمكتب غاضبةً ثم نظرت إليه في اعتراض:

- بلاش أسلوب سي السيد بتاعك ده علشان مش هينفع معايا! يومين وهرد عليك، لازم أعمل حاجة بس قبلها.

صمتٌ طال زمنه إلى دقيقةٍ ليستوعب كلٌّ منهما الموقف، ثم التقطت (ماريان) نفسًا عميقًا ونظرت إليه متسائلة:

- عجبتك البنات اللي جيبتها لك تعمل المشهد؟

اعتدل (أدهم) في جلسته وحاول أن يبدو طبيعيًّا، ثم تذكَّر ما قاله له والده قبلًا عن ذلك الموقع الإلكتروني البذيء الذي سيَدِرُّ عليه دخلًا عظيمًا، فسكت للحظات، ثم قال بعد تفكيرٍ مُضْن:

- كويسين.. تعرفي تجيبي لي بنات ركلام، تعمل اللي يطِّلب منها بالفلوس من غير ما تسأل ولا ترفض؟

ضربت يده ووقفت قائلة:

- يابني هو حد قال لك عليا إني شمال!

وقفَ هو الآخر وقال مردفًا:

- تعرفي ولا لأ؟!

ضحكت، ثم فكرت قليلًا في العائد المادي الذي ستكسبه من هذا الأمر. ثم إنه أمرٌ سهل، إذ إن لها علاقات واسعةٌ ببعض القوَّادين في البلدة، ذلك لأنها قد انغمست قبلًا لمدة سنةٍ كاملةٍ مع صديقة لها تعمل صحفية، والتي كانت متفوقةً جدًّا في عملها، وقد تفاعلت معها (ماريان) في بعض اللقاءات مع فتيات الليل بحجة التعلم منها، لأنها تدرس

في كلية إعلام. تحب (ماريان) الاستفادةَ من كل شخصٍ يقابلها حتى لو كانت مقابلةً عابرة، ولهذا استطاعَت تكوين علاقاتٍ مع هؤلاء القوم وساعدوها في عملها مع (أدهم) من خلال توفير الفتيات ليُؤدِّين المشاهدَ الهابطةَ في أفلامه التي تؤذي الشباب والجيل بأكمله. ربما الأمر الآن ينتقل إلى مستوى أشد فظاعة، لكنها أيضًا ستشارك، فهي تعشق المال كعينيها. تنفست الصعداء ثم قالت:

- أعرف، بس كل حاجة بحسابها.

رد (أدهم) على الفور كأنما توقع ردَّها المعتاد:

- اللي هتطلبيه هتاخديه..

التفت خارجةً من المكتب وأشارت إليه لتقول وعلى وجهها ابتسامة نصر:

- خلاص اعتبرهم عندك من النهارده.. باي.

وأغلقت الباب خلفها، فيما جلس هو يفكر ويعيد في رأسه كلامَ والده عن ذلك الموقع البذيء، فهو دائمًا يطمح إلى أن يكون له كيانٌ منفصلٌ عن والده، إذ إن أمواله لا تزال مختلطةً مع أموال أبيه حتى هذه اللحظة، ولكن بفكرة ذلك الموقع سيستقِل بنفسه استقلالًا تامًّا ولن يحتاج إلى أحد، بل سيكون مليونيرًا بضغطةٍ من إصبعه ودون بذل أي مجهود.

****

قارون..

في مصر، وقبل هروب بني إسرائيل من (فرعون) الجبار، وقف (قارون) أمام مرآته الذهبية التي تعكس هيئته بكامل زينته؛ الحليُّ والماس يتدلَّوْن من ثيابه فيمنحونه بريق

عظَمةٍ فائقة، وبجانبه فتاتان جميلتان تُرتِّبان ملابسه وتضبطان مظهره، إذ سيخرج الآن لملاقاة قومه، وهو الذي لا يقابلهم إلا برداء التعالي والاستكبار..

دلف إليه وزير أمواله في تلك اللحظة، وخلفه مجموعةٌ من الرجال الأشداء يحملون مفاتيح خِزَنه الضخمة، فأنزلوها بجانب فراشه، إذ إنه لا ينام إلا وهي بجانبه، ثم خرجوا. حينها وقف الحارس وقد أحنى رأسه في تبجيلٍ له وقال:

- تتراقص الكلمات تذمُّ فيكَ على ألسنة بني إسرائيل، يقولون إنكَ بغَيْت عليهم وظلمتهم ونهَبْت أرضهم وخيراتهم، وأنك لا تعطي الفقير حقه وتستولي على جميع أموالهم وكنوزهم.

دفع (قارون) المرآة فسقطت أرضًا، ثم التفت إلى خادمه، وقد امتلأت عيناه بالشر المَقيت، وقال غاضبًا:

- بنو إسرائيل عبيدٌ لا يملكون قطعةً ذهبيةً واحدة، منافقون، يعبدون فرعون ويتبعون موسى، فليناجوا ربهم ليحكم بيننا إن كان لهم حق.. إنهم يكرهون من هو أفضل منهم، تُقلِقهم فكرة أنني منهم وأمتلكُ كنوزًا تعادل عشرة أضعاف كنوز إلهِهم.. وقد أوتِيت من العلم والقوة ما لا يملكه بشر، وبعزة فرعون لأَفْتِنَنَّ نفوسهم ولأُغرِقَنَّهم في البغي والمعاصي، ولأُجبِرنَّهم حتى ينولوا الإحسان والنعمة مني.. أنا الأعلى منهم، فليخدموني مهما حيَيْت.

فور إنهائه حديثه، أمر خدَمه بأن يصنعوا له رداءً من الذهبِ والماس، وبعدما انتهوا من صنعه ارتداهُ في يومِ احتفالٍ عظيم، وأمر الخدم والحشم بالتجمع حوله، فالخدم يخدمونه والحشم يدافعون عنه بألسنتهم المُخادِعة في المجالس فينافقون ويكذبون..

وخرج (قارون) في الاحتفال بكامل زينته، فطارت قلوب بني إسرائيل عند رؤيتهم إياه، وتمنوا لو أن لديهم مثل ما أوتي، وأحسوا أنه في نعمةٍ كبيرة. فبلغت فتنة الزينة

ذروتها، وتهافتَت أمامها النفوس وتهاوَت، حتى كفر بنو إسرائيل أمام سحر (قارون)، فوقف أمامهم متفاخرًا بنفسه، إذ أَضَلَّ قومَه وفتنَهم ليزدادوا كُفرًا.

(٨)

عزفتُ سيمفونيةَ المعصية على أوتار مشاعرهم الهشة وإيمانهم المهترئ الضعيف..

زيَّنتُ لهم الدنيا متلألئةً في ثوبِ البقاء والتمسك بالحياة وعدم التصديق بفردوسِ النعيم بعد أجَلٍ قريب..

وكنتُ الملاكَ المرُسَل من الإله كي أرشدهم إلى طريق الصواب فيغفِر لهم..

فتعرقلوا جميعًا لتنغرس أقدامهم في ملذاتِ الهوى طامعين!

«رأيتكَ وأنتَ تقبض قبضةً من الرمال وكأنها الذهب،
ورأيت ذرّاتها تتناثر على أشياءَ لا تتحرّك فتدُب فيها
الروح.. أتريدُ أن تنعمَ بالكنز وحدك؟ !»

الأرقم إلى السامري

النفس الملُوَّثة..

في شقةِ (أم أحمد) التي تعتلي شقة (إبراهيم) المسيحي، جلست للتسامُر والضحك (أم أحمد) و(فريال) زوجة (إبراهيم) وجارتهما في الحارة ذاتها (أم عمرو)، وقد توالت الأحاديث فيما بينهنَّ عن الحارة وسكانها بنميمةٍ لا تنتهي. وفيما هُنَّ جالسات أمام الملوخية ليُقطِّفنها ويُخرِّطنها حتى تطهوها (أم أحمد)، مكثت (فريال) لا تريد الرحيلَ منتظرةً صحنًا منها كي تأخذه معها وتلتهمه وحدها في شقتها..

وفي أثناء الحديث والكلام المتفرع، أفصحَت (فريال) عن فكرةٍ هاجمَت عقلها:

- والله يا أختي إنتِ وهيَّ، أنا عاوزة أعمل جمعية أقبضها التاني ولا التالت أجدِّد بيها الشقة، لحسن معندناش بيبان على الأوض، وكمان الحمام بايظ والمطبخ والدهان واقع، الواحدة مش عارفة هتلاحقها منين ولا منين.

انفجرت (أم أحمد) من الضحك وهو تقول:

- يعني يا فريال، يوم ما هندخل جمعية هندخلها معاكِ إنتِ؟! ده إنتِ الجنيه معاكِ بيصرَّخ قبل ما يروح إيد تانية!

خبطت (فريال) على كتف (أم أحمد) معاتبةً وقالت:

- والعدرا ظالماني! وبعدين دي حاجة حلوة، معناها إني هحافظ على الفلوس ومش هصرفها.

هنا شقَّت الحديث بينهما (أم عمرو) معترضةً على القرار:

- لا شكرًا ياختي، أنا هدخل جمعية مع أم ولاء اللي في آخر الحارة، كلمتني النهارده وقالت لي فيه جمعية هتقبضها عشر تلاف جنيه، ودي ست مضمونة بدخل معاها دايمًا..

صُعِقت (فريال) من الرقمِ المهول، وكاد أن يخنقها ما لا قدرة لعقلها على تصديقه، فجحظت عيناها وهي تقول بصوتِ المندهش:

- عشر تلاف إيه؟!

سكتت على الفور لتأخذ فرصةً لاستيعاب ما يُقال، ثم اعتدلت في جلستها واقتربت منها في محاولةٍ لضمِّهما إلى صفها:

- بصي هنعمل جمعية سوا وهقبضك إنتِ الأول وأم أحمد التاني، وأنا هرمي نفسي في الآخر، ونشوف أم جرجس بالمرة وأم دميانة وكام واحدة تدخل معانا.. وإديكوا معايا في البيت، إيديكوا على إيدي ومش هنروح بعيد عن بعض.

صمتٌ طال أَمَدُه انتظرت فيه ردَّ إحداهما، حتى خرجت الكلمات من (أم أحمد) لتنتشلها من بئر حيرتها:

- والله فكرة، مع إني مش مطمنة لك يا فريال.

تصنَّعت (فريال) المسكَنَة وحاولت التماس الرحمةِ في قلوبهم وهي تقول في رجاء:

- على طول ظالمينّي، والعدرا ما هعمل حاجة، أنا بس عاوزة أجدد البيت، إبراهيم شقيان وطالع عينه في الشغل، واللي جاي مش مكفي اللي رايح، أقفوا جنبي.

اقتربت (أم عمرو) منها واقترحت عليها اقتراحًا آخر لعدم اقتناعها بما يدور في خُلدِها:

- طيب ما تدخلي مع أم ولاء، وأخليها تقبضك اسم قريب.

تراجعت (فريال) آنفة وقلبت معالم وجهها، لتقول بنفور:

- مبحبهاش الولية دي، بتعاملني وحش، والصراحة بحسها بتعمل كده علشان أنا مسيحية وهي مسلمة!

ردَّت (أم أحمد) لتُبرِّر فعل صديقتها القديمة وحتى لا تشتعل فتنةٌ بسبب كلمةٍ لا أساسَ لها من الصحة:

- أسلوب أم ولاء كده مع كل الناس، مش إنتِ بس.

اقتربت منهما (فريال) وحاولت مُجاراتَهما على ما تريد أن تفعل حتى تكسبهما في صفها:

- خلاص يبقى نعملها سوا، والمسيح الحي فلوسكم في أمان معايا.

زفرت (أم عمرو) بالضيق، ثم التقطت نفسًا مُحمَّلًا بشذرات التفكير، وبعدها نظرت إليهما في أثناء تفرُّس (فريال) لها، ثم قالت:

- ماشي، نجرب.. مع إني مش عارفة مين ده اللي هيقتنع ويدخل جمعية مع فريال.

تهلَّلت أسارير (فريال) وأطربَت الزغاريد في قلبِها، ثم استكانت في جلستها ونظرت إليها قائلة:

- متقطعيش بس..

ثم تحاملت على قدميها بصعوبةٍ بالغةٍ نتيجة جسدها البدين في محاولةٍ للوقوف، وما إن نجحت حتى تقدمت صوب الباب وتمتمَت:

- أما أروح أشوف أم جرجس وأم دميانة يدخلوا معانا..

صاحت (أم أحمد) متعجبةً من تلك المخبولة:

- ما تقعدي يا فريال، مستعجلة على إيه؟!

التفتت إليهما، ثم قالت بابتسامةٍ واسعة:

- هاجي لكم تاني، تكونوا حضرتوا فلوس الجمعية.

ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها، وتركتهما والعُجاب مرتسمٌ على قسمات وجهَيهما، لم تَفُت دقيقةٌ واحدةٌ على طرحها فكرة الجمعية وها هي تُطالِب بها، هذا الموقف جعلهما تندمان على موافقتهما، لكن فات الأوان.

****

في وسط المدينة، وتحديدًا في أحد الطرقات الجانبية، هرول الطبيب (عزت) ضارِبًا الأرض بقدميه، نحو صيدليته التي تبعد عنه الآن بنحو بنايتين، وصل إليها وأحنَى جسده ليلتقط أنفاسه، ثم أخرج مفاتيحَ الباب من جيبه، ففتحها، ثم دلف إليها وأغلق بابها..

أنار الأضواء بأكملها، وسحب حقيبةً سوداء ضخمة، وركض بين الممرات يملأها بالدواء السائل، حتى إنه لم يترك شيئًا حلو الطعم إلا وأخذه. وبعدما انتهى، خرج من الصيدلية وأغلقها، ثم ركض نحو منزله بأقصى قوته معلقًا الحقيبة على كتفه، حتى وصل إلى باب شقته، فتحه سريعًا وأغلقه خلفه..

وقف أمام الباب لاهثًا، ثم أنزل الحقيبة أرضًا، ونادى زوجته بصوتٍ عالٍ، لتتحرك نحوه بقدمين ضعيفتين، وإذا به ينظر في عينيها قائلًا:

- قدرت أتصرف في حاجة نشربها.

جثَت على ركبتيها لاهثة، فتحت الحقيبة، وأخرجت ما بها من علب الدواء باحثةً عن الماء، ثم نظرت إليه متسائلة، ليقول مطمئنًا:

- افتحي أي علبة واشربي، بس متاخديش كتير.

ثم تركها بعلامات استفهامها، وتوجه نحو كرسي قابع في إحدى الزوايا، جلس عليه وتحاشى النظر إليها، وركز بصره في ناحيةٍ أخرى، لتسقط دموعه غصبًا وتغسِل وجنتيه، في حين تغلغل القهر في قلبه لينهش ما تبقى له من شعورٍ حسن.

****

في أحد الطرُقات الواسعة، في ميدانٍ عامٍ بوسط البلد، مشى (إبراهيم) مُسبِّحًا على مسبحته مُهلِّلًا ومكبرًا، وقد غرق معها مطأطئًا رأسه خاشعًا ليغُض بصره عن السيدات، حتى استوقفه أحدهم قائلًا:

- لو سمحت يا شيخ، متعرفش أروح مسجد الرحمن منين؟

توقف مكانه، انتبه إليه، تفرَّس ملامحَ وجهه، وبدا كأنه يفكر في شيءٍ ما. لحظاتٌ مرت والرجل ينتظر رده، حتى أشار (إبراهيم) بيديه صوب كنيسةٍ تقع على أعتاب الشارع، ثم أكمل تسبيحه وسارَ راحلًا، ليخبط الرجل كفًّا على الأخرى مستغربًا من ذلك الشيخ المجنون!

****

توقف (فارس) أمام بنايةٍ شامخة، ولجَ من بابها، وصعد بضعة أدوار بواسطة المصعد، فدخل إلى غرفةٍ تقطُن في أحد الطوابق. قابلته ممرضتان، سلمتاه رداءً أزرق وخرجتا،

فخلع ملابسه كاملة، ثم لبس الرداء الذي تسلمه، ووقف متوترًا مرتعشًا، حتى دخل طبيبٌ في عقده الخامس، سحبه من يده، ودلفا معًا إلى غرفة عمليات..

استقبله طبيب التخدير بحقنةٍ ضخمة، حقنةُ التخدير، فرشقَها في وريده، في حين أخذ يرتعش هو جاحظًا العينين، ليغُط بعدها في نومٍ عميقٍ دون إرادةٍ منه..

ثم دلف طبيبٌ آخر، جرَّد (فارس) من ردائه الأزرق، وتناول أدواته وشرع في تلك العملية الصعبة التي ستأخذ منه ساعاتٍ طوال، عملية التحويل الجنسي.

****

«أنا لا أريد جموع الناس، فوَقتي لم يحن بعد.. كل ما
أريده في هذا الوقت هي تلك الروح التي ظلَلتُ أمدًا
أبحث عنها، حتى وجدتها وقد تاهَت في جسدك»

السامري إلى الأرقم

الملاك..

حلَّ الخراب على كل البلاد، فما عاد يوجد مكانٌ لإنسان ولا لحيوان، انقراضٌ تامٌّ وشيكٌ لكل كائن حي، عدد الوفيات يتصاعد يوميًّا، حتى إن الناس يتداعون أمواتًا في أثناء سيرهم دون أن يشعروا..

رائحة العفن النتن تنتشر بين الأرجاء معنفة الأنوف، الجثث تتراكم ولا أحد يُعيرها انتباهًا، حتى إن السكان هرعوا هاربين من منازلهم ليسكنوا الصحاري والأماكن الفارغة، وذلك بعد اشتعال الحرب الأهلية، إذ أضحى الجميع يقتلون بعضهم بعضًا، وسرقة الطعام

والشراب من المنازل أصبحت مهنةً يمتَهِنُها صاحب الجسد القوي القادر على ممارستها، ولا شعور في نَفْس بني آدم سوى الخراب والبحث عنْ ما يحثُّهم على إكمال الحياة..

أوشكَت الأنهارُ والآبارُ والعيون والمحيطات على الجفاف، انحسَر النيلُ ولم يعُد به سوى بضع قطراتٍ من الماء، وبذلك كادت تنهى مهمة (الأرقم) الأولى، وهي نفاد الروح من الأرض، إذ إن روحها الماء، ومع فنائه يرحل كل شيء، وقد كان الخراب أسهل ما يكون..

اختفى (الأرقم) منذ ذلك اليوم ولم يظهر، تناقلت الأخبار صورته وتوسعت علامات الاستفهام عنه، في حين كرَّسَت الدول العالمية جنودها للبحث عنه، ولم يحدث شيءٌ سوى سقوطِ معظمها موتى نتيجة عطشهم للماءِ وانعدام الطعام..

العالم يواجه نهايته، ساعته تقترب وقد ارتسمَت في الأفق. يا ترى، ما القادم؟ نهاية الحياة على الكوكب، أم يوجد الأغرب في جعبة (الأرقم)، أم سيستمر اختفاؤه؟!

لا شيء حقيقيٌّ هنا سوى الموت، هو الحقيقة المُطلَقة الوحيدة التي يواجهونها بقلبٍ منفطِر وهم مصدقون من دواخلهم أنها النهاية. فالنفس لا تميل سوى إلى الموت، هو الراحة الأبدية لكل قطرةِ عذابٍ يعيشونها، ولا رحمةَ إلا بالموت. فليموتوا وهم راضون، سيتقبلون المصيرَ المكتوب، فالعذاب مهيبٌ لا يتحملونه، وقد أصبح دعاؤهم الوحيد هو دنوُّ الأجل، وها هو يتحقق تِباعًا.

****

عبث الشيخ (إبراهيم) في دولاب غرفته ليُخرِج جلبابًا يرتديه، فوقَعت عينه على هاتف محمول بين ملابس زوجته، دقق فيه، وتعجب للحظةٍ رغم شعوره بوجوده من قبل. انحنى عليه وأخذ يُقلِّب فيه خلسة، فرأى رسائلَ كأنها بين رجلٍ وزوجته، وبالفعل كانت بين (سميرة) وابنه (يزن). لم تهزه أي ذرةِ مشاعر، ولم يُفكر للحظة عن استحالةِ تلك

العلاقة، خيانته ومع ابنه، إنه الجُرْم الأبشع في تاريخ البشرية، لكنه قابله ببلادةٍ ولم يُبدِ أي انفعال، كأن الأمرَ عاديٌّ لا مشكلة فيه..

سمع باب الشقة يُفتَح، فأعاد الهاتف إلى مكانه ورتَّب هيئة الملابس، ثم هرول إلى فِراشه وجلس عليه. في لحظتها ولجَت (سميرة) من باب الشقة، تقدمت نحو الغرفة، وما إن لاقته حتى قالت:

- أحضِّر لك العشا؟

نظر إليها للحظات، وقد سرح بعقله بعيدًا، ثم نحَّى عنها وجهه وقال:

- كلت.

ثم قام متحاملًا على قدميه، فمرَّ من جانبها ودلف إلى الحمام كي يتوضأ ويُصلي العشاء التي فاتته، فيما لم تُبدِ هي أي سُخط، إذ قد اعتادَت هذه المعاملة الجافة.

****

في عصر سيدنا عيسى..

بين جنبات قصرٍ مهيب، وفيما يداعب الهدوء الموجودات، جلس (إليانور) في صحبة وزرائه تحت سقفه العتيد، إلى طاولة حربه العظيمة، وصاح في وجوههم بغضبٍ دفين:

- إن معجزات عيسى تنتشر في الأرجاء، وبلغَني أنه صار حاكمًا لليهود، وسيُهدِّد عرشي عمَّا قريب، وأنتم ها هنا تنامون على فُرُشِكم وتحتمون من البردِ أسفل فراءِ الحيوانات الناعم، ولا تبالون لسقوطي! فلتقتلوا مَن يهدد ملِكَكُم.

هاجَت المملكة كلها بعد قرار الملك، وشكَّل الوزراء جيشًا يبحث عن سيدنا (عيسى) لقتله، وقد كان له أتباعه من الحواريين، فطالَهُم وعيد الملك وقُبِض عليهم وتم تعذيبهم

حتى كفَر واحدٌ منهم، وعاشَ الناس في عذابٍ مهيب لمدةٍ طويلة، تحت راية حاكم روما الظالم، والذي هتك باليهودِ ولم يترك منهم شخصًا إلا ومسَّه عذابه، وذلك فقط لأنه شعر للحظةٍ أن عرشه مُهدَّد بالفناء، وقد كان هذا خبرًا كاذبًا من أعداءِ (عيسى) الذين يهابون انتشار قوة معجزاته في الأرجاء، فيضحون لا قيمة لهم، ولذلك أشعلوا الفتنة بينه وبين حاكم الروم.

****

- اتجوزيه، بس في السر، لو أبونا عرف هتبقى مصيبة، أنا خايف عليكِ.

تفوَّه (إبراهيم) بتلك الكلمات حاملًا صورةَ (أدهم) ابنه بين أنامله، بعدما أحضرتها له (ماريان) وشرحَت له علاقتها بذلك الشاب المسلم. لم يأبَه لحظةً لأُخُوَّتهما، ولم يشغل باله مَسيحيَّتُها وإسلامُه، والأهم مدى فظاعة تلك العلاقة الكارثية بين الأخ وأخته، فقط وافق على الأمر، بكل برود، كأنه النهج السليم!

****

النهاية..

صوت الهدوء المُقلِق الذي يبعَث في الأبدانِ الخوفَ المريع..

الفراغ..

التراب الزاحِف على الجدران..

الهواءُ الهادرُ المحمَّل برائحة الموتِ العفنة..

الخراب..

الطرقات حزينة وذِكراها صارت أليمة لما آل بحالها..

الرهبة هي ما أضحَت عليه أحوال الحياة..

لا طوقَ نجاة، ولا صراخ..

ولا انتفاضة ولا كلمة تتناقل في الأرجاء..

نهايةُ العالم..

بين جنبات الطرقات، تلصَّصَ شبحُ الموت على الموجودات باحثًا عن حياةٍ يقتنصها، فلم يجد..

إلا القليلَ للمعافرة.

****

قبلًا..

أوشكت مياه الأنهار والمحيطات على الجفاف، ماتت الحيوانات كلها فما عاد للطعامِ وجود، ولا حتى لمياه الشرب عدا القليل الذي يحتاج إلى تكبُّد العناء المرير للحصول عليه. تيقَّن الجميع أنها نهايةُ العالم، أن القيامة على وشك الفتكِ بهم، ورغم ذلك لم يستطِع شخصٌ التماسَ الصلاة أو حتى الدعاء؛ الكل يبحَث في دنيا الموتِ عنْ ما يسُد رمقَ حاجته إلى الطعام والشراب.

يتساقط الأموات في الطرقاتِ بصورةٍ يوميةٍ حتى أصبحت مشاهد الموت مملة ولا تنفر منها القلوب، من يسير ويجد في طريقه جثةً فإنه يتفاداها بقدميه ويمر مرور الكرام، ومع الوقت أضحى الوضعُ أكثر بشاعة، إذ شوهِد من يستولون على الجثث لالتهام لحمها علَّه يسد بطونهم التي تصرخ..

تحول البشر إلى نسورٍ تنتظر أن تخور قوى أحدهم ليقتنصوا جثته فيسكن بطونهم، وتعُم في الأرجاء رائحةُ شوائه اللذيذة..

وبذلك، اختفت الجثث من الطرقات، وتشكَّلت فِرَق بحثٍ عن الأحياء الذين تعتبرهم الإحصائياتُ في عِداد الموتى؛ العُجُز، الصغار، المساكين الضعفاء... ينتظرونهم ليموتوا، فيأخذوا دورهم كطعامٍ على مائدة الجوعى..

عُرِف أهل الأرض كلهم بتلك العادة، واستمرَّت فيما بينهم، والمياه تقل حتى كادت تنتهي..

مع الوقت، اختلفَت العادات، وتحول الإنسانُ إلى وحشٍ يُهروِل مُحطِّمًا كل ما تربَّى عليه وكاسرًا كل تقاليده في سبيل البحث عن الطعام، فخرجت مجموعات أخرى تصطادُ الناس أحياء، لتستحيل الدنيا إلى غابةٍ بشرية، يلتهم فيها القويُّ الضعيف.

****

ولج (إبراهيم) من باب قصره، ليصطدم بصياحٍ مُحتَدٍّ بين ابنه (أدهم) وابنته (يارا)، فتجاوز الدرج سريعًا ليقتحم عليهما الغرفة قائلًا بصوتٍ عالٍ:

- فيه إيه؟!

أسرع (أدهم) نحوه وقد تملَّك منه الغضب العارم، فناوله قطعةً بلاستيكيةً في أثناء قوله:

- اتفضل، لقيت اللولب ده في الحمام.. بنتك حامل!

علَّق (إبراهيم) ناظريه على «اللولب»، حتى مرَّت بضع ثوان، ثم تنهَّد مُطلِقًا نفَسًا مشبعًا بالامتعاض، ونظر إليه وقال بهدوءٍ مستفز:

- وإنتَ مالك؟!

ثم تقدم نحو (يارا) فاحتضنها، وربَّت على ظهرها في ذهولٍ تامٍّ من (أدهم)، وبكائها الذي لا يهدأ، ثم أردف:

- لو شوفتك بتزعق لأختك تاني، هيبقى فيه مشاكل كبيرة بيني وبينك يا أدهم.

حاول (أدهم) استيعاب ما يُقال أمامه، فجزَّ على أسنانه، ثم دفع باب الغرفة راحلًا، في حين قبَّل (إبراهيم) (يارا) في جبينها، لتستريح بين ذراعيه شاعرةً بالأمان.

****

في عصر سيدنا يوسف..

جلس أبناء (يعقوب) العشرة -إخوة (يوسف) من أمٍّ ثانية- في صحراءَ واسعة، وقد انتشرت حولهم الغنم التي يرعونها، في حين تتطاير الرمال لتتخبَّط بأجسادهم فتبتعِد عن قلوبهم السوداء. أقام الأبناء اجتماعًا للحديث عنْ ما يُقلِق عقولهم ويُذهِب النوم عن أجفانهم، وحين شرعوا في الحديث، صاح (يهوذا) قائلًا:

- إننا عشرة رجال أشداء، قادرون على جلب المنفعة، فلا يحقُّ لأبينا تفضيل يوسف وأخيه علينا.

صمتوا قليلًا يفكرون، وقد عمَى الغل قلوبهم، فشق الصمتَ (لاوي) بقوله:

- وما نحن فاعلون؟!

ابتسم (يهوذا) بشرٍ مستطير، ثم وقف على قدميه وقال عازمًا على إنهاء ذلك الأمر الذي لطالما أتعبَ قلوبهم:

- فلنقتُل يوسف، أو لنُلقِه بعيدًا فيموت وحده، وهكذا ينساه أبونا ويصُب جمَّ حُبِّه لنا..

ثم نظر في أعينهم واستطرد في حديثه قائلًا:

- وتوبوا بعدها لتكونوا قومًا صالحين.

انقسمَت قلوبهم هلعًا من تلك الفكرة المرعبة، وقال أحدهم إشفاقًا عليه:

- إن قلبي ليس بقاسٍ ليُوافِقني على قتل أخي!

خاف (يهوذا) أن ينشقَّ إخوته عنه، ففكَّر سريعًا لإيجاد حلٍّ يُرضي جميع الأطراف، وبعد أن اقتحمت عقله فكرةٌ من جهنم، قالها مقترحًا:

- نلقي به في الجُب، فيمر أحدهم ويأخذه معه، وبهذا ننتهي منه.

هللوا موافقين جميعًا وقد نال اقتراحه إعجابهم، وشرعوا في تنفيذ خطتهم، والتي بدأت بإقناع والدهم (يعقوب) بأن يأخذوا (يوسف) معهم في أثناء رَعيِهم الغنم كي يشم الهواء ويلهو ويلعب قليلًا. سيدنا (يعقوب) كان يدرك جيدًا مدى كرههم له، وخاف أن يفعلوا به فَعْلَة شر، فرفض على الفور. وهنا عاتبه (يهوذا)، وقد تلبَّس وجهه الشيطان، وحاول تصنُّع الضعفِ قائلًا:

- أمِنَ الممكن أن تخافَ على أخينا وهو معنا؟!

فقال (يعقوب) محاولًا التماس رضاهم وتجنب نشوب الشقاق بينهم:

- أنا فقط لا أستطيع الابتعاد عن يوسف، وأخافُ أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون.

فرد (يهوذا) وقد فرد جسده أمامه بزَهْو، وبجانبه إخوته:

- إننا عشرة رجال أقوياء، لن يقدر الذئب على الاقترابِ لحظةً منا.

وافق (يعقوب) على مَضَض بعد الضغط والإلحاح، إذ لم يكن مستريحًا في قرارة نفسه.

رحل (يوسف) مع إخوته، وسحبوه معهم حتى استقروا بجانب بئر يمر من جانبها الناس، ومن ثم تحول (يهوذا) إلى شيطانٍ مريد، إذ ضرب أخاه وخلعَ قميصه عنه، ثم

رفعه وألقاه في البئر أمام أعين إخوته، ولم ينتبه أيٌّ منهم إلى بكائه، بل سحبوا الأغنام ورحلوا. وقبل دخولهم القرية، ذبح (يهوذا) أرنبًا ولطَّخ قميص (يوسف) بالدماءِ حتى يُخبِر أباه أن الذئب قد أكله، وبهذا تملك منه الشر حتى بلغ مبلغه، فخطط كشيطانٍ مريد يعلم جيدًا مدى سوء فعلته.

****

- حياتك ملهاش قيمة، لازم تنتهي، نطي!

قالتها (سميرة) لفتاةٍ لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها بَعد، والتي تتابعها على صفحتها في موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، بعدما اقتنعت بفكرها الذي يدعو إلى الانتحار، وبشدة..

استندت الفتاة على السور الحديدي الفاصل بينها وبين مياه النيل، فارتعشت أوصالها وانتفضت وهي تنظر إلى (سميرة) التي قالت:

- متخافيش، أنا هنط معاكِ، أنا عارفة إنك شجاعة.

ثوانٌ مرت على تلك البرعمة الصغيرة وهي تُفكِّر في حياتها التي لم تبدأ بعد، في أهلِها الساخطين منها، في المللِ المسيطر على كل ثانيةٍ تعيشها، في أمها التي تضربها وتعنفها، في أخيها الذي لا تمر دقيقةٌ إلا ويُهينها... لم تشعر بنفسها إلا وهي تتسلَّق السور الحديدي، وتُلقي بنفسها في المياه..

انتبه المارة، اندلع الهرج والمرج، فزعت النساء وعلا صراخهن، وانقلبَ الأمر في غمضة عين، فاتحدَت أنظار الجميع إلى جسد الفتاة الذي أخذت مياه النيل العطشى تبتلعه دون هوادة، وراقبوه وهو يُفرِغ أوكسجينه في فقاعاتٍ علَت سطح المياه حاملةً الأسى والكمد والحزن المرير..

وبينما الجميع مُنشغِلون بهذا المشهد الذي تَجزَع له القلوب، انسلَّت (سميرة) من بينهم، فلم يلحَظ أحدٌ أنها كانت معها، ورحلت في سلامٍ والابتسامةُ تزيِّن وجهها المتواري بالنقاب.

****

«أنا لا أؤمن بما لا أراه.. وما أريده يجعلني أسلُك طريقًا آخر غير أن أبحث عن حقيقة إيماني»

الأرقم إلى السامري

التذبذب العقائدي..

جلس (إبراهيم) في غرفته كالمعتاد، أمام أيقونة السيدة مريم العذراء ويسوع المسيح، يحاول أداء صلاةِ الباكر قبل ذهابه إلى عمله، حينها دلفت عليه (فريال) لتسمَع ما يقوله:

- اللهم اهدنا فيمن هدَيت، وعافِنا فيمن عافَيت، وتولَّنا فيمن تولَّيت، وبارِك لنا فيما أعطَيت، وقِنا شر ما قضَيت، إنكَ تقضِي ولا يُقضَى عليك، إنه لا يذِلُّ من والَيت، ولا يعِزُّ من عادَيت، تبارَكت ربنا وتعالَيت، لك الحمد على ما قضَيت، ولك الشكر على ما أعطَيت، نستغفركَ اللهم من جميع الذنوب والخطايا ونتوبُ إليك.

وعندما انتهى، استدار نحو الباب، فاصطدم بـ(فريال) التي وقفت جاحظة العينين إثر سماعها دعاءَه، فهو دعاءٌ لا يدعو به إلا مسلم. كادت تتحدث، لولا أنه لم يفسح لها المجال وخرج من الغرفة متوجهًا على الفور إلى باب الشقة، فخرج منها واستقلَّ الدرج، مسبحتُه في يدِه تحتوي الصليب، فيما يسبح لسانه بذكر الله.

****

مع انتشار الموت، وتكدُّس الصيادين الذين تكاثروا بالمئات في الطرقات فصاروا يقتلون الأحياء ليصنعوا منهم طعامهم، تخفَّى الناس في منازلهم، وشرعَت أعدادهم تقل تدريجيًّا، إذ إن البقاء للأقوى، كأنما أضحى التسابقُ إلى الحجيم شريعةَ الأحياء، ليدق ناقوس بدء عملية الإبادة البشرية فيما بينهم! سيقتُلون بعضهم بعضًا حتى ينتهي نسلهم ويندثِر نوعهم، ومن هنا تنتهي الدنيا، وتقَع القيامة بموتهم جميعًا، فلا يشهدوا العلامات الباقية.

ومع قلة المياه المتبقية، تقاتلوا عليها كالمجانين، حتى اقتربت من الجفاف الكامل، وهم في غفلةٍ من أمرهم.

****

حقق الفيلم الأخير لـ(أدهم) فشلًا ذريعًا، فخسر بسببه ثروةً مهولةً تكوَّنت عبر السنين، ولم يَجْنِ منه شيئًا سوى العاهة النفسية التي أصابته، مما ضاعف حنقه وغضبه فترك عمله، وصفَّى شركة الإنتاج خاصته وباعها، وصار يبحث عن عملٍ آخر يعوضه عن هذا الإخفاق الذي نالَ منه ودمَّر حياته.

****

باع (يزن) شقته التي يجتمع فيها أولئك الملتحقين بمجموعته، وذلك لأن العدد أصبح كبيراً ولن تسَعه الشقة، وقد فكر في الانتقال إلى مكانٍ آخر يتحمل عظَمة ما هو مُقدِمٌ عليه.

****

في غرفةٍ مظلمة، في شقة (إبراهيم)، تربَّعت (فريال) على الأرض وقد افترشَت عليها الأموال المهولة التي جمعتها من سكان الحارة، بعد أن أنشأت الجمعية والتحقت بها ثماني عشرة سيدةً مسيحيةً ومعهن (أم أحمد) و(أم عمرو) المسلمتين الوحيدتين..

برزت عيناها لما أشبعَ مُقلَتيهما ذاك المبلغ الكبير، وسالَ لعابها لتهرَع في عدِّهم. وفي أثناء انغماسها، سمعت قرعَ خطواتٍ تسير في صالة الشقة، فلملَمت الأموال سريعًا لتخفيها، حينها ظهر (إبراهيم) وقد أبصرَها وبين يديها الكنز الصغير، لكنه تجاهل الأمر عمدًا، وجلس على الأريكةِ متظاهرًا بعدم رؤيته، حتى أخفَت (فريال) كنزها وخرجت مبتسمةً له.

****

«ما كان لسارقٍ أن ينعَم بما سرَق دون تأنيبِ ضمير!»

السامري إلى الأرقم

فقط من أجل البقاء..

في ظلماتِ الليل القاتم، وبين الخراب المُستعمِر الآفاق، في قلبِ الطرقات الموحشة كالموتِ يبتلع الموجودات، وفوق منزلٍ مُهدَّمٍ غزاه التراب من كل مكان، وقَف على سطحه ثلاثة رجال، بدوا طبيعيين لا ضعفَ يرتسم على وجوههم وأجسادهم شديدةٌ قويةٌ لا يظهر عليها الإنهاك.

وقفوا شامخين ناظرين إلى أسفل نحو الطريق المتعرِّج في ظلِّ الظلام القاتم الذي نهشه، كأنهم صيادو سمك، إذ إن أياديهم تدلَّت من مكانهم بالسطح إلى أسفل -نحو

الأرض- بأحبالٍ في نهايتها خطاطيفُ حديدية، كأنما ينتظرون الضحايا من الأسماك سيئة الحظ كي يعلقوا بالخطاطيف فيصطادوهم..

مرت ساعاتٌ طوالٌ وهُم على الحال نفسها، طال الأمر ولم ينفَد صبرهم، وحين مسَّهم الملل، جلس ثلاثتهم مُدَلدَلي الأقدام على السطحِ في انتظار رزقهم..

كاد الليل ينتهي، وبدأ ضوء النهار يتسلَّل إلى الطرقات، وهذا ما يبغضوه، وبشِدة..

الساعةُ تدق في هلَعٍ مُنذِرةً بشروق الشمس، في حين شرعَت أعصابهم تتهاوى لكثرة الانتظار، رغم أنهم معتادون على ذلك الأمر..

بدأوا في لملَمة أشيائهم وعزموا بالرحيل على أمل العودة مع ليلة الغد، وفور أن وقعَت عين أحدهم على أول الطريق، أبصرَ شخصًا عاريًا يسير كالميتِ الحيِّ بين المنازل المُهدَّمة؛ يسقط من تارةٍ إلى أخرى ثم يتحامل على قدميه ليقف فتنتظِم حركتُه من جديد، وقد بدا عليه الإنهاك مُلتهِمًا أوصاله، ذلك بسبب شُح الماءِ والطعام، يسير دون وجهةٍ محددة، لا يعلم لطريقِه نهايةً سوى اقتراب الأجل..

انتبهوا جميعًا لقدومه، فمدُّوا أحبالَهم إلى الأسفل متربِّصين بمروره..

هُم ليسوا قتلة، إنهم مجرد أناسٍ عاديين، فقط الحياةُ غيرَّت مجرى الفِطرَة بأعماقهم. الدنيا أضحَت قاسية؛ مَن لا يسعى لسدِّ احتياجاته من طعامٍ وشرابٍ حتى لو على حسابِ معتقداته ومبادئه السابقة، على حسابِ انهيارها، فلن يعيش!

انتظروا بضع دقائق، خطاطيفُهم مُهيَّأةٌ للانقضاض، والضحية المسكين يسير فيتعثر بالموجودات ولا يشعر بشيءٍ سوى الألم والتيهِ وسْط متاهات الحياة..

أحس بأنه سيسقط مرةً أخرى، فاستند بيديه إلى الجدران يستمد منها القوة، فوقف المتربِّصون على أقدامهم وجهزوا خطاطيفَهم في طريقه لقَنصِه، لكنه حادَ عن الطريق فمشى في منتصفه، ليستقيموا مستعدين..

دنا من أحبالهم بقدمين مهتزتين تتراقصان بحزن، مشى حتى أضحى في مرمى الخطاطيف. وفي غمضة عين، أنزلوا حبالهم الثلاثة معًا، ووجَّه أحدهم خطافه نحو الضحية المسكين، فخبط ببطنه، ولما انتبه الرجل إلى الشيء الذي لامَسه، لم يكد ينظر إليه إلا وقد سحَبه صاحبه -في اللحظة ذاتها- بكامل قوته، فانغرز في رأسه بادئًا من أسفل ذقنه..

شهق المسكين بصوتٍ مكتوم، إذ لم يستطِع الصراخ، في حين ركض الاثنان الآخران نحو الرجل الذي فازَ خطافه وغُرِز في المسكين، وساعداه في الإمساك بالحبل، ثم سحَب الثلاثة معًا، ليرفعوا الخروف المسفوح دمه من الأرض كمثل ذبيحةٍ تُعلَّق في السلخانة..

بعزم قوتهم، عافروا معًا حتى استطاعوا سحبه ليُحكِموا قبضتهم عليه جميعًا ويَحتوُوه بين أيديهم، ثم ألقوا به على ظهره فوق السطح. سحب أحدهم الخطاف من أسفل ذقنه، وقد شعر أن لسانه على وشكِ أن يُقلَع معه، لتنفتح نافورة دماءٍ تحت أقدامهم.

ناحَ صوت المسكين من تجويفه يُخبِر بأن الروح لم تزل تناضل للبقاء، ليُصدِر خوارَ جاموسٍ مذبوح سَلبَه الساطور حياته، فقرر أحدهم إنهاءَ مرحلة عذابه، وسارع بسحب سكينٍ من سرواله، ثم نزل على ركبتيه، وعلى الفور جزَّ عنقه جزًّا بقوةٍ مُضاعَفة، دون رحمةٍ ولا هوادة، لتستكين الجثةُ مكانها وتبث آخر رعَشاتها. حينها، اطمأن الثلاثة لغنيمتهم فرفعوها معًا، وهرولوا هاربين ودواخلهم ملؤها الفرح إلى مخبأهم..

لقد ظفِروا بطعامٍ يكفيهم لمدةِ ثلاثةِ أسابيع على الأقل.

****

- إنتَ فاكر نفسك راجل! أنا قبلت أنام معاك علشان كنت عاوزة أجرب ده، لكن تيجي تقول لي جواز والكلام العبيط ده، لا يا حبيبي، فوق كده لنفسك وشوف طريقك، ومتتصلش هنا تاني، مجتمع إيه اللي بتتكلم عنه، أنا هواجه المجتمع ده بنفسي.

صاحت (يارا) بكلماتها مُعنِّفة (سيف)، والد طفلها الذي تكوَّن في أحشائها، وقد تضخَّمت بطنها حتى بدأ الحَمل في الظهور للعوامِّ من الناس. كان (سيف) قد قرر إصلاح خطأه بأن يتزوجها، فهو لن يسمح لقطعةٍ منه أن تُرعَى بعيدًا عن كنفه، لكنه صُعِق بردِّ فعل (يارا)، والتي رفضته بطريقةٍ قاسية، وأغلقت الهاتف في وجهه، ثم أضافت رقمه إلى قائمة الأرقام المحظورة، وألقت بالهاتف اللعين بعيدًا عنها، واحتضنت بطنها في أثناء جلوسها على الفراش، مقررةً في نفسها أنها ستربي طفلها بعيدًا عن قوانين المجتمعِ الشمطاء، بل ستواجه الجميعَ متفاخرةً بذاتها.

****

الأرقم..

تحرك وسْط الخراب بجسدٍ ذي بنيةٍ شامخةٍ وبعينين حادتين كعينَي الصقر، يتلفت حوله في استغراب، كأنه قد أبصَر هذا المشهد من قبل، لقد تسبب في اقتراب نهاية العالم، وبهذا فقد حقق المطلب الأهم الذي طلبه منه (السامري)، وها هو الآن على وشك إكمال الحلقات المتبقية حتى ينول رضاه ويتقرب منه أكثر..

يسير في الطرُقاتِ فيبصر المنازل المحطمة، لا وجود لبشر، بل جثثٌ متراكمةٌ عفنة، ومَن بقيَ فقد قاربَ على الانتهاء، ويتخفَّى بين الأنقاض محاولًا الإبقاء على روحه. وذلك ما أراد تحقيقه، أن يجاهد الإنسان في سبيل النجاة، ومن يستحِق، هو فقط مَن سيبقى..

سياراتٌ في صدامٍ مع بعضها بعضًا من كل الاتجاهات، وشاشةُ تلفازٍ ضخمةٌ مرفوعةٌ بالعرض في منتصف الشارع ومُعلَّقة بين عمارتين، تعرض شخصًا -بصورةٍ مشوَّشة- يتحدث بلغةٍ أجنبية. وقف للحظاتٍ يستمع ويتأمَّل ما يقوله الرجل، فتذكر تلك اللحظة في الكوخ؛

حين مكثَ في يد (السامري)، والذي عبثَ بعقله فأنار له الماضي والمستقبل معًا، فوصل العلم بكل شيءٍ إلى نطاق عقله في غمضة عين!

****

«تحتاجُ روحك إلى إعادةِ هيكلة، فهي الآن مهيأة لأن تكون روح بشَر، بلا نور، الظلام يسكُنها، وتحتوي على كثيرٍ من القيود، فلا تستطيع أن تُفجِّر طاقاتِها، ولا تقدِر على إبراز قُوَّتها.. أنتَ الآن محدود، وعقلك محدود؛ رغم ما يملِكه من بحرٍ واسعِ القُدُرات، فإنه يَستغِل فقط مِلءَ دلوٍ منه.. عليك أن تتحرَّر!»

السامري إلى الأرقم

كوخ السامري..

وقف (الأرقم) عاريًا ولا تستره سوى جدران الكوخ، وقد أغرقَ جسدَه كله في دم الطفل الذي ذبحه منذ لحظات، ثم أغمضَ عينيه ونطقَ باسم (السامري)، فأحسَّ بقبضتَين قاسيتَين تضغطان على رأسه حتى قتَلتاه ألمًا كاد يَشطُر دماغه إلى نصفين، ليصرُخ بصوتٍ مزَّق أحباله الصوتية، ثم فتح عينيه ليُبصِر عينَي (السامري) ملتصقتين بمقلتيه!

حاول أن يتحرك بين قبضتيه، ولكن إحكامهما كان صَلدًا كالحديد شديدًا، فاكتفى بصرخاتٍ جوفاءَ من شدة الألم، وبعدها شعر بروحه تُسحَب منه لتُحلِّق في عينَي (السامري)، كأنما قد دلفَ إليهما..

وفي لحظةٍ خاطفةٍ ودون حسبان، وجد نفسه يقف على أرضٍ مُحطَّمةٍ وسط منازل قد تحوَّلت إلى أنقاض، وحوله جنودٌ يرتدون دروعَ الحرب، فينتشرون في الأرجاء ويحملون

في أيديهم أسلحةً فتاكة، بنادق ورشاشاتٍ آلية، فكان يعرفها جيدًا رغم أنه يراها لأول مرة. وفي الحين ذاته، كانت تُحلِّق طائراتٌ من فوقه وتُلقي بمتفجراتٍ في كل مكان، والأموات يُغلِّفون سطح الأرض، وكادت المدافِع أن تصُمَّ أذنيه، فظلَّ واقفًا مشدوهًا مما حوله، حتى اقتربَت إحدى القنابل من السقوط فوق رأسه، فركض محاولًا تفاديها، وغاص بين الجنود والأموات. سمعَ استنجادهم، إلا أنهم كانوا يمرُّون من جانبه ومن خلاله كأنهم لا يرونه أو أنه غير موجودٍ بينهم، فصرخ خوفًا وتشتُّتًا، ثم ركض بلا وجهةٍ محددة..

ظل يركض بلا هوادة، الأموات يتساقطون جثثًا هامدةً من حوله، المنازل تُفجَّر، الجنود يبكون ويصرخون، والأشلاء تتناثر وتترامى أمامه! أُصيب بالفزع، لكنه تشجَّع وحاول أن ينجو، فهوَت على رأسه قنبلةٌ وحوَّلتهُ إلى قطعٍ متبعثرة، فصرخ بصوتٍ مهول، ليجد نفسه يقف وسْطَ جيشين من فرسانٍ يمتطون أحصنةً ويركضون بها في اتجاه بعضهم بعضًا. الفرسان في الناحية اليمنى يرفعون راياتٍ رُسِم عليها نسرٌ مفرود الجناحين، والفرسان في الناحية اليسرى يرفعون راياتٍ رُسِم عليها صليبٌ أحمر..

يصيحون بأعلى أصواتهم، ويُشهِرون سيوفهم أمامهم، فركض هو محاوِلًا النجاة منهم قبل أن يدعسوه تحتهم، وظل يركض وهم استمروا يقتربون، فصرخ بأعلى صوته، إلى أن تخبَّطت الجياد في بعضها بعضًا ووقَع الفرسان من عليها، ولكنه لم يبقَ ليُشاهِد ذلك، فقد سُحِب من المشهد كله فوجد نفسه مُنضمًّا مع جنود (فرعون) بين شِقَّين من المياه، ويقابلهم في الجهة الأخرى (السامري)، والذي لوَّح له بيده مبتسمًا ثم لفَّ جسمه وأكمل طريقه..

صاح باسمه وهرول نحوه، ثم بغتةً ودون أن يشعر، وجد نفسه يتوغل في أعماق مياهٍ تسحبه إلى الأسفل مهما حاول العوم، فغرِق! حاول أن يخرُج ولكنه لم يستطِع، وبدأ يشعر بأنفاسه تُخطَف منه، ليُبصِر (فرعون) في أثناء تشنُّجه تحت المياه وخروج روحه..

لحظاتٌ واختنَق، غزَت المياه رئتيه، وشرعت روحه في التحليق عاليًا حتى وجد نفسه واقفًا فوق جبلٍ وناظراه مُوجَّهان نحو ثلاثةِ أهرامٍ تُبنَى أمامه، فكان مشهدًا مهولًا..

ركضَ نحوها يضحكُ بفرحٍ وسعادةٍ تغزو كيانه، فاصطدمَ بصخرةٍ أسقطته أرضًا، ليجد نفسه يسير في طُرقاتِ بلدةٍ منازلها محطمة، ولا وجود لبشَرٍ على وجهها، سياراتٌ في صدامٍ مع ببعضها بعضًا من كل الاتجاهات، وشاشةُ تلفازٍ ضخمةٌ مرفوعةٌ بالعرض في منتصف الشارع ومعلقةٌ بين عمارتين، ورغم البدائية التي جاء منها، فقد علِم اسمَ واستخدام كل شيءٍ حوله كأنه يعرفه من قبل..

عرضَت شاشة التلفاز صورةً مشوَّشةً لرجلٍ يتحدث بلغةٍ أجنبيةٍ فهِمها على الفور ولم يعلم كيف، فسمِعه يقول:

- جفَّت مياه الأنهار والمحيطات، وما عاد لقطرة ماءٍ واحدةٍ وجود، نهاية العالم على الأبواب!

تاريخ التسجيل كان أقدمَ بعامٍ من وقت عرضِه، ولكن الزمن الذي وُجِد فيه (الأرقم) قد تجاوز تاريخ مولده بآلاف السنين..

أخذ يتلفَّت مُتأمِّلًا ما حوله باندهاش، وإذ فجأةً تلاشى كل شيءٍ ووجد نفسه أمام شخصين بدائيَّين، يخطو الأول بضع خطواتٍ مولِيًا الثاني ظهره، فأمسكَ الأخير بفكٍّ من هيكلٍ عظميٍ لحمار وهوَى به على رأس الأول ليسقطَ مُضرجًا بدمائه، ثم حمَله على كتفه وسارَ به يندُب حظه، حتى وقعَت عيناه على غرابٍ علَّمه الدفن فكَرِه نفسه.

ما كاد المشهد ينتهي حتى سُحِب (الأرقم) ليتنقل بين وجوه أُناسٍ ومعلوماتٍ وفلسفةٍ ونشأةِ حضاراتٍ وبنائها وانهيارات عُظمَى وحروب، فطافَ بين أحداثٍ مهولةٍ لا يُصدِّقها عقل، وشَهِد الماضي والحاضر والمستقبل!

وبعد أن تاهَ عقله وآلَمَه دماغه، عاد مُنهكًا فصارَ في يد (السامري)، والذي أخذ ينظر في عينيه ثم ترَكه حتى سقط أرضًا يلهثُ من مجهودٍ بذَله ولم يشعُر، فالتقطَ أنفاسه بصعوبةٍ بالغة، ثم قال بصوتٍ مُتهدِّج:

- ظننتُ أنني أعلم الكثير، ولكنني لا أعلم شيئًا! أرِني أكثر.

التفَت نحوه (السامري)، وسلَّط ناظريه على عينيه ثانيةً ثم نطق مُحذِّرًا:

- عيناكَ لن تتحمَّلا أكثر! تريَّث، ستعرِف كل شيءٍ في وقته.

واستدار بجسده خارِجًا من الكوخ الصغير وغاص في الصحراء، فارتمى (الأرقم) على الأرض يلتقط أنفاسه الضائعة وعيناه ما زالتا ترسمان أمامه ما كان يُبصِره منذ لحظات.

(٩)

يا قوم آدم، كونوا على يقين بأنَّ النهاية قريبة، لا تندفعوا نحو سراب الدنيا فيختلِط عليكم الحقيقي بالخيال..

الامتحانُ ثقيلٌ على النفس، لكن قوة الإرادة خارقةٌ عن الطبيعة كبنيان نُزِّل من السماء فتآزرت حوله جُل الكائنات ولم يقدروا على زحزحته قدر أنملة..

الاختيار لكم..

إما أن تكونوا عبيدَ ملذاتكم فتُدهَسون في دنيا التيهِ بطريقٍ متعرج، أو تكبحوا السوءَ فيكم فتنولوا خير الجزاء!

«لكَ مني تعظيمٌ لا يليقُ ببشري، فقط يليقُ بملاك..
تحضَّر أيها الأرقَم»

السامري إلى الأرقم

التحضير..

وقف (فارس) أمام مرآته بلا قطعة ملابس واحدة، وصار يتحسَّس كل عضوٍ من جسده، بعد أن تم تحويله إلى فتاةٍ في غاية الجمال. ابتسمَ ابتسامةً ساحرة، واحتضن جسده شاعرًا بفرحةٍ غامرةٍ غير مصدق، ثم مالَ صوب المرآة، وتفرَّس فمه وقال:

- فريدة!

وضحك من كل قلبه في أثناء التفافه حول نفسه راقصًا كفتاةِ ليلٍ تستعرِض جسدها، وقد اختار لنفسه اسمَ (فريدة) ليُنادَى به فيما بعد، وأخذ يستعد لمواجهة المجتمع بفعلته هذه، معتزًا بنفسه مدافعًا عن اعتقاده ليتقبَّله مهما كلف الأمر.

****

قلَّبت (ماريان) يمينًا ويسارًا باحثةً في كل الكتب التاريخية المفروشة حولها، في أثناء كتابتها على الكمبيوتر المحمول الخاص بها، إذ تؤلف كتابًا تكشف فيه حقائق حوادث الاغتصاب التي حدثت على مر التاريخ من وجهة نظرها، والتزوير الذي قامت به الحكومات والمؤرخين. قرَّرَت مواجهة البلدِ بحقيقتها التي طمَستها عن عمدٍ مع عوامل

الزمن، وأخذت على عاتقها نشرَ الكتاب، وتأهَّبت تأهُّبًا تامًّا لمواجهة الحرب السياسية التي ستُشَن ضدها، على أمل أن يفيق الناس من معسول الكلِم المزوَّر الذي عاشوا فيه منذ قديم الأزل.

****

صراخٌ خافتٌ نابعٌ من سيدةٍ في الثلاثين من عمرها، تتوارى بين أربعة جدران بالية، وتكتم فمها من الصراخ الذي اجتاحَ حنجرتها..

كانت ممدَّدةً على ظهرها فوق أرضية منزلها، فاتِحةً قدميها الاثنتين ناظرةً إلى فوق، فيما ينزلق سائلٌ أصفر من جوفها على الأرض فيُغرِقها، وقد وضعت قطعة قماش بالية في فمها، تجُز عليها بأسنانها بآخر قوتها، وتفرك أرضًا مُحاوِلةً الثبات..

إنها تَلِد!

إنها على وشك إخراجِ جنينها من بطنها، فهي العضو الوحيد البارز من جسدها، وذلك بسبب نحول جسمها وانهيار لحمها..

تنظر إلى سقف الغرفة وتُناجي ربها بثبات، تسجن صوتها خلف أحبالها الصوتية خوفًا من أن يسمعها أحدٌ فيهجُم عليها ويفتك بها، إنها فريسةٌ سهلة المنال، إذ لا حيلةَ لها ولا قوةً تُدافِع بها عن نفسها..

كادت أسنانها أن تتكسَّر من قوة ضغطها، على الرغم من قوتها الضعيفة التي لا تتحمَّل كل هذا الكَمِّ من الألم..

تبِعَ السائل الأصفر قطراتُ دماء، وانفتح فَرْجها في دلالةٍ فعليةٍ على بدء الولادة، لتدفع هي بقوةٍ آلمَت جسدها كله، بلا مُساعِد لها في سحب الطفلِ من رَحِمها..

ظهرَ رأس الطفل رويدًا رويدًا، فتابعَت الدفعَ بكامل قوتها ليبدأ جسده في الظهور، ثم اعتدلت وجلسَت نصف جلسة، ومدت يديها الاثنتين أسفل منها لتحتويا جسد الجنين، في حين ضغطت بأسنانها أكثر مع الدفع الضعيف الذي استطاعته ولم يكن بمقدورها أكثر، ثم سحبت مَن احتضنته يداها، ليخرج الجنين على الفور ويتجلّى أمام عينيها بلونه الوردي المتشرب بالحُمرَة ويصرخ بصوتٍ عالٍ متشنجًا.

التقطت نفسًا عميقًا آلَم قلبها، ووضعت الطفل على الأرض جانبًا، ثم أتت بمقصٍّ -جهزته بقربها قبلًا- وقطعَت الحبل السُّري دون تطهيره، فلا ماءَ ساخنَ لديها، ولا ماءَ تستخدمه من الأساس لتروي ظمأها.

اعتدلت ونظرت إلى الطفل الصارخ الباحث عن أمانٍ انتُزِع منه، وقد بدا على وجهها الرعب والألم، وشرعت في التلفت حولها خوفًا من أن يسمعها أحدٌ فيغتالها بسكينه ويقتلها..

حاولت منع الطفل من الصراخ، لكنه استمر، فحمَلته، وتوقفت على قدميها بصعوبةٍ بالغة، ثم تحركت ذهابًا وإيابًا، فهدأ الطفل مع الوقت بعدما التمسَ في حضنها السكينة المفقودة، وصمَتَ في هدوءٍ تام..

جلست بجانب الحائط واستندت إليه، أخذت تُفكِّر في المأساة التي وضعَت نفسها فيها، والكارثة التي ستحل عليها جرّاء هذا الطفل الذي اقتحم حياتها، إذ إنها على وشك الموت جوعًا وعطشًا. ماذا ستفعل معه؟!

أخرجَت نهدها وناولَته إياه في محاولةٍ بائسةٍ لإطعامه، وقد كان متسخًا مقرفًا نتيجة عدم الاستحمام، لكن الأفظع أنه لم يُحرِّر قطرة لبنٍ واحدة، ومن أين لها باللبن وهي لا تتغذى..

ذرَفَ الدمع من عينيها حسرةً على ما آلت إليه، استندت برأسها إلى الجدار خلفها ورمَت ناظريها إلى أعلى، لدقائق طوال ظلّت تُفكِّر في حلٍ لمصيبتها..

تناولت نفَسًا، ثم وضعت الطفل جانبًا، وقامت فأحضرت منشارًا، وتوجَّهت صوب أريكةٍ فنشَرَت أرجُلها للحصول على الخشب، في حين تهاوَت قوتها وبدأت تنفد. وبعد أن انتهت، كوَّمت الخشب الذي حصدته فوق بعضه بعضًا على البلاطِ في أحدِ الأركان، وأحضرت حفنة من قصاصات الورق وغلفت الخشب بها، ثم تحركت صوب المطبخ لتجيءَ بقدَّاحة، وشرعت في إشعال الورقِ وأخذت تواري عليه بيديها وتنفخ بروية في محاولاتٍ عديدةٍ حتى استطاعت إشعاله، وظلت بقربه حتى تحوَّل إلى فحم..

أخذ الطفل الصغير يبكي، وقلبها يتقطع من المشهدِ المميت، ومما هي مقبِلةٌ عليه..

تقدَّمت نحو المقص، أحكمَت عليه قبضَتها، ثم نظرت إلى طفلها المسكين، وتنفست الألم، ثم نظرت إلى الناحية المُعاكِسة، فرفعت يدها المرتعشة إلى الأعلى، وهوَت بالمقصِ على عنق الطفل، ليخترق عظامه، دون أن تنظر إليه!

كادت تصرخ، لولا أنها أسرعت فكتَمت فمها، في حين نزف الطفل ما يحمله جسده من دماء، حتى سكتَ عن البكاء. التفَت صوبه لتنظُر إلى نتيجة فعلتها، فبكَت بكاءً مكتومًا إثر انهمار دموعها بغزارة، وألقت بالمقص بعيدًا بعدما سحَبته من عنق مولودها وأزهقَت روحه الحديثة العهد..

مدت يديها الاثنتين، ورفعت جثة طفلها عاليًا عن الأرض، ثم تحركت صوب النار التي ما برحت تلتهم نفْسَها متلهفةً للمزيد من الحطب، وبيدٍ مرتعشة، وعينٍ تصرخ بكاءً وقلبٍ محترق، وضعت طفلها فوق النيران الثائرة، لتبدأ في شَيِّه ببطء، وبتفانٍ! ثم تحركت بقدمين غير سويتين صوب المطبخ، وأحضرت صحنًا كبيرًا، ومن ثم أمسكت بعصا رفيعةٍ وطويلة، وجلست أمام النيران تُقلِّب طفلها، منتظرةً لحظة استوائه كي تلتهمه فيعود إلى بطنها من جديد..

لتشعر بالذنب أبدَ العمر وحتى أوان موتها.

****

في ليلٍ مهيبٍ توارتَ تحته الأبدان، وبين أجساد الأموات المهترئة المُعذَّبة والهياكل العظمية، وفي قلب المقابر ووسط رائحة الموت التي تُغلِّف المكان، وفيما تتراقص الأشباح على القبور، تسحَّبت (فريال) ودلفَت مرتعدةً خائفة، وحاولت محاولةً فاشلةً أن تُخفِي ما اجتاحَ قلبها من رعبٍ مهول، لكنها تماسكت غصبًا..

سارت بين ظلمة القبور حتى وصلت إلى شاهدةِ قبر والدها، وجثَت على ركبتيها بضعفٍ وانكسار، ثم نبشَت في الأرض بمجرفةٍ حديديةٍ صغيرة، حتى صنعَت حفرةٍ ضئيلة، ثم سحبت كيسَ الأموال المتربِّع فوق صدرها والمتواري خلف ردائها، فزجَّت به في الحفرة، وطمرته بالترابِ لتُخفي أثره..

ثم تحاملت على قدميها واقفةً وركضت لتخرج من المقابر عائدةً إلى منزلها، بعد أن اطمأنت وأخفت المالَ الخاصَّ بالجمعية، دون مراعاةٍ لما قد يحدث لها فيما بعد، فقد أعمَت الأموال أعينها، وما من رجوع.

****

توقفت سيارة باهظة الثمنِ أمام مطعم (إبراهيم)، فترجل منها (أدهم) بثبات، ثم ولجَ من بابِ المطعم متجهًا صوب طاولة والده الذي يجلس إليها. أقبل عليه وقد أبصرَه يحمل بين شفتيه مُعذِّبته الوحيدة، الشيشة..

جلسَ على الكرسي المقابل، وتقابلا بالنظرات المُدجَّجةِ بالتساؤلات، إلى أن شقَّ (إبراهيم) الصمتَ المميت:

- غريبة يعني، أول مرة تجيلي المطعم.. خير؟!

تنفس (أدهم) الصعداء، ثم دقق في عيني والده قبل أن يتفوه بقوله:

- أنا فكرت في موضوع موقع الأفلام الإباحية اللي قُلت لي عليه، وعاوز منك فيديو لحد مهم أبدأ بيه.

ترك (إبراهيم) «لَيَّ» الشيشة مبتسمًا بفخرٍ وعزة، ثم مد يده ليربت على كتفِ (أدهم) في دلالةٍ على المساندةِ التي سيقدمها له.

****

سفينة الخِضر..

وقف الملك (يعوث) على طرف سفينته، وقد أبحر قبطانها لتكون في المقدمة، ولحقت بها أكثر من عشر سفن أخرى. ثم صاح في جنوده وبحّارتِه التابعين بصوتٍ أرعبَ أبدانهم:

- فلتنقضوا على أي سفينةٍ تمر من هنا، لن أبرح حتى يكتمل أسطولي.

(يعوث) ملكٌ ظالم، يجمع السفن ليُكوِّن أسطولًا عظيمًا تحت إمرته، ولا يهمه أصحابها، يقتلهم إن عارضوا، حتى لو كانوا مساكين لا يستحقون الأذى..

ظلت سفُنُه تشق البحر ويحرك أشرعتها جبروته، فيما وقف هو يتابع مَا حوله، حتى وقعت عيناه على سفينةِ صيدٍ تُبحِر بالقرب منه، فأمر أسطوله بالتوجه نحوها..

أوقفها وانقضَّ على أهلها، وربط جنوده الصيادين المساكين، الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن حقوقهم..

(يعوث) لا يأخذ سفينةً إلا بعد أن يتفقَّدها، فإن كانت كاملةً ليس بها عيبٌ يأخذها غصبًا، وبالفعل صعد على متنها وسار بين جنباتها ليُعايِن حالتها، فوجد الدور العلوي بها بحالةٍ جيدة، ثم انتقل فيما بعد إلى الدور السفلي يتفقده، كان كل شيءٍ بها على ما يرام، حتى وقعت عيناهُ على ثقب فيها، فاقترب منه، ليجده قد تم سده بقطعةٍ من ثياب، إلا أن السفينة امتلأ أسفلها بالمياه، فألقى السباب واللعنات قبل أن يرحل، وأمر جنوده بأن يعودوا أدراجهم. وقبل أن يخرج من تلك السفينة عائدًا إلى سفينته، أمسك بشعلةِ نارٍ

وألقاها على سفينة الصيادين قليلي الحيلة، فاشتعلت من فورها، في حين صار الصيادون يبكون ويترجونه بعدم حرقها، ولكنه لم يسمع لهم، بل تركهم مربوطين يحترقون أحياء ويستنجدون..

استقلَّ سفينته، ثم ابتعد عن سفينة أولئك المساكين، وتابعها من بعيد وقد تحولت إلى جمرةٍ من نار وسط بحرٍ التهمها وما عليها في غمضة عين. ثم قرر في نفسه أن كل سفينة يُقابِلها ولا تصلح للانضمام إلى أسطوله، سيُحرِقها وأصحابها أحياء، فأكمل بذلك مسيرة الطغيان ونشرِ الفساد.

****

جحظت عينا (سميرة) في أثناء صدمتها بتحليلٍ أجرَته، إذ يفيدُ أنها تحمِل في أحشائها طفلًا، والذي بالتأكيد هو ابن (يزن)، إذ إن ذلك حدث بعد أن عاشرَته لأكثر من ستِ مرات، فعرفت بهذا أن زوجها (إبراهيم) هو العقيم وليس هي، وأنه أوهَمها طوال كل تلك السنوات لتعيش معه في جحيمٍ دون أن تدري، لكن ها هي تحمَل كبقية النساء. غلب كل ذلك تفكيرها، وتناسَت أن هذا الجنين نشأ من نطفةِ الحرام، بل الفاجعةُ أكبر، إنَّ الطفل سيكون حفيدَ زوجها دون أن تدري، لتُضيف إلى قائمة المختلطةِ أنسابهم عضوًا جديدًا!

لم تُفكر في شيء، فقط قررت أن تتمرَّد على حياتها كلها، أن تُبدِّل وتغيِّر مُعتقدَاتها، والبداية أن تبتعِد عن ذلك العجوزِ الذي خدعَها..

لكن لا تجري الريح بما تشتهي السفن، لم تعرِف هي أنَّ (يزن) ابن زوجها، وأن (إبراهيم) -على عكس ما فهمت- ليسَ مصابًا بالعُقم، ولا هيَ أيضًا، وكان عليها فقط أن تحاول كشفَ حقيقة الأمور غير الواضحةِ التي التبسَت عليها قبل أن تتخذ قراراتها.

****

ارتعاشُ أوصاله وصل إلى حدِّ السماء..

وتربَّع على قلبه خوفٌ لا يتحمله بشر، فاستحوذَ عليه حتى كادَ يهتك روحَه..

إن ما يقاسيه الآن قادرٌ على تحطيم كل ذرةِ حياةٍ بدواخله..

يجلس متربعًا في قبو منزله وحالُه يكتنفها الخوف والارتعاد، يشعر بأن النهاية تدنو منه أكثرَ من النفَس الداخل إلى جوفه..

يحتضن نفسَه محاولًا تهدئتها، فلا معين سوى صراخه الداخلي..

أنفاسه هادئةٌ إلا أنه يلتقطها برويةٍ تؤلم بدنه، وصوته مكتومٌ إذ لا يقوى على إخراجه..

يتخفَّى من الموت الزاحف فوقه والباحث عنه بين جدران منزله ليستقِي من لحمِه..

منذ قليل، كان جالسًا على فراشه يفكر في الأيام القادمة، وهو الذي لا يملك أي شيءٍ كي يحيا به، أضناه همُّه حتى بكى، فأصدر تنهيدةَ قهرٍ غصبًا في اللحظة نفسها التي مر فيها من جانبه أحد صائدي البشر المتجولين، والذي سمعَ بكاءه الهادر، فاقتحم منزله، ليركض هو بخطواتٍ هادئةٍ ويتخفى في قلبٍ جوفه مرتعد، في حين يجوب القاتل منزله بحثًا عنه..

تلك هي الحياة الدنيا قبل أن يُؤذَن بيوم القيامة، يلتهم القويُّ الضعيف، ولا أحد يقوى على التصدي إلا ذو القوة المفرطة، وقد اكتسب الصائدون القوةَ من التهامِ لحمِ البشر، هم فقط من يستطيعون سدَّ بطونهم وإشباعَ احتياجاتهم، فامتلكوا القوة المهولة التي تعينهم على الصيد ومجابهة أعتى الأجساد المتصدية لهم، على الرغم من أن الجميع ضعيفٌ لا يقوى على الصراخ حتى بصوتٍ عالٍ.

سمع الجالس في القبو صوت بابه يُفتَح، شعر بالموت يقترب منه، أحس بانقباضِ نفسه، وحاول أن يبدو متماسكًا، في حين فضحَ الصائدَ صوتُ خطواته التي تستقل الدرَجَ بثبات، مع ضوءِ الكشاف الذي سطَعَ في المكان بحثًا عن جسده..

حاول أن يتماسك أكثر، وأن يشُدَّ إزرَه فيُثبِّت جسدَه، لكن هيهات، لقد اقتربت خطوات الصائد ودَنَت..

جلس يُفكر فيما سيفعل وهو الضعيف، استرق النظر، فرأى ذا الجسدِ الضخمِ يتلفت حوله وفي يده سكين مسنونة يلمع نَصلُها طلبًا للدماء، فارتعش وقد زاد رعبه إلى حدِّ اللامعقول..

حرَّك أصابعه فيما حوله باضطرابٍ إلى أن وقعت على حديدةٍ طويلةٍ يستطيع الهجوم بها على المُقتَحِم، فاطمأن للحظة، ثم التمس منها القوة، وجهَّزها في يده. بعدها، أغمض عينيه والتقط نفسًا هادئًا، ثم استرق النظر من جديد، فأبصَر ظَهر الصائد مُصدَّرًا له، فاستغل الفرصة، وتوقف بغتةً على قدميه رافعًا الحديدة إلى أعلى ثم ركض قاصدًا مهاجمةَ رأس القاتل، ليتفاداه الأخير بحركةٍ سريعةٍ منه، فسقطَ المسكين أرضًا متعرقلًا في أحد الأشياءِ الملقاة..

وبحركةٍ خفيفةٍ ومُباغِتة، انقض عليه الصائد من الخلف بعد أن سقط ضحية، ثم جثا على ركبتيه، في ظلِّ صراخ الأخير، فأمسكه من شعر رأسه وجذبه إليه من ظهره، ليرتفع رأسه إلى فوق، فأخرج السكين المسنونة وبسهولةٍ بعد أن مَثلَت عنقه أمامه، سحبها عليها لتنشقَّ على الفور وينهمر ما بجسده من دماء، ثم تركه على الأرض ووقَف على قدميه، ليتابع حركةَ أطرافه الضعيفة المستمرة، قبل أن تستكين إلى الأبد وتصعد روحه متحررةً من ذلك الجسد البالي. وما إن تمَّ مراد الصائد حتى رفعه على كتفه، ورحل به كغنيمةِ حربٍ ستساعده على البقاء.

****

وقف (يزن) مبتسمًا متفاخرًا بالإنجاز الذي حققه، بعدما اشترى قصرَين متجاورين وضمَّهما إلى بعضهما ليُحوِّلهما إلى محميةٍ كبيرةٍ تسَع الكثير من البشر التابعين إياه، ما يقرُب من ثلاثِ مئة شخصٍ الآن يحمل لقبَ مجموعته، وما زال العدد في تزايُدٍ مستمر..

المجتمعُ أفاق لنفسه أخيرًا، حسبَ ظنِّ الجُهَّال، الملحدون على وشك مواجهة الناس، على وشك الوقوفِ أمام كل التقاليد التي رُسِّخت في عقول هؤلاء السُّذَّج، على وشك أن يتجلَّوا في أبهى صورهم وأن يبسطوا نفوذهم ويبدأوا عصرَهم، ليصرخوا في وجه كل من اضطهدهم..

وقد قرر (يزن) في نفسه أنَّه لن يتوقف إلا إذا اعترفَت الدولة بهم، فيعيشوا بين الكل في سلامٍ ويمارسوا حريتهم الخاصة.

****

وقف (إبراهيم) فاردًا جسده مرتديًا جلبابه ومسبحته في يده، مُسلِّطًا ناظريه إلى زاوية الجامع الذي يؤمُّه، مُضيِّقًا عينيه مُحدِّقًا في صورة السيد المسيح التي علَّقها لتوه والصليبِ المجاور لها. ظلَّ على وضعه للحظات وعقله يصرخ ببعض الأفكار المريبة، بعدما نفَّذ تلك الفعلة الغريبة!

لقد جمع بين الديانتين، المسيحية والإسلام، في آنٍ واحدٍ دون أن يشعر، بعيدًا عن كونه مُلحِدًا وغنيًّا متعجرفًا ومتكبِّرًا تحكمه الملذاتُ والشهوات، جمعَ بين صفاتِ البشر أجمعين، وما زال يُدنِّس كل شيءٍ بيديه ويُلوِّثه بأفكاره السامة..

ابتسم ابتسامةً جامدة قبل أن يلتفَّ بجسده راحلًا، تاركًا خلفه بابَ الجامع مفتوحًا على أملِ أن يدخُل أحدهم فيُصدَم بتلك اللوحةِ العجيبةِ التي شكَّلها بيديه في هيئةٍ مريبةٍ تقبض الأبدان.

****

الملك النمرود..

في طرقات بابل بالعراق، وفي يوم عيد، ركض طفلٌ صغيرٌ ذو عشرة أعوام، يصيح في المارين من حوله، ليزرع في قلوبهم الرعب المميت والخوف من لعنةٍ ستطولهم، فهجمت كلمات الصبي على آذانهم:

- لقد انهارت الآلهة!

وأخذ يردد الكلمات، فاجتمع أهل القرية أجمعون، وهرولوا نحو المعبد مرتعدين، حتى دلفوا إليه مقتحمين، ليُبصِروا (إبراهيم) واقفًا في المنتصف، وحوله التماثيل مُهدَّمة ومتناثرة في كل ركنٍ وزاوية، فصاح فيه أبوه (آزَر) قائلًا:

- مَن الذي هدم آلهتنا؟!

نظر إليه (إبراهيم)، ثم أشار إلى كبير التماثيل المنتصب شامخًا والذي لم ينهَرْ، فرأوا على كتفه الفأس التي استُخدِمت لهَدْم الأصنام، ليقول (إبراهيم) مبتسمًا:

- فعلها كبيرهم هذا، ولتتأكدوا فاسألوه.

فوقفوا عاجزين غير قادرين على معرفة الفاعل، رغم أنهم تيقَّنوا تمام اليقين أنه (إبراهيم)، إلا أن حديثه ذلك ليثبت لهم أنها محض تماثيل لا حول لها ولا قوة.

تناقلت الأحاديث حول ما حدث، حتى وصلت إلى ملكهم (النمرود)، ذلك الجبار مُدَّعي الألوهية، فأمر بحرق (إبراهيم)، وبدأ الجنود في بناءِ محرقةٍ ضخمةٍ كبيرة، وجمعوا فيها الحطب، وقد ساعدهم في ذلك أهل القرية أجمعون، حتى إن المرضى كانوا يدعون آلهتهم لتشفيهم حتى يجمعوا معهم الحطب لبناء محرقة (إبراهيم). فشاركَ كل الناس في الإعداد لموته، إذ كان بمثابة قربانٍ للآلهة للدفاع عنها، وظلَّت النار مُتقِدةً لمدة شهر، حتى إن الطيور في السماء -لهول شرَرِ النار- كانت تُحرَق على الفور عندما تمر فوقها..

احتاروا فيما بَعد في كيفية إلقاء سيدنا (إبراهيم) في النار، وذلك لأنهم لا يستطيعون الاقتراب، فأحضر (النمرود) منجنيقًا، وربطوا (إبراهيم) فيه، وألقوا به..

لدقائق وقفوا فاغري الأفواه جاحظي الأعين، وقد تملكهم شعور الانتصار وأنهم قد حققوا مرادهم، وفي لحظةٍ خاطفة، أبصروا (إبراهيم) يخرج من بين النيران، كاملًا سالِمًا غانمًا، لم يحدث له خدشٌ واحد، خرج فوقف أمامهم، فظهر من بينهم (النمرود) شامخًا بجسده، ثم قال صائحًا محاولًا تغيير مجرى الحدثِ إلى مجرى آخر:

- يا إبراهيم، من ربك؟

قال (إبراهيم) بصوتٍ عالٍ ليسمعه الجميع:

- ربي الذي يُحيِي ويميت.

فضحك (النمرود) بصوتٍ طغاه الجبروت، ثم نظر إلى قومه متفاخرًا وقال:

- أنا أُحيِي وأُمِيت.

فاقترب منه (إبراهيم)، ثم قال بتحدٍّ صريح:

- كيف تحيي وتميت؟!

ابتسم (النمرود) وقد قابله بالتحدي نفسه وبدَت عليه الثقة والقوة في أثناء قوله:

- أطلب رجلين من المحكوم عليهم بالقتل، فأُطِلق سراحَ أحدهما وأقتل الآخر، فأكون قد أَمَتُّ وأَحْيَيْت.

فقال (إبراهيم) ليُصعِّب عليه الاختبار:

- إن كنت صادقًا، أَحْيِ الذي قتلته.

فلم يُجِب (النمرود)، ثم إن (إبراهيم) أعرضَ عمَّا كان سيقول وأراد أن يُلزِمه بحجةٍ أخرى، فقال:

- دعكَ من هذا، إنَّ اللهَ يأتي بالشمس من المشرق، فأتِ بها مِن المغرب!

فصاح (النمرود) بصوتٍ غاضب، حتى إن الواقفين اهتزوا خوفًا من جبروته:

- ليس بالوجود إلهٌ غيري، ناجِ ربكَ ليجمع جيشه، وسأجمَع أنا جيشي ولنتقابل لنرى من الأقوى.

سخِرَ (النمرود) من إله (إبراهيم)، وأضلَّ جيشَه كله وأغواهم ثم جمعَهم، وانتظر شروق الشمس ووقف متحديًا الله، إذ إن بسببه كفَر الكثيرون وعبدوه واتخذوه إلهًا، فكان واحدًا من الفسقَة الفاسدين والمفسدين.

****

في شقةٍ رفيعة المستوى ذات أثاثٍ يدل على الثراء الفاحش لأصحابها، وفي إحدى غرفها الواسعة المزينة بطريقةٍ تخطف الأنظار، جلسَ (أدهم) بجانب (ماريان) على الفراش الذي يتوسطها، وسلَّمها نسخةً من عقدٍ ذي نسختين يُقِر بزواجهما العُرفي، فطوَت نسختها ودسَّتها في حقيبتها، وبالمثل وضعَ هو نسخته في محفظته..

ثم نظرا إلى بعضهما بعضًا، ليسرح في قسماتِ وجه (ماريان) الجميلة التي تحبسُ الأنفاس، إذ تميزَت ببشرتها القمحية، شعرها البني الناعم، عينيها العسليَّتي اللون وملامح الوجه الصغيرة المتناسقة، وقد أضفَت مساحيق التجميل إليها جمالًا فوق جمالها، والذي كمَنَ سرُّه في لونِ جسدها المميز..

اقترب منها حتى التصق بها، ضمَّها إليه، ليغرقا معًا في بحرٍ من العسلِ يروي أحضانهما المُحرَّمة.

****

بعد كبير مجهود، نجحت (يارا) في فتح عينيها المنهكتين، وقد شعرت بألمٍ مهولٍ لم تستطِع الجلوس بسببه، ثم تفقدت مَن حولها، فأبصرت (إبراهيم) مبتسمًا في وجهها، والذي قبَّلها، لتستوعِب أنها ما زالت في المشفى. فتنهدت وتنفسَت الصعداء، حينها دلفت ممرضةٌ تحمل بين يديها طفلين، ولدًا وبنتًا، وضعتهما بجانبها وخرجت. فاقترب (إبراهيم) من ابنته، وهمس في أذنها:

- حمد الله على سلامتك.

ابتسمت بوجهٍ مُرهَق، ثم اعتدلت لتنظر إلى التوأمين اللذين أنجبتهما، فضمتهما إليها، واستراحَت بعدها أنفاسها وانتظمت في الوصول إلى رئتيها مُحمَّلةً بالطمأنينة.

****

عقلٌ يدور وعينان غير ثابتتين..

جسدٌ بالٍ لا يقوى على حملِ نفسه..

يسير في طريقٍ أسود أغبر كغيره من الطرقات القاتلة..

أحس من أعماقه بأن النهاية ها هنا تقترب، إذ إن جسده لم يذق طعامًا منذ أكثرِ من خمسةِ أيام، ولا نقطة ماءٍ لامست جوفه منذ يومين أو أكثر، فسار متخبطًا يحاول التماسك بقدميه المتراقصتين على أنغام الموت..

ارتكن بجانب مقلبِ قمامة، ارتمى عليه، شعر بنفَسِه يضيع، وروحه توشك على التحليق هاربة..

بأصابع مُتعَبة غير ثابتة، عبث في القمامةِ عن أي شيءٍ يمكنه تناوله، فلم يجد سوى الغبارِ والعفَنِ والتلف..

صرخ بصوتٍ مؤلم، واعتدل على ظهره لينظر إلى سماءِ ليلٍ مقبض، كأنه يستنجد بِمَن في يده الأمور. لم يستطِع التماسك أكثر، وشعر بأن غمامةً ترتسِم في الأفق فوق رأسه، وبأنه على وشك الرحيل، فالتقط نفسًا عميقًا محمَّلًا بالإنهاك، وارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ بالية، فها قد حان وقت انتهاء لحظات العذاب الأليم، إنه على وشك الانقضاء، وحينها فقط سترتاح نفْسُه، ولن يُعذَّب مرةً أخرى، إذ سيكون بين يدَي الخالق..

أغمَض عينيه ببطء، وقد أوشك على فقدان وعيه، ولكن حدث شيءٌ غريب..

شعر بسائلٍ أغرَقَ جسده كله، ففتحَ عينيه ببطء مع تغلغل رائحة السائل إلى رئتيه الضعيفتين، إنها تشبه رائحة البنزين، هو يتذكرها جيدًا، فقد امتلك سيارةً قبلًا، عندما كان مديرًا لبنكٍ ذي صيتٍ واسع، وقد كان له احترامٌ عظيمٌ بين الناس، إلا أن استمرار الحال من المُحال، وها هو ينام بين تلال القمامة ويُعامَل مثلها..

حاول استيعاب الأمر بعد أن اشتمَّ رائحة البنزين، ففتح عينيه عن آخرهما وحاول كشف ما يحدث حوله، تحامل على يديه وجلس نصف جلسةٍ بعد محاولةٍ أنهكت ما بقيَ له من قوة، ليُصعَق ممَّن يقفون أمامه، اثنان من الرجال الأشداء يبتسمان في وجهه..

كادت تخرُج الكلمات من فمه، لولا أن أحدهم أخرج علبةَ كبريتٍ وأشعل منها عودًا، فأدركَ ما هو مُقدِمٌ عليه. صرخ بصوتٍ مهولٍ لم يكن يتوقع أن يخرج منه، وأشار إليهما بيده يستنجد بهما، لكن لم ينتبه إليه أحد ولم يُلقِيا له بالًا، بل ألقى حامل الكبريت بالعود عليه، لتُمسِك فيه النيران من فورها وتقتنص منه ومن كل ذرةٍ فيه. وقف على قدميه سريعًا لا إراديًا، وركض في الأرجاءِ يصرخ محاولًا إخماد النار التي التهمته في غمضة عين، ثوانٍ مرت والاثنان الآخران يضحكان عليه وهما يتابعانه، حتى شعر بأنه يذوبُ بين النيران، وبأن قدميه قد بدأتا في مرحلة التفحم، وفي أثناء ركضه، تعثر في حجرٍ ليسقط أرضًا، كأنه احتاجَ إلى ذلك الحجر ليَخُر فيتهاوى..

دقائق مرت عليه، لم يفكر فيها من قوةِ الألم وهولِه، حتى أُسدِلت ستائر عينيه ورحلَ من الدنيا كما أتاها، صفر اليدين إلا من أعمالٍ قد تُثقِل كفَّة الحسنات في ميزانه، فكانت نهايته أشدَّ عذابًا مما عاناه في حياته كلها.

وقف الاثنان ينتظران انتهاءِ الحريق، وبعد أن خمد، أحضرا نقالةَ إسعاف، وضعاها بجانبه، ثم خلعا سترتَيهما، ولفَّ كلٌّ منهما سترته على إحدى يديه المحروقتين، ثم رفعا جثته المتفحمة على النقالة، وسارا بها مسرعين نحو مخبأهما، فقد أحضرا طعامَ شهرٍ قادم، ولن يُعيلا همًّا إلا للماءِ في الأيام المقبلة.

****

في بؤرةٍ مظلمةٍ لا تكشِف عنْ ما فيها، خلف كشافٍ يُضيء غرفةً صغيرةً بشعاعِ نورٍ ضئيلٍ مُسلَّطٍ على جدارٍ في الواجهة، وقفَ (إبراهيم) بجسدٍ عارٍ وراء الكشافِ ناظرًا أمامه بشموخ، دون قطعة ملابس واحدةٍ تستر عورته، مكث يتأمل الجدارَ بوجهٍ شارد، وقد سرحَ في تفاصيله..

على الجدار، عُلِّق جلبابُ الشيخ ومسبحته في أقصى اليمين، وملابسُ الموظفِ المسيحي والصليب الذهبي في أقصى اليسار، وفي المنتصف تمركزَت بدلة الغني ولازمتها حقيبةُ الأموال إلى جهةِ ملابس الشيخ، في حين استندت زجاجةُ الخمر وسروالُ الملحد وكتبه المؤلَّفة إلى جهة ملابس المسيحي. فعُرِضت أمامَ (إبراهيم) الشخصياتُ الأربع التي تنقَّل فيما بينها لمدةٍ كبيرةٍ تجاوَزت الخمسةَ والعشرين عامًا، وقد حان وقتُ إنهاء حساباته..

أطلقَ تنهيدةً مُعتَّقة، ثم استبدلَ بها نفسًا طويلًا، وسرحَ بأفكاره بعيدًا، مع عائلته التي تمثَّل فيها أبغضُ أنواع الشرِّ على الأرض..

زوجته (سميرة) التي تدعو إلى الانتحار وتُقنِع الناس أنه ليس حرامًا، وقد زنَت مع ابنه (يزن) الذي حشَد مجموعةً من الناس لنشرِ الإلحاد..

زوجته (مارسلين) التي تدعو إلى «حرية المرأة»، فقط لأنها تريد نشرَ المثلية الجنسية وحثَّ المجتمع على قبولها كصورةٍ من صور التعايش، فسقَت الناس أفكارها رويدًا رويدًا حتى تُرسِّخ مفاهيمهما الشيطانية تلك في عقولهم دون أدنى وعيٍ أو إدراك..

ابنه (فارس) الذي أجرى عملية التحويل الجنسي فأضحى سعيدًا بقراره وشرع في إقناع أصدقائه المثليِّين بإجراءِ العمليةِ نفسها لممارسة حقوقهِم على الملأ ودون أن يحِق لأحد معارضة أفعالهم المُستَهجَنة..

ابنه (أدهم) الذي ابتدأ مشرَوعه الخاص، موقع الأفلام الإباحية، والذي سيُجاهِد من أجله حتى يغزو العالم أجمع ويتصدَّر قائمة المواقع الأشهر عالميًّا..

ابنته (يارا) التي أنجبَت دون علاقةٍ شرعيةٍ وقرَّرت مواجهةَ العالم بفعلتها، بلا تأنيبِ ضميرها للحظة، بلا خوفٍ من جحيمٍ وقودها الناس والحجارة..

زوجته (فريال) التي تفانَت في غزل خيوط البداية لفتنةٍ طائفيةٍ دون أن تدرك، أو حتى تفكر..

تلك عائلته، عليه مساندتها، مهما كلَّف الأمر، كما يفعل دائمًا. ولكن، لكلٍّ طريقُه الآن، فوجَب عليه هو الانسحاب..

لن يظهر مرةً أخرى..

سيختفي من حياتهم..

سيتركهم يختارون طريقهم ويسلكوا النهجَ الذي يريدون.

لن يتدخل في قراراتهم..

فقط سيختفي..

بكل هدوء..

فقد انتهى الأمر..

وحان وقت الانسحاب!

(١٠)

الدين عمود الحياة..

دون دين، لا حياة!

«الآن دَعني أتنفّس، لقد أمتَّني وأحيَيتَني، لو أنَّ أي
إنسانٍ آخر مكاني لكانَ آمن بكَ على الفور، وأقسَم
بأنكَ الإله لا سواك! ولكنني كما قلت، مميز، وأحمل
الروح التي تبحثُ عنها، فما الذي يُثبِت لي بأنكَ حقًا
إله؟! وأنَّ ما حدثَ لي ليس بسحرٍ كما الذي يحدُث كثيراً
في هذه الأيام؟ !»

الأرقم إلى السامري

الإيمان بالنفس..

مر على اختفاءِ (إبراهيم) أكثر من شهر، انكفأت الصحف والمجلات تبحث عنه ليلَ نهار، الكلُّ يبحث في اتجاهٍ من أربعة؛ الملحد له شأنٌ عالٍ وتناثرت الأخبار تتحدث بسيرته في كل مكان، حتى اعتقدوا أنه قُتِل على يد أحد المتدينين. والغني له مكانةٌ بين ساسَة البلدِ واختفاؤه تسبب في الكثير من القلق، وكان معروفًا عنه أنه صاحبُ مشاكلَ عديدةٍ بينهم لما يُخفيه من أوراق تُدينهم، وما غلبَ ظنَّ الجميع أنه قُتِل على يد الحكومة. أما المسيحي، فقد التجأَ أهلُه إلى الكنيسة، لكنها رفضت المساعدة جرَّاء آخر موقفٍ صارَ معه ومقاطعة البابا له حين سبَّح كالمسلمين في الكنيسة، واعتقد البعض أن هذا أيضًا ربما سبَّب مقتَلَه على يد أحد المسيحيين. وعن الشيخ، فإن ما فعله قبل اختفائه من تزيين المسجد

بالأيقونة المسيحيةِ والصليب، قلبَ عليه الدنيا رأسًا على عقب، ولكن عزا البعض سببَ غيابه المفاجئ إلى ما حدث في المسجد، وأن أحدًا ما قتله..

لذلك، نصبَت العائلات الأربع عزاءاتها كلٌّ بطريقته الخاصة، دون جسد، ولم يلحَظ أحد أن الغائب واحد، ولم يهتم أيٌّ من أفراد عائلة (إبراهيم) المشتتة -ممن تداخلت خطوط حياتهم مع بعضهم بعضًا- لمعرفة تفاصيل الغائب الخاص بالآخر، فقط كلٌّ اكتفى بمصيبته، حتى مرت الأيام وتناسَت العائلات الأمر، لتُكمل طريقها المرسوم.

****

انتشر الظُّلم في الأرجاء، القتل أضحى مهنةً يمتهنها من يملك القوة، والصائدون يتكالبون على البشرِ كالحيوانات فيُنهون نسلَهم، حتى إنهم أحيانًا ينقضُّون على بعضهم بعضًا إن لم يجدوا فريسة، إذ إن جسَد الصائد يعُتبَر مميزًا لما فيه من قوةٍ وجبروتٍ ظاهِرين للعيان..

النهاية على وشك إسدالِ ستارها، والموت أضحى صديقًا للجميع، في حين حلَّ الخراب على البلادِ فما عاد لها وجود..

وقد تم اغتيال بعض الرؤساءِ قبلًا وتقطيع جثثِهم، ونابشي القبور تكاثروا حتى اندثرَت عادةُ الدفن وما عاد للجثث وجودٌ إلا في بطونِ الصائدين..

وفي ظل سحابةِ العَتمةِ التي غمَّمَت على الجميع، أسدلَت الطبيعة ستار نهايتها، إذ إن المياه جفَّت من جميع المحيطات والأنهار، فما صارَ لقطرةِ ماءٍ وجود، علامةً على دنوِّ فناءِ البشريةِ جمعاء والحياةِ على كوكب الأرض.

الحرب أصبحت ضروسًا على مَن سيستطيع البقاء، ليس فقط الصيد ومحاولة سد البطون، بل البقاء لارتشافِ الماءِ وسد الظمأ ومعها سد البطون..

فتعاظمَت الكارثةُ ولم يعد لها حلٌّ ولا بديل..

نهاية البشرية على الأعتاب..

إنها تطرق الأبواب، قابِلوها بابتسامةِ الانتصار، حتى لا تتشَّفى من قلوبكم!

****

انتهت (ماريان) من كتابة كتابها الذي يجمَع بين كل الأحداث التاريخية البارزة، والتي بالطبع حرَّفت مجراها، وبدَّلت كل الأسُس التي سُجِّلت على أساسها تلك التواريخ، وتلاعَبت بها كأوراقِ الأوريجامي تشكلها كما تريد، ثم سلَّمته إلى دار نشر كبيرةٍ ومرموقةٍ في الدولة، والتي وافقت بدورها على نشره بترحاب عظيم..

وصدَر الكتاب بالفعل، وقلَبَ الرأيَ العام كله، وانقلبَت الدنيا على الأحداث المهولة المُسجَّلة فيه، بين مؤيدٍ لها ومُعارِض، حتى إن الناس هاجموا بعضهم بعضًا في الطرقاتِ بعد مناقشات طويلةٍ بينهم حول الكتاب، فأحدثَ بلبلةً وأقامَ الدولةَ على قدمها ولم تقعد.

****

توقفت (فريدة) -فارس سابقًا- بسيارتها أمام ذلك المبنى الذي تقطن فيه عيادة الطبيب الذي أجرى لها عملية التحويل الجنسي، ومعها أكثر من عشر سيارات أخرى. توقفوا جميعًا وترجَّلَت مجموعةٌ من الشبابِ والفتيات، ليقفوا بجانب (فريدة) التي قالت في أثناء مضغها علكةً تغتصبها بين شفتيها بتقصُّع:

- الدكتور اللي عمل لي العملية هنا، وبيفهم في كل حاجة، سواء كنتِ بنت وعاوزة تبقي ولد، أو كنت ولد وعاوز تبقى بنت، الراجل ده شاطر قوي.

ثم تحركَت نحو بابِ العمارة، وتبعها الآخرون، أولئك المعترضون على إرادةِ الخالق ويحاولون مواجهته بتغيير أنفسهم، الكافرون الجاحدون الذين لن ينعموا في الآخرةِ بلحظةٍ طيبة.

****

العصر الفرعوني: «جزيرة الثعبان»!

أمر الحاكم المصري بإعداد سفينة ضخمة من أعظم السفن في ذلك الزمن لاستكشاف المناجم في أراضي ما بعد البحر الشمالي، وقد تم تجهيزها بالمؤن والعتاد التي تكفيهم ليستطيعوا تحمل مشقة تلك الرحلة المهيبة، ثم أمر كبار الدولة باختيار أقوى جنود جيشه وأشجعهم وأكثرهم درايةً بالبحار، فتم اختيار خمس مئة جندي خلقوا من الصلابة ولا تردعهم أعتى الصعاب..

جهزوا سفينتهم وأطلقوها لتطفو على مياه البحار، وشدوا أشرعتها وأبحروا نحو المجهول بحثًا عن لا شيء..

وفي أثناء إبحارهم، اشتدت العواصف وعلَت الأمواج، ولكنهم صارعوها وتابعوا إبحارهم متمسكين بطريقهم، إلا أن الأمر ازداد سوءًا، إذ هطلت الأمطار بغزارةٍ غير مسبوقة حتى كادت تغرق السفينة، وصرخ الرعد في السماء معلنًا عن غضبه، ثم بغتة، وفي أثناء مبارزتهم كل الكوارث التي قذفتهم بها الطبيعة، ظهرت أمامهم صخورٌ لم تبصرها أعينهم، واصطدمت بها السفينةُ فتحطمت وتناثرت إلى أشلاء وغرقت وسَط البحر ليلًا..

ابتلع موج البحر كل من فوق السفينة، إلا رجلًا واحدًا تعلق بلوحٍ خشبيٍّ وشرع في التجديف بعيدًا هربًا وأمنيته النجاة..

تلاعب به البحر لثلاثِ ليالٍ، فكان يجدف فيها غير عالمٍ وجهته، محاولًا التمسك ولو ببصيص أملٍ كي ينجو، حتى شعر بالجوع والعطش وكاد يموت من الألم، فأُنزِلَت عليه الرحمة بأن أُغشيَ عليه، فلم يشعر بنفسه إلا وقد جرفه التيار إلى جزيرةٍ غريبةٍ لا يعلم عنها أحدٌ شيئًا..

استفاق جائعًا عطِشًا مرتعدًا، تلفت حوله بعينين ذابلتين. الجزيرة لم يكُن لها مثيل، وهو العالِم بالكثير من الجزر؛ مملوءة بالحيوانات من كل الفصائل والألوان، بها كل أنواع الفاكهة، كأنها قطعةٌ من الجنة قد نزلَت من السماء. فحمِدَ الآلهة ومكث فيها يقتات من طعامها ويشرب من شرابها ويقدِّم -من مكانه هذا- القرابينَ للآلهة المصرية كي تنقذه وتساعده!

حلَّ عليه ليلٌ حالك، فأشعل بعضًا من الخشب، وجلس على البحرِ يتأمل أمواجه. سمع أصواتًا تهمس من خلفه، التفت نحو مصدرها، فرأى الأشجار تهتز بطريقةٍ عجيبة، وقف على قدميه خائفًا مرتعبًا، وإذا بثعبانٍ ضخمٍ ذي حراشف مهيبة يخرج من وسط الغابة، فتراجع إلى الخلف مرتعشًا وقد اقشعرَّ بدنه وتملكت الغرابةُ منه، ثم إذا به يسمع الثعبان يقول له:

- من أيِّ أرضٍ أتيت؟

لم يُجِب الجندي لما هاله من الذهول والخوف اللذين سيطرا على كل مشاعره، فكرر الثعبان سؤاله. لم يُجِب الرجل أيضًا من هول ما يراه، فاقترب منه الثعبان مُصدِرًا فحيحه، ثم حمله غصبًا وقسمات وجهه تنفث الغضب، ليصرخ الرجل، ولكن ما من معين. اصطحبه الثعبان إلى داره، فأنزله ونظر إليه مكررًا سؤاله، فأجاب الرجل هذه المرة بتلعثمٍ محاولًا لملمة شتات نفسه:

- جئتُ من أرض مصر، كنت أبحر مع زملائي البحارة، وغضب إله البحر علينا فغرقت بنا السفينة ولم ينجُ سواي..

بعدما سمع الثعبان حديثه، قال مُطمئِنًا إياه:

- لا تجزع أيها المصري، أنتَ آمنٌ هنا فوق جزيرتي، هنا إله البحر لا طائلَ له بك، لقد كنت أنتَ المختار الذي أنتظره منذ فترة، أنتَ المختار الذي نجا من الكارثة العظيمة.

شعر الرجل بقليلٍ من الأمان، فاستراحَ وسأل:

- من أنت أيها الثعبان؟!

وكأن الثعبان قد علِم بالسؤال قبلًا، فأجاب من فوره بحديثٍ تملأه الغرابة:

- أنا لا أحد، يمكنك أن تدعوني بالثعبان، لقد كان يعيش معي على هذه الجزيرة خمسة وسبعون من رفاقي، لكن شُهُبًا سقطت عليهم فأحرقتهم جميعًا، ولم ينجُ سواي، هكذا علِمتُ يومها أنني المختار، تمامًا مثلك.

ابتسم الرجل متذكرًا ما حدث له، ثم قال:

- يبدو أنك محظوظٌ مثلي سيدي..

فأجابه الثعبان بفحيحه المهيب كي يُطمئنه:

- أملك أيضًا القدرة على التنبؤ، فبعد أربعة أشهر ستأتيك سفينة لتنقذك وتعيدك إلى ديارك..

هلل الرجل فرحًا وشعر من دواخله بأن الدنيا تبتسم له مرةً أخرى، فقال باسمًا:

- أحقٌّ ما تقول؟! أقسم بعظمة الآلهة أن هذا لو حدث فسأعود إليك مُحمَّلًا بالهدايا والقرابين..

التف الثعبان حول محوره كأنه يكشف ما حوله، ثم شرع يقول:

- جزيرتي لا تحتاج إلى شيءٍ من قرابينك، وعلى أي حال، لن تستطيع الوصول إليها ثانيةً، إذ ستختفي الجزيرة فورَ مغادرتك وتعود لتصبح تحت الماء، ومن ثم ستظهر ثانيةً

في وقت زيارة المختار التالي.. اتبَع الثعبان الذهبي، وغير مسموحٍ لك التصريحُ بأنك قد قابلت ثعبانًا يتكلم هنا على الجزيرة.

وبوجهٍ بشوشٍ تقبل حديثه، خوفًا أم فرحًا لا يعلم، إلا أنه قال وقسمات وجهه تُبدي الطاعة:

- كما تريد أيها الثعبان.

قبل انتهاء الأشهر الأربعة، عاد الثعبان مرةً أخرى إلى الرجل وأهداه الكثير من الهدايا، ذهبٌ وفضةٌ وعاج، ففرح الرجل وشعر من صميم قلبه بأن الآلهة تُنزِّل عليه رحمتها. وبالفعل، بعد اكتمال الأربعة أشهر، سمع صوت سفينةٍ ترسو على شاطئ الجزيرة، فأقبل إليها فرِحًا وركب عليها، هو وكنزه الذي حصل عليه..

وعندما عاد، حكى للملك المصري ما حدث معه تفصيلًا، ولشجاعته أبقاه الملك بالقصر مكافأةً له، فكان أول جندي يتقرب من العرش بتلك الدرجة، حتى إنه كان يجلس مع صفوة المجتمع كأنه أحد الوزراء.

****

- يا حرامية يا بنت الكلب، وديني ما هسيبك غير لما آخد فلوسي!

في الشارعِ أمام بيت (إبراهيم) المسيحي، صرخت (أم عمرو) في وجهِ (فريال) وهي تهاجمها، مُتفوِّهةً بتلك الكلمات، بعدما لملمت (فريال) الأموال منهم وأخفَتها عنهم. لقد سكتوا عنها شهرًا مراعاةً لاختفاءِ (إبراهيم)، لكنهم لن يَخْرَسوا أبد الدهر. ساندت (أم أحمد) (أم عمرو) في هجومها على (فريال)، فاشتعل الشارع من كل حدبٍ وصوب بالمتجمهرين حول (فريال)، والثماني عشرة امرأة الأخريات اللاتي دخلنَ معها في الجمعية، وقد كُنَّ مسيحيات. هاجَمنَها، اشتعلت الأمور، فصارت (فريال) على وشك الانهيار،

وبعدما أحست أن الجميع يقف ضدها، صرخت وصاحت بصوتٍ عالٍ هزَّ الأرض تحت أقدامهم:

- أنا اتسرقت! أم أحمد وأم عمرو لما عرفوا إن الـ١٨ التانيين مسيحيين، سرقوني علشان هما مسلمين، يعلم الرب إني اتسرقت..

وهوَت أرضًا محتميةً بانهيارها، لتتقابل الجِبَاه، المسلمة والمسيحية، ويشتعل فتيلُ قنبلةٍ لن ترحَم أحدًا.

****

«أستطيع أن أميتكَ مجدداً ثم أحييك، ولكن في عصرٍ آخر»

السامري إلى الأرقم

مهدي..

بعد أن استحال الإنسان إلى حيوان، وبعدما جفت الأبار والأنهار والمحيطات، اعتمد الإنسان على ما تبقى من مخزون ماءٍ والذي يوشك على النفاد بدوره، في حين اجتازَت عدد الوفيات أضعاف الأضعاف، واقتربت البشرية من الانقراض..

النهار يسطَع في الأجواء ليُنير الطرقات السوداء، فيُظهِر الموت متجسدًا بحقيقته في الموجودات، ثم ترحل الشمس لتتراقَص الأشباحُ والشياطين فرِحةً بانتصارها الوشيك على الجنس البشري..

في ليلٍ حالك، وبين جدران المنازل المهدمة، تجلّى (مهدي) بجسده النحيل، يجر عربته التي حصَل عليها، كان أحدهم يرُص عليها الخضار في الزمن الذي ولّى، وقد استخدمها هو لأغراضٍ أخرى..

يسير منهكَ الجسد مهتزَّ القدمين غير ثابت، يرتدي ملابسَ رثةً غير مهندمة، وشعره الأشعث الطويل أضاف إليه هيئةَ المرضى النفسيين، وذقنه الكثيفة رسمَته متسوِّلًا لم يستحم منذ سنين. ومَن في هذا الزمن يبحثُ عن الثياب المريحة والاهتمام بالمظهر؟!

(مهدي) رجلٌ قاربَ على إتمام عقده الرابع، في التاسعة والثلاثين من عمره تحديدًا، فقَدَ كل شيءٍ في النكسة، ويقتاتُ على فتاتِ الأمواتِ كي يعيش. لكنه مميز، إنه عالِمٌ ذو عقلٍ رصين، استطاع بالمواد الكيميائية وبعض الحِيَل أن يُبقيَ نفسَه على قيد الحياة حتى هذه اللحظة، وذلك بفضل مَعملٍ صغيرٍ يعيش فيه، والذي أوجَد له مكانًا داخل جُحرٍ في جوفِ الأرض متخفٍّ عن صائدي الأحياء وغيرهم. يخرج (مهدي) في كل شهرٍ تقريبًا ليَستزيد من الماء، إذ إن له طريقَته الخاصة في توفير المياه، وقد اعتاد عليها، وتلك هي رحلته الآن..

يسير متلفتًا حوله ساحبًا عربته بحثًا عن جسدٍ هالك لميتٍ لم يمر عليه أكثر من يومين، إذ إنها المدة التي يبدأ فيها جسد الميت بإفرازِ السوائل والفضلات بعد تمام مُفارَقة الروح له، وتلك السوائل هي بالضبط ما يحتاجه (مهدي) ليعيش.. انطلق هائمًا بين طرقات مِصر الموحشة، والتي لا تفرق في طرقاتها كثيراً عن أي دولة في هذا الزمان؛ العالم كله يحتضر، شبيهٌ بجسدٍ قد التهمه السرطان فما عاد فيه مكانٌ يصلح مثوى للروح..

توقف في زقاقٍ ضيقٍ عندما لمحَ جسدًا مرميًّا على مدِّ بصره، دقق فيه أولًا ليتأكد من نضوجه، ثم تلفت حوله متيقنًا من عدم وجودِ أحدهم، فتقدم نحوه بعربته، واقترب منه. جثة رجلٍ في الأربعين من عمره، ميت منذ يومين تقريبًا، إذ لم تبدأ أعضاؤه في التحلُّل بعد، في حين أن السوائل ليس أمامها الكثير من الوقت قبل بدء انسيابها منه. إنها أسوأ حالةٍ لجثة يمكنه الاستفادة منها، لمرور يومين عليها، لذا فعليه الإسراع كي يستطيع جنيَ

ما يريده منها قبل فواتِ الأوان، وحتى لا تتكدس الأمراض في جسده، والتي اعتاد عليها بكل أنواعها وصار يسير وخلاياه مُشبَعة بها..

هندم وضعَ العربة بجانب الجثة، ثم نزل على ركبتيه، وجاهد في سبيل رفع الجثة فوق العربة، ذلك دومًا ما يحدث له في كل مرةٍ يخرج فيها لرحلته. وبعد كبير مجهود، استطاع رفع الجثةِ على كتفه والإلقاء بها فوق العربة، عدلَ وضعها، ثم دفع العربة عائدًا إلى مخدعه..

مشى لساعاتٍ طوال، خاف أن تتحلل الجثة في أثناء سيره ويفقد غنيمته من سوائلها، علاوةً على أنه بدأ يشعر بالتعب وانهارت قواه، وأحس بالعطشِ يتملَّكه، إنه لم يذق الماء منذ يومين، وقد اعتاد على الأمر، فهو ينظمُ ذلك منذ ما يقارب السنة، يشرب في كل يومين رشفةَ ماءٍ كلما استطاع توفيرها، وإن لم يلحَق فمِن الممكن أن تتملكه «غيبوبة ماء»، تلك التي تُفقِده وعيَه إن لم يستطِع توفير الماءِ لجسده، وقد يفيق بعدها أو يموت. لذلك، فإنه يكون حريصًا على ضبط موعد تلك الرشفة، وتساعده في ذلك ساعته التي يرتديها في يده ولا تفارقه، فيعرف من خلالها الوقت، تلك الساعة التي ترِن الآن علامةٌ على ميعاد شربه..

ركن العربة بجانب أحد الأرصفة في طريقٍ مُهدَّم، ثم جلس عليه، وأخرج زجاجةَ ماءٍ صغيرةٍ من داخل سرواله، ماءٌ يطفو عليه بعض العفن، ولونه غير نقي، بل مُصفَرٌّ ومُعكَّرٌ نوعًا ما. فتح الزجاجة، رائحتها عفنةٌ مقرفة، ورغم ذلك اعتاد عليها، وقد اشتمَّ رائحتها المقززة قبل أن يتناول رشفته المعتادة، ثم أغلقها وأعادها إلى سرواله، وبسرعةٍ غطاها بردائه، ثم تربع على الرصيف يتلفت حوله متفقِّدًا الموجودات..

لحظاتٌ وتدفَّقت مشاعره تُجبِره على الاندهاش، فضحك غصبًا من هول المشهد..

تقريبًا لم يتبقَّ الكثير، أرواح قليلةٌ تتخفَّى في الظلام باحثةً عن مأوى..

تذكر مشهدًا عاشه قبلًا، منذ سنين طويلة، حينما كان يدرُس في كلية العلوم بجامعة القاهرة، وقد تعرَّف من قبل على فتاةٍ في غاية الجمال، اعتادا السير معًا في الطرقات وهما مُتشبِّثين ببعضهما يدًا بيد..

ذات يوم، وفي ليلةٍ شتويةٍ عاصفة، ألحَّ عليها كي يخرُجا ليلًا معًا، وقد أقنعها بالفكرة، على الرغم من أنها من عائلةٍ شديدة الالتزام، وهو كذلك متشددٌ دينيًّا، لكنه يعيش حياته كبقية البشر، ليس منغلقًا..

أرادا أن يُذهِبا عقليهما معًا، فصاح الناس فيهما بأنهما مجنونان، وبالفعل خرجا وسارا برفقة بعضهما حتى تجاوزَت الساعة الثانيةَ بعد منتصف الليل. وعصفت السماء لتمطر عليهما، حينها انقلب منزل الفتاة رأسًا على عقب بحثًا عنها، لكنهما اخترعا معًا حُجةً تخبرها لأبيها..

اشتد المطر في السماء وهما سائرَين في الطرقات، في حين يهدر الرعد صوته ويضرب البرق سوطه، لتغرق ملابسهما بماءِ المطر..

عنفا الأرض بأقدامهما، ركضا، لعِبا، ومرِحا. ومن ثم غنَّى (مهدي)، ورقصا معًا، تلك الرقصة أسفل قطرات المطر التي تداعبهما، إذ إن الطريق كان فارغًا، الناس يحتمون بعيدًا عن الأمطار، فيما يغنيانِ هما ويرقصان. تلك لحظةٌ لن ينساها إلى طلوع روحه من جسده..

ابتسم (مهدي) لتلك الذكرى الجميلة، وتساءل للحظات عنْ ما حلَّ بتلك الفتاة، بالتأكيد قُتِلت أو ماتت جوعًا أو عطشًا. ضحك من الزمن، لقد افترقا منذ ذلك اليوم؛ بعد عودتها إلى المنزل عنفها والداها، ولم تنجح الحُجةُ في إقناعهما، وأقلعت عن الذهاب إلى الجامعة، ولم يرَها مرةً أخرى. لكنه ما زال يتذكرها، من الممكن أن يكون ذلك لارتباط ذكراها بالمطر الذي يتمنى نقطةً منه الآن، أو لأن الطرقات -في هذه اللحظات- فارغة، كانا يخشيان حديث الناس في ذلك اليوم، إلا أنهما تغلَّبا على الأمر معًا. الآن لم يعد يوجد أناسٌ يركضون حولهم وينظرون إليهم كالمجانين، كل تلك المواقف أضحَت من الماضي،

وكل شيءٍ ذهَب. ما يهتم به الناس قديمًا صار ترهات، لا أساسيات ثابتة، ولا مُعطَيات؛ الثابت هو الموت، انهيارُ الحياة، اقترابُ الأجَل وأوان الرمق الأخير..

تحامَل (مهدي) على قدميه، وتحرك بضع خطوات، مُتذكِّرًا تلك اللحظة التي كان يتراقص فيها مع حبيبة عمره، ثم صار يتمايَل وشرع في الغناءِ رويدًا رويدًا، وأخذ يحرك قدميه بعدم تناغم لهشاشتهما وضعفهما، وجسده كذلك، محاولًا إعادةَ لحظةٍ سعيدةٍ من الماضي، فأغمض عينيه، وأخذ يردد على شفتيه أغنيةً لـ«فيروز»..

كِنا نِتلاقَى من عَشية، ونقعُد على الجسر العتيق..
وتِنزَل على السهل الضبابة، تمحي المدى وتمحي الطريق..
ما حدا يعرف بمطرحنا، غَير السما وورق تشرين..
ويقول لي بحبَّك أنا بحبك، ويهرُب فينا الغَيم الحزين..
يا سنيني اللي رحتي ارجعي لي، ارجعي لي، شي مرة ارجعي لي..
وانسيني ع باب الطفولة، تا أركُض بشمس الطرقات..
يا سنيني اللي رحتي ارجعي لي، ارجعي لي، شي مرة ارجعي لي..
ورُدِّي لي ضحكاتي اللي راحوا، اللي بعدا بزوايا الساحات..
بِتذكر شو حِكيوا عليِّ، لما نطَرت وإنتَ نسيت..
صار الشِّتي ينزل عليِّ، وإجا الصيف وإنتَ ما إجيت!

أصرت دموعه على الانطلاق لتبلل خديه، في حين تعاظمت طَرَقات مشاعره على أبوابٍ أغلقها وأغرق مفاتيحها، كأن لمحةَ الماضي أفقدته كل ما يمَس الحياة من معنى. تهاوَت

قدماه وكاد يسقط، ففتح عينيه رويدًا رويدًا حتى وضَحَت الرؤية من جديد، إنه يرقص على أنقاضِ المدينةِ الخرِبة، لا وجود لتلك الفتاة، لا وجود لعائلته، ولا وجود لأي شيءٍ سوى الخراب.

سقط أرضًا من هولِ ما شعر، فيما تسابقَت دموعه على النزول غصبًا، ومن ثم انتزع من الهواء نفَسًا يُغذِّي به رئتيه المقهورتين، نظر في الأرجاء، تفقَّد المكان ولم يجد أحدًا، فنظر إلى السماءِ وصرخ بصوتٍ حطمته القسوة استنجادًا بأيٍّ ممَّن قد يسمعه، فاضَ بصُراخِه كما لم يَصرُخ من قبل، صرخ بحُرقةٍ على ما آلت إليه الأحوال، ثم انتفض جسده وهو يقول بصوتٍ عالٍ مُستنجِدٍ وصلَ إلى مسامع الجماداتِ من حوله:

- يا رب!

وبعدها صمت، ليسمع صوتَ الهدوءِ الصاخِب الذي تخَلَّل إلى أذنه، إنه صوتُ تلك الصافرةِ البغيضةِ التي تُنبِّهك بأنَّ لا أحدَ حولك، لا شيءَ سوى الفراغ، فلا تتكبَّد المشقة في البحثِ عن ناس، وإن وجَدْت، فأنتَ في عدادِ الموتى، إذ إنهم يَلتهِمون لحمَ مَن يُبصرِونَ شعرةً واحدةً منه خرجت عن حدود مخبأه. فقط استسلِم، ولا تُحاوِل..

حاول (مهدي) إجبارَ قدميه الخائرتين على السير، فتقدَّم صوب الجثةِ الساكنةِ على العربة، واقترب من وجه المسكين، لمس رأسه بيده اليمنى، ثم ربَّت عليه قائلًا:

- ارتاح.

لفَّ قبضتَيه على الخشبتين اللتين يقود بهما العربة، ثم دفعها إلى الأمام ليسلك طريقه المعتاد عائدًا إلى مخبأه الذي سيمكُث فيه خمسة عشر يومًا من الآن على الأقل، فقد حصَلَ على مبتغاه.

****

صمتَت (مارسلين) لدقيقةٍ تتلقَّى فيها أنفاسها بعد نصف ساعةٍ كاملةٍ لم تسكُت فيها لحظة، إذ لم تفعل شيئًا سوى التفلسفِ عن حقوق المرأة من خلال ذلك المؤتمر الذي واظبَت على حضوره، ولم تترك الفرصةَ فتطرَّقَت إلى بعض أفكار المثلية الجنسية بطريقةٍ غير مباشرة، وحين لاقَت استحسانًا كبيرًا من الجالسات، تنفست الصعداء وصاحت في مكبر الصوت:

- من حقي أقلع وأمشي في الشارع ملط من غير ما حد يقولي إنتِ بتعملي إيه، هي دي الحرية، هو ده المجتمع اللي فيه حقوق الإنسان، مجتمع مبيجبرش المواطن على إنه يعيش مُقيد.. أنا حرة، أعمل اللي أنا عاوزاه، ما دام مبأذيش حد.. أنا حرة.

وعَلَت نبرتها بالكلمةِ الأخيرة مُفزِعةً الحضور، ثم وقفت وشرعَت تخلع ملابسها قطعةً تلو الأخرى حتى تجردت منها كاملة، فمَثُلَت أمامهم دون ما يسترها، وقالت:

- اللي حاسة إنها مضطهَدة، إنها مش قادرة تاخد حقوقها في المجتمع ده، لازم تواجهه بنفسها، الكلام مبيغيرش، الفعل هو اللي هيغير.

وتحركت بينهنَّ -في ذهولٍ تامٍّ من الجميع- متجهةً صوب باب الخروج، لتقف السيدات كلهنَّ يتابِعنَ ما تفعل تلك المخبولة. لكن ما حدثَ كان أغرب، إذ إن سيداتٍ مرموقاتٍ في المجتمع شرَعن في خلع ملابسهنَّ هُنَّ الأخريات، ليُسانِدنَ بهذا (مارسلين) على فعلتها، بملء إرادتهن، ثم تحرَّكن واحدةً تتبع الأخرى مُنساقاتٍ خلفها، ليُواجِهن الشارعَ والمجتمعَ بما يدعونه «حرية»!

****

لهثَ (مهدي) بصوتٍ خفيضٍ مستمرٍّ آلَم جسده، وأما العرَبة التي يدفعها أمامه وعليها الجثة التي بدأت تتعفن وسيخسر معها حياته قد أنهَكَت ما تبقى له من قوة، مما أجبره على التوقُّف في ساحةٍ واسعة، وما بدا عليها أنها مكانٌ لقاعدةٍ عسكرية..

جثا على ركبتيه أمام غطاءٍ حديديٍّ دائريٍّ يحجُب حفرةً تحت الأرض، فلَفَّ مقبضه إلى اليمين، ليُصدِر بدوره تكَّاتِ الترحيب، فرفعه ليتجلَّى ما تحته، ثم توجه صوب الجثة، حمَلَها، واقترب من الحفرة في الأرض، ثم قال وقلبه مستاءٌ على إنسانيةٍ أُزهِقت:

- سامحني!

وترك الجثة لتنزلِق إلى الحفرة، لكنها لم تُصدِر صوتًا، أما عن اعتذاره، فذلك لانتهاكه حرمةَ الميت ومعاملته كدُميَة..

أدخل قدميه ونزل على سُلم مُعلَّق يتجه إلى أسفل، ومن ثم سحبَ الغطاء وأغلقه عليه من الداخل..

تابع نزوله حتى تجاوز السلم ووصل إلى أرضٍ صلبةٍ فوقف على قدميه، ونظر إلى الجثة التي استقرَّت بعد وقوعها فوق وسادةٍ أسطوانية من القُطْن، والتي جهَّزها مُسبَقًا لئلا ترتطم الجثة بالأرض. عدَل وضعَ الجثة، ثم تحرك لاهثًا نحو كرسيٍّ بالجوار فارتمى عليه يلتقِط أنفاسه..

غرفةٌ مستديرةٌ مُكتنِزَة بالكثير من الأشياء، في أحد أركانها جهازُ كمبيوتر على مكتبٍ متواضعٍ أمامه كرسي، وبجانبه جهاز كمبيوتر محمول صغير. وفي ركنٍ آخر وُضِع حوض استحمامٍ منزلي، يملأه سائلٌ غريبٌ يَغرَق فيه نصف جسد حصان مُقطَّع إلى أربع قطع، ويبدو أنه هنا منذ مدةٍ طويلة؛ ذلك طعام (مهدي) المُخزَّن، إذ يحفظه من التعفُّن عن طريق السائل، فهو خبيرٌ بالكيمياء ويستطيع التلاعُب بالمواد الكيميائية وتَسخِيرها لمساعدته على الحياة، وبجانب الحوض مَوقِدٌ لطهي الطعام، بالإضافة إلى فراشٍ ينام عليه في ركنٍ ثالث، وبجانبه رصَّة كتبٍ ضخمةٍ تتجاوز الألف كتاب، لنصل إلى الركن الأخير حيث كوَّن ببعض الأدوات الكيميائية مَعمَلًا صغيراً..

في ذلك المعمل الكيميائي المحدودة أدواته، يُحلِّل (مهدي) الجثةَ التي يُحضِرها، ويستخلص منها سوائلَ الجسد البشري كلها، ثم بطريقةٍ كيميائية، وباستخدامه مواده

وأدواته، يُحوِّل تلك السوائل إلى ماءٍ صالحٍ نسبيًّا للشرب، ما يكفي لملء ما يقارب نصف الزجاجة الصغيرة أو أكثر، وذلك ما برع فيه ليُشبِع حاجته إلى الارتواء. أما طعامه، فإنه يتمثل في نصف الحصان المُقطَّع والذي كان حصانًا كامل الهيئة من قبل، وقد استطاع الحفاظ عليه لمدةٍ طويلةٍ وما زال يعيش من لحمه..

التقط بضعة أنفاس، ثم استراح لدقائق قبل أن يتوجَّه صوب حوض الاستحمام مُمسِكًا بسكينٍ في يده، فاجتزَأ قطعةَ لحم، وذهب بها إلى الموقِد الذي أشعَل ناره، وألقاها في قلب اللهبِ حتى يتم شواؤها..

ترك طاهي الطعام يؤدي واجبه، واتجه هو إلى جثة الميت، فحملها وتوجه بها إلى المعمل، ليبدأ في عملية استخراجِ الماءِ منها قبل أن تجِف بالكامل، فقد خسرت الكثير جرَّاء تأخُّره في رحلة العودة.

****

هدَم (أدهم) أسوارَ الهدوء بضحكاته وهو يشاهد المقطع الجنسي الذي رفعَه على ذاك الموقع الذي شيَّده منذ ساعةٍ واحدة، وقد تخطَّى المليون مشاهدة! كان المقطع لنائب رئيس الجمهورية (عوني أبو جريشة)، وقد عثَر عليه (أدهم) في ذاكرة الكمبيوتر المحمول الخاص بوالده بعد موته، ذلك الكمبيوتر الذي يخزن الكثير والكثير من الفضائح للسَّاسةِ ورجال الأعمال وحكومةِ الدولة..

ولما فرغ من ضحكه، استراحَ على كرسيه، ثم سرح قليلًا بعقله هائمًا في الفراغ بعيني شيطانٍ مريد، فهو على بُعد خطواتٍ من أن يكون مالِك أكبر موقع أفلامٍ إباحية في الوطن العربي كله، وذلك كله يرجع فضله إلى والده العظيم.

****

انتهى (مهدي) من عملية استخراج الماءِ من الجثة، هذه العملية التي لإتمامها قطَّعَ الجسم واستخرجَ أعضاءَه الداخلية كلها، ثم سحَب كل السوائل منها ونظَّفَها من الميكروبات حتى استحالت في النهاية إلى ماء، ماء ملوث وعفن ورائحته نتنة ومُترَع بالأمراض، لكنه يُبقيه حيًّا، إنه بالكاد حصل في هذه المرة على بعض الماء بسبب انصراف سوائل الجثة نتيجة تأخره..

جمَعَ القطع المتبقية من الجثة في سلة، وأخرجَها على مراحل من مخبأه، ثم رصَّها على العربة، وتحرك بها ما يقارب المئتي مترٍ بعيدًا عن مخبأه، لتتجلّى أمام ناظريه مقبرةٌ دَفَن فيها الكثيرين، وقد مَيَّز كل قبرٍ فيها بلوحٍ من الخشب..

حفَرَ في الأرض قبراً، ثم دَفَن فيه بقايا الجثة، ونظر إلى السماء داعيًا بالمغفرة، ودموعه تنهمر منه غصبًا؛ لم يُرِد أن يعيش هكذا في يومٍ من الأيام، لكن أحوالَ الدنيا أجبرته..

انتهى من مراسِم الدفن، ثم عاد إلى مخبأه شاعرًا بالجوع، إذ لم يأكُل منذ يوم، فقصَد مباشرةً لحمَ الحصان، واقتطع منه قطعةً وشرع يطهوها.

****

الضرباتُ تكاثَرت فوق رأسي حتى تهشَّمت، وما إن تشكو إلى أحدهم مدى ضعفِ تحمُّلِك حتى يثرثر بأنك ستضحى أقوى! هؤلاء لم يشعروا بذلك الألم الذي اجتاحَ نفوسنا، لحظات الضعفِ والانكسار، الوجع والتخبُّط من أجل البقاء، الرعب الذي تملك منا، والخوف من الزمن، الخوف من ضربةٍ جديدةٍ قد لا تتحملها دواخلنا الهشة، إذ لا مجالَ لعودة تلك الثقة التي انعدمت، حتى في أنفسنا. أما عن مشاعرنا، فقد تبلّدت، أصابها الخدَر والجمود، لا شيءَ صار يحزننا، ولا شيء يستطيع إسعادنا، فقد أصبحنا على تمام اليقين بأنَّ لا شيء يدوم. الوحدة

أنهكَت قلوبنا، ومهما كان الزحام حولنا، نعلم جيدًا أن الجميع سيتخلى عنا فور تلقِّينا ضربةً جديدة، ولذلك تعلمنا الأنانية والقسوة، حتى لا يكسرنا فراقهم..

وها أنا أتلقى ضربةً أخرى على رأسي، قتلَتني فما عاد في النفس رغبةٌ للاستمرار، قضَت على كل ذرةِ تحمُّل في دواخلي، حطَّمت كل ما أملك من قوة، ورسَمت النهاية أمام عيني، كأنها تخبرني أن حائط الدفاع الأخير قد انهار. فلتنتهي تلك المكابرة والتمسك بالحياة، فلينتهي الأمر بسلام، إذ لا شيء يستحق البقاء، ولا شعاع نورٍ في نهايةِ الممر يرشدني، فقط اللون السواد الحالك غزا الموجودات.

السلامُ على روحي قبل رحيلها، والسلام عليكم أيها التائهون، الضائعون عن أنفسكم، الباحثون عن الملاذ الأخير، فلتكونوا بخير، سواء تمسَّكتُم بحياتكم، أم اتخذتُم قراركم بإنهائها..

غدًا، في الخامسة ليلًا، فوق كبري قصر النيل، سأُخلِّص نفسي من هذه المعاناة، وسأترك مياه النيل تغسِل ما تبقى من روحي، قبل رحيلها.

انتهت (سميرة) من كتابة كلماتها الأخيرة على «فيسبوك»، ثم ضغطت «نشر»، وأغلقت الهاتف فألقت به بعيدًا، ثم جلست القرفصاء على فراشها، غارقةً في بكاءٍ لا ينتهي..

هذه المرة لم تكن تدَّعي الانتحار، بالفعل قد انهارت انهيارًا كاملًا حتى قرَّرت على إثره إنهاء حياتها القاسية. ستعيش لحظات القلق والخوف والاختباء الأخيرةِ في شقتها، بين جنبات تلك الغرفة التي قاسَت فيها حتى الموت.

****

سار (مهدي) بخطى ثابتة، شارِدَ الذهن، مُقطَّب الحاجبين، ساهمًا في اللاشيء، يُحاول جاهدًا التركيز على نقطةٍ مُقلِقة في عقله، وتردد كثيرًا قبل الشروع في تَشخِيص حالته. بدأ في وضع الأفكار أمامه، وطفِقَ يعمل على ترتيبها بطريقةٍ تتفقُ مع تفكيره، ليخرجَ بصورةٍ واضحةٍ وبيِّنة، فيُسكِت ذلك الصراخ الهادر في رأسه؛ إنها حربٌ طاحنةٌ تدورُ في بواطنِ فِكره، حربٌ مدمرةٌ لا ساتِر لها سوى جسدِه المُخدَّر..

قلَّب الأفكار في رأسه كثيرًا منذ أن أفاقَ من نومه، خَمسُ ساعاتٍ مضَت وهو مضجعٌ على جَنبه الأيمن، قرر أن يُكمِل تلك الحلقة التي لا تنفكُّ عن طَرقِ عقله، تلك المصيبة التي غرق فيها البشر دون إرادةٍ منهم، أراد أن يفهَم، أن يعرف، لكن الأمر استعصَى على عقله..

تحرك حثيثًا ناحية المكتب القابع عليه الكمبيوتر الخاص به، جلس على الكرسي، وضغط زرَّ التشغيل. استطاع بحيلةٍ ما سرقة اتصالٍ بالشبكة العنكبوتية «الإنترنت» من القمر الصناعي، ذكاؤه يسَّرَ له الكثير من الأمور..

شغَّل المتصفح، وصار يُقلِّب بين الأخبار ويقرأ فيما حدث قبل ذلك الخراب، وفتح أخبارًا ومواقعَ مرَّت عليها سنة وبضعة أشهر، لتظهر أمامه صور (الأرقم)، ذلك الكائن الغريب الذي لم يفهَم تكوينَه وسرَّ قوته التي أدت إلى خراب الدنيا بهذه الصورة..

فتح الكثير من المقالات عنه، وجد اجتهادات الكثير من العلماء في تفسير ظاهرته، قرأ كل كلمةٍ قد كُتِبت عليه، لكنه لم يجد كلمةً واحدةً علميةً وصفَتهُ ويمكنه تصديقها..

قام من مكانه بعد أن آلمته دماغه من الجلوس على الكرسي لأكثر من ثلاثِ ساعاتٍ متواصلةٍ يتصفَّح فيها المواقع والأخبار القليلة -التي سُجِّلت قبل انتهاءِ معظم البشر- عن (الأرقم)، والتي لم يستفِد منها شيئًا، تحامل على قدميه وتقدم نحو معمله الصغير..

دسَّ عينه في «الميكروسكوب» الخاص به، وضع أسفله قطعةً من الأرض الجافة التي كانت تحمل مياهَ النيل من قبل، قلَّب فيها، ثم اقتطع منها قطعةً ووضعها في سائلٍ ما وطفق يراقبها عن كثَب..

مرت ساعات أخرى وهو على حالته نفسها، يحاول تحليل الأمور، فمنذ أن حلَّت تلك الكارثة وهو لا يملك شيئًا سوى محاولاته البائسة، لكنه أبدًا لم يستسلم، ولن تنتهي محاولاته إلا بموته، أو بمعرفته ما يحدُث..

شعر بالعطشِ في أثناء انشغاله، لكنه تراجَع عن ارتشاف الماء، إذ لم يمر يومان بعد، بل فقط خمسةٌ وأربعون ساعة، لقد ضبط جسده على هذا المنوال، ولن يحيد عنه..

مرت دقائق وهو ما زال متحملًا، حتى شعر بدوار، فتحامل على قدميه وتحرك في قبوه مترنحًا، ولما طالت الدقائق، علم أنها «غيبوبة الماء». ومع الوقت تملَّكه الدوار، فاندفع سريعًا نحو زجاجة الماءِ القابعةِ بجانب فراشه، ركَض نحوها، فتعرقل وسقط أرضًا..

بينه وبين زجاجة الماءِ مسافةٌ لا تتجاوز الثلاثين سنتيمترًا، مدَّ يده إلا أن أصابعه تشنَّجَت، فزحف محاولًا سحَب جسده، قبل أن تشرع أجفانه في الانسِدال..

لحظاتٌ مرت عليه وهو يموت، تخلَّلُه شعور أنها النهاية، فإما الوصول أو الاستسلام..

حاول جاهدًا، وبعد عناءٍ مريرٍ استطاع أن يلمسها بأصابعه، وسحب جسده بصعوبةٍ حتى وصل إلى الزجاجة، في حين تشكَّلت قسمات الفزع على محياه، كأن الموت يدنو منه فيُداعِب روحه ويُحرِّضها على الخروج..

ضغط على الزجاجة بأصابعه، ورفعها، ثم مدَّ يده الأخرى ليفتَحها، لكن عينيه رفضتا الأمر وفَقَد الوعي، لتسقط الزجاجة من يده، ويُسَدل الستار الأسود.

****

ولجت (يارا) من بابِ غرفتها، اقتربت من طفليها اللذين يغُطَّان في نومٍ عميقٍ بقلبِ فراشهما الصغير، قبَّلتهما، ثم تقدمت نحو فراشها، وجلست تفكر في القسوةِ التي تعرَّضت إليها منذ مجيئ الطفلين، والنفور والكلمات الحادة التي قابلتها من أصدقائها والمجتمع ذي العقليةِ العقيمة، وجفاء الناس الذين ذبحوا مشاعرها بالسيفِ قاتلين إياها..

قررت أنها لن تظل هكذا مكتوفة اليدين، أن عليها المواجهة؛ هي مَن خطَّت نهجَ حياتها منذ البداية، وإن تراجعت الآن فلن تنول سوى النفورِ والانكسارِ والاستسلامِ الضعيف..

انغمست في أفكارٍ تغتالُ خلاياها، حتى أنجَدها هاتفها المحمول الذي ضجَّ برنين رقمٍ غريب. ولما ردَّت، أتاها صوتٌ أنثويٌّ يقول:

- مع حضرتك سلوى فؤاد نصر، صحفية في جريدة مرموقة تبع حقوق الإنسان، سمعت بموضوعك وحابة أساعدك، لو تقدري تشرفيني، بكرة فيه ندوة كبيرة جدًا عاملينها، هيحضرها مسئولين كبار من حقوق الإنسان، وهيكون فيه تصوير من معظم القنوات.. تقدري تتكلمي فيها بحرية وتواجهي المجتمع بمشكلتك.. ده طبعًا لو حابة.

ظنَّت أن القدر قرر مساندَتها، أن الحياة ستبتسم مرةً أخرى، أن الدنيا ستستقبلها ضاحكةً من جديد، أنها فرصتها لتعود إليها كرامتها؛ لتتشبَّث بها مهما كلف الأمر..

بعد أن رحَّبت بدعوة الصحفية، ارتسمَت ابتسامةُ الراحة على وجهها دون إرادةٍ منها، ولأول مرةٍ بعد إنجابها خفَقَ قلبُها بالسعادة القصوى.

****

بعينين مُنهَكتَين غلبهما الخَدَر إثر انغلاقهما بسبب ما قاسَاه جسده من فَقْد الوعي، عافر (مهدي) ليستنير بالرؤية من جديد فيبصر الموجودات من حوله. دارَ رأسه كالترس الدوار في ملاهي الأطفال، فحاول أن يضغط على نفسه ليتجاوز الأمر ويحاول الاستفاقة،

لقد مر على سقوطه ما يقارب الثلاث ساعات، وإن طال الأمر سيموت سبب انخفاضِ منسوب الماءِ من جسده..

سحَبَ نفَسًا بصعوبةٍ أشد من سحبِ الروح وقت سَكْرَة الموت، وحاول جاهدًا بكل ما يملكه جسده من قوة الإمساكَ بزجاجة الماء، وكاد أن يغيبَ عن الوعي مرةً أخرى، لولا أنه تحامل على نفسه وزحف نحو الزجاجة، فحملها، وسارَع بفتحها بفمه المرتعش، وبعد أن نجح، بصقَ غطاءها، ثم قلب الزجاجة كلها غصبًا في فمه، ولم يستوعِب الأمر إلا بعدما أفاق..

جاهد ليُنعِش رئتيه بأنفاسٍ مقطعة، ثم اعتدل ليجلس لاهثًا، فزحف نحو الجدار واستند إليه بظهره، ثم نظر إلى الزجاجةِ بفزع، لقد أنهَى ماءَ عشرة أيامٍ لتَوِّه، ولم يتبقَّ معه نقطةٌ واحدةٌ للأيام القادمة..

أمسك بالزجاجة في يده، نظر إليها بعينين باهتتَين، ثم زفر بضيق وأسى وارتخَى بجسده، لتقعَ من يده..

عليه أن يبحث عن جثةٍ أخرى قبل يومٍ على الأقل لينجو بحياته!

****

اعتلى (يزن) المنصة العالية التي أمر ببنائها في أحد القصرين اللذين خصَّصهما كدولةٍ صغيرةٍ للملحدين الذين يتَّبعونه، وقد اجتمعوا كلهم فمثلوا أمامه مستمعين. ضغط على مكبر الصوت في يده، ثم صاح:

- أعتقد إن ده الوقت اللي ممكن نواجه فيه العالم بطبيعتنا، ونطلب منه باحترام وأدب إنه يتقبلنا. احنا بشر، مختلفين عنهم ولكن عندنا فكرنا الخاص، لازم يتقبلونا، مش هنسافر دولة أجنبية علشان نعيش طبيعيين زي غيرنا، احنا محتاجين احتواء من بلدنا، مش لازم نهرب علشان نعيش، خانة الديانة متهمهمش، مش مقياس علشان أعيش موطي

راسي وهربان، لازم نجبرهم يوافقوا إننا نعيش وسطهم رافعين راسنا، وأفتخر لما حد يسألني ديانتك إيه وأقول له ملحد. أنا مش عبد ولا ذليل، ولا شخص مُحلَّل موته لمجرد إنه مبيتبعش أفكارهم الساذجة. احنا صوت الحق اللي هيواجههم بحقيقتهم، لازم نفوَّقهم، النهارده يوم التغيير، يا يقبلونا، يا نجبرهم.

صاح الجَمْع في صوتٍ واحدٍ مع آخر كلماته مؤيدين إياه، أكثر من ألفِ شخصٍ يُدرِّبهم يوميًّا على التظاهُر ورفع الصوتِ بما سيُحدِث التغيير الأخير، أن يقبَلهم المجتمع! سيُحلِّقون بأفكارهم وحريتهم في وجه كل متدينٍ حاولَ قتلهم، سيواجهون حتى لو انتهى الأمر بموتهم..

تلك ليلتهم، ولن تنتهي على خير.

****

انتشر خبر تحوُّل الفتياتِ والشبابِ جنسيًّا في أرجاء البلد، واحتدَمَت المواقع على شبكة الإنترنت بمهاجمتهم من كل حدبٍ وصوب، وقد تسببت (فريدة) في تحوُّلِ أكثر من مئة شخص، إلى أن انتشر الأمر في الأرجاءِ انتشارَ النار في الهشيم، حتى إن هناكَ من أجرى عملية التحويل الجنسي عند الطبيب نفسه دون علمِ (فريدة)، إذ اشتهر الرجل بسرعة الضوء، ولما خافَ ملحمةَ الأحداث التي ستتسبب في قتله، هربَ إلى خارج البلد..

ومن هنا، اشتعلت الجرائدُ والمجلات، وتناثرت الكلمات بين أفواه الناس يسبون ويلعنون هؤلاء المُغيِّرين لخلقِ الله، وأقسم البعض أنه سيقتُل أيًّا منهم ما إن يُبصِر طرفَه في أي طريق، وذلك ما غضِبَت إزاءَه (فريدة)، مما جعلها تحشد جميع من تحوَّلوا جنسيًّا، مقررةً إلقاء خُطبةٍ على مسامعهم، والتي ختمَتها بكلماتٍ حانقةٍ تُحرِّض على كارثةٍ لا تبشر بخير. وقد ألقتها بصوتٍ أنثويٍّ مُصطَنع:

- يعني إيه يقتلونا؟! احنا معملناش أي حاجة غلط، مارسنا حريتنا في الدولة، طول عمري عارفة إنها دولة غير ديموقراطية، ولكني مصدومة، بجد مصدومة من اللي

بيحصل لنا ده! احنا لازم نرد عليهم، لازم نعرَّفهم إن ده شيء طبيعي، وممكن يحصل في أي دولة أجنبية عادي؛ أنا لما بتولد مش بختار أكون ولد ولا بنت، بس من حقي أعترض وأحول للي أنا عاوزاه، أنا شايفة إننا لو سكتنا هنبقى أضعف من إننا نحافظ على نفسنا وحريتنا، لازم ننزل ونرُد، نتظاهر، يمكن الدولة تحس بينا وتعملنا قانون مخصوص.

فور أن أنهَت كلماتها، رفع الجميع رايات التأييد في آنٍ واحد؛ هي الملاذ الذي سينتشِلهم من تلك العنصرية الكاسرة، هي الملاك الذي سقَط من السماء ليُنقِذهم من ضياعهم، سيفعلون أي شيءٍ يُؤمَرون به إن كان سيُعيد إليهم حقوقهم المهدورة، سيخرجون ويثورون وينتفضون ليُنهوا هذه المهزلة المشينة، وليَضرِبوا بكل القوانين الساذجة عرضَ الحائط.

****

تلك كانت أصعب لحظاتٍ مرت عليه منذ تدهورت الحال في الدنيا الفانية، أذاقَته «غيبوبة الماء» الكثير من الصفَّعات، ولكن تلك الصفعة كادت تودي بحياته، وإنَّ ما بقيَ منها قليلٌ من قليل..

كل ما أراده أن يفهَم فقط ما حدث قبل أن يُفارَق الحياة، أن يعرف الأمرَ الذي بدَّل كل شيء وقلَبَ كل حال، مَن ذلك الكائن الذي ظهر فانهارت كل قوانين الطبيعة في غمضة عين..

ظلَّ مُرتكِنًا إلى ذلك الجدار منذ أن تجرَّع الماء الذي كان بحوزته كله، جسدُه يؤلمه، وعقله يصرخ انتفاضًا مما يعانيه بين خلاياه، وجهده قد نفد، لكن عليه الآن أن يسعَى جبرًا إلى الجثة التالية قبل أن ينقضي به الأجل بغتةً دون أن ينتظره كي يشبع فضوله الأخير..

فردَ ساقيه وجرَّهما جرًّا صوب السلم، فتجاوزه وفتحَ الباب الدائري الفاصل بينه وبين العالم الخارجي الموحِش، وخرج في منتصف الليل وقد فقَدَ معظم قوته، ثم استدعَى عربته وسفينة نجاته، وشرع في دفعها أمامه لتُعاد رحلته القاسية..

سار حتى تجاوزَ المنطقة العسكرية، ومن بعدها شقَّ الطرقات والأزِقَّة الضيقة بحثًا عن ملاذه الأخير..

وفي أثناء مروره بطريقٍ ضيق، لمحه شخصٌ واقفٌ على حُطامِ أحد المنازل، والذي لفتَه صوتُ خطوات (مهدي) الثقيلة والمزعجة التي تخبط الأرض. رجلٌ في عقده الرابع، شامخ الجسد ويتأصَّله الشر، مهمته تصيُّد البشر في الطرقات، والبحث عن طعامٍ وسرقة ماءِ الشرب ممَّن يُخزنه ويحاول الاستفادة منه. شاءَ القدر أن يتقابل طريقه مع طريق (مهدي)، ذاك المسكين الضعيف الذي لا يقوى على حَمل نفسه..

ما شغَل فضوله هي تلك العربة التي يسحبها حيثما ذهَب، وتلفُّته المستمر حوله وعبثه في كل حيٍّ وجمادٍ صغيراً كانَ أم كبيراً. فكر قليلًا، فلَاحَت له فكرةٌ وحيدة، أن يصطادَه على الفور ويقتله، لكن فضول المعرفة قد غلبه، فقرَّر مراقبته قبل اغتياله..

سار (مهدي) بين الطرقات باحثًا كالمعتاد، حتى مرت عليه أكثر من ثماني ساعاتٍ دون أن يجِد جثةً واحدة، وقد غلبه الإنهاك وكاد يموت بعدما طالَ به السير، لذلك قرر العودة على مخبأه، فلحقه ذلك المراقب كظلِّه ولم يتركه، ولم يشعر (مهدي) بمن يتَتَبَّع خطواته..

وصل إلى منزله، ركن العربة بجانب الباب المستدير في الأرض، ثم فتحه ودلف وأغلقه خلفه، ثم ارتمى على فراشه ونام، لا يشغل عقله سوى خيارين لا ثالث لهما، إما الاستسلام للموت باكرًا أو الخروج مرةً أخرى على ألا يعود إلا بجثةٍ تَنتشِله من هذا الضياع..

في حين وقف الصائد خارجًا يُتابع الأمر من بعيد، وقد غذَّى جزءًا من فضوله بمعرفته مكانَ (مهدي)، وعلى الرغم من طنين فكرة قتله في رأسه، فإنه لم ينقض عليه، بل جلس بعيدًا يتابع ما سيفعله ذلك المجنون صاحب العربة.

(١١)

سيُمحَقون..

بلا هوادة!

«أرقم، أنا ربك.. آمِن بي!»

السامري إلى الأرقم

عائلة العطار..

- كسروا البيت الملعون، اقتلوا ولاد الملاعين.

ترددت الكلمات في آذان أولاد العطار، بعد أن أمطرَت سماؤهم بشعلات النار التي ظلَّ يقذفها أهلُ الحارة الحانقين الساخطين عليهم..

سمع (غريب) أصوات صرخاتِ إخوته فيما هو ساكنٌ بسلامٍ في قبوِه، إلا أنه لم يأبه لهم، بل ظل يزحفَ صوب شعاع النور الذي يشُق الجدارَ من المطبخ، ولما وصلَ إليه استلقَى على بطنه، وحاول التقاط أنفاسه الضعيفة، في حين قامَت القيامةُ على إخوته وأبيهِ فوق. لم يحرك ساكنًا، ولم يفكر في شيء، فقط ومضات تتخبط في عقله؛ بعضها عن ذلك اليوم الذي أنقذ فيه (بدر) من الحريق، فالتهمت النار جسده بدلًا من أخيه ليستحيل من بعدها مسخًا يهابه الجميع. وبعضها عن تلك اللحظات التي كان يقضيها مع والده الذي كان يَنهرُه ويُبكِيه، والجشع الذي أبصرَه في عين (بدر)، و(أكرم) الذي كان يتحاشاه كأنه جماد، وإخوته الذين لم يُرحِّبوا به لما خرجَ إليهم ورأوه لأول مرة، كأنه شبحٌ يتلصَّص عليهم. أرادَ أن يضمهم إلى حضنه المتآكل، أن يعوض ما نقصَ منه فيهم، أن يبتسم ولو لمرةٍ واحدة، لكن لم يلْقَ سوى الإهمالِ والكرهِ والجشعِ في أعينهم.. فقرر على إثر ذلك العودة إلى حيثُ ينتمى، إلى القبو الذي عاش فيه، وسيكون ذاته قبرَه..

ما انفكَّت الصرخات تعلو في أُذنَي (جابر) الذي لم يكترث؛ آلامه تتضاعف وتكاد تمزقه، حلقه جفَّ ولسانه تدلَّى طالبًا الغيث، سيموت بكل تأكيد، لن يتحمَّل أكثر. هؤلاء الملاعين الذين أتوا إلى الدنيا بنُطفةٍ منه، ربما تكون شيطانيةً لكنها منه، ألا يستحق منهم الرحمة؟! رشفة ماء واحدة قادرةٌ على إنقاذه، فقط رشفة! صراخه المتقطع لا يُحرِّك في قلوبهم ساكنًا، فليصرخ مرةً أخرى لعلهم يشعرون به:

- مَيه، بمـــوت!

ولكن كيف سيشعرون بقلوبهم المتحجرة التي لا تُنبِت سوى الكُره والشرِّ المطلق؟! هيهات! فليستسلِم لآلامه، هو العاجز، الميت الحي الذي توشك روحه على الصعود..

- مَيه!

تخبَّطوا معًا، حاولوا التماسك، لكن الجرارَ استمر في ضرب الجدران كأنما أقسمَ على ألا يتركهم إلا وهُم رفاتٌ وتحت حجارة قصرهم مدفونون. تزلزل القصر وشرعت لَبِناتُه تتهاوى من كل جانب، الصورُ المعلقة، المرايا التي تسكن الأركان، التحف، الأثاث،... ولم ينتهِ الأمر هنا فقط، بل جثة (خالد) سقطَت هي الأخرى، فيما هم منكمشين على أنفسهم خائفين، والجدران تصرُخ بعدم الثبات، حتى سقطت قطعةٌ من السقفِ بالقرب منهم، وما استقرت إلا فوق جسد (سارة) المشلول، فتفجرت دماؤها ولطَّخَت الأرض حولها، لتصعد روحها في غمضة عين! حينها علا صراخ (جميلة) وارتفع إلى حد السماء، فتلفتوا فيما بينهم مرتعدين، خائفين، مجبورين على مواجهة الموت في مشهدٍ مريب.

****

سقطت (فريال) أرضًا وسْط الناس في الحارةِ بعد أن نطقَت كلماتها الأخيرة، فتسابقت الأعين بذعر نحو بعضها بعضًا، بين السيدتين المسلمتين والثماني عشرة سيدة مسيحية..

إشارات توجُّس وعلامات قلقٍ من المسلمات تخبرهن بأن (فريال) تكذب، في حين احتلَّ الغضب قسمات المسيحيات، وفي لحظةٍ خاطفة، اشتعل فتيل الحرب، لتبدأ الملحمة، كأنهنَّ قد انتظرن هذه اللحظةِ كي يفتحن صنبور الدماء..

هجَمت النساء المسيحيات على المسلمتين كالذئابِ ناهشاتٍ لحمهما، حتى سقطتا أرضًا، فتكالَبن عليهما يقطعن ملابسهما حتى كِدْنَ يقتلنهما. في تلك اللحظة، تدخل رجال الحارةِ المسلمين يتصدَّون للسيدات المسيحيات، فثارت براكين الغضب في أزواجهن، ليلتحموا بدورهم مع الرجال المسلمين، وتقدم كل المسيحيين لما رأوا الأمر حربًا من المسلمين عليهم، وكذلك المسلمون تقدموا إلى ساحتهم، لتتفجر ملحمةٌ غير قابلةٍ للتوقف..

اسْتلَّ بعض الرجال السواطير والسكاكين، والبعضُ الآخر استدعى النبابيت والعصيَّ الحديدية، واحتدم الأمر حتى إن البراكين تفجرت وأفصحت عن سخطها المكبوت، وهناك مَن تسلَّقوا أسطح المنازل وأخذوا يرشقون المتحاربين بزجاجٍ أدمَى جروحهم..

أُهرِقَت الدماءُ وسالَت كالفيضانِ على الأرض، وأضحى الضحايا يتساقطون من الجنسين، رجالًا ونساء، وقُتل الكثيرون جراء تلك الفتنة التي اشتعلت من لا شيء لتكون سببًا في انتهاء كل شيء، فاصطبغَ المشهدُ بالأحمر الدامي مُرهِبًا الأعين، وتمادت الصرخات عازفةً سيمفونية الحزنِ على الجميع، ونزفت الحارة باكيةً على أبنائها.

وفي خِضَم الأحداث، تسحَّبَت (فريال) من بين الحشد الثائر محاولةً الهرب، وقد فلَتَت من الزجاجِ والهجمات التي أفزعتها، إذ كادت تتلقى ضربةً تشُق بطنها من أحدهم، لكن مسلمًا أنقذها بقتل مُهاجِمها..

أنفاسها علَت لاهثة..

اضطرابها وصل إلى أشُدِّه..

الخوف سيطر على قلبها..

اِلتوَت قدماها فركضتا بغير ثبات، وفي أثناء فرارها، أمطرَت السماء على رأسها شظيةً زجاجيةً فكادت تُفقِدها وعيها، لكنها اكتفَت بإسقاطها أرضًا. تضاربَت الأنفاسُ المتقطعة في رئتيها، فيما كانت تحاول مُجاهَدةَ قدميها لتقوم واقفة، ولما نظرت إلى بابِ العمارة التي تقطن فيها، لاحَ كأنه يبتعد، فمدَّت يدها تحاول التمسك بأي شيء، وسارت متخبطةً في دمائها. كادت تدلف إلى العمارة، لولا أن لحقتها (أم أحمد) فأمسكتها وجذبتها إلى الخلف، لتسقط فتحتضِن الأرض المُحتقِنة بالدماء. خانتها فرصة الهروب هذه المرة، إذ انقضَّت عليها (أم أحمد) وجرَّتها من شعرها ثم أخذت تصرخ في وجهها بهلع. وفي تلك اللحظة، انتبه المسلمون، فانقضوا عليها كالجرادِ عازمين على قتلها، وما إن تكدَّسوا حولها حتى انهالت عليها أسلحتهم فأدمَت كل بقعةٍ من جسدها، لتصرخ مستنجدةً ويعلو مع نزيفِها أنينُها المكتوم..

لا معين..

لا مَنفذ من تلك المصيبة التي أُقحِمت فيها..

لا شيء سوى الضرباتِ التي تتلقاها ودمائها المنهمرةِ على الأرض تُصفِّيها..

إنها على وشك الموت، بماذا أفادتها تلك الأموال التي اغتصبتها من أهلها؟! حتى لو أخبرتهم على مكانها، فقد أشعلت فتنةً طائفية، وعليها دفعُ الثمن.

****

لم يذُق (مهدي) طعم النوم أو حتى النعاس لأكثر من ثلاثِ ساعات، إذ إنَّ الأمر يُقلِقه ويُؤرِّق جفنيه، وقد تملَّكه العطش، لكنه كالعادة سيتحمَّل..

لن يطول الأمر كثيراً، إما أن يعثُر على الجثة أو يستسلِم ويموت!

انتفضَ من نومه، وتحامل على جسده الضعيف حتى خرجَ من مخدعه، فسحب عربته وتوجه قاصدًا طرقات البلدة المظلمة..

الساعةُ الآن تجاوزت الثالثة عصرًا حيث لا تزال السماء في وَضَح النهار، يسير (مهدي) بين الطرقات باحثًا عن مبتغاه، فتُعنِّفه أشعةُ الشمس، ليندُب حظه وما قاساه في هذه الحياة البغيضة التي التهَمَت كل ما يملك..

أب وأم وأخ، لم يتزوَّج قبلًا، فقط عاش مع أبيه وأمه اللذين ماتا من الجوعِ في تلك الأحداث الوعِرة، وأخوه وافَته المنية في سنِّ الثلاثين ومات مريضًا بالأنيميا الحادة التي نهشته رويدًا رويدًا بسبب قلة وسوء التغذية. هو الوحيد الذي كافحَ وجاهد كي يعيش؛ اقتاتَ من القمامة، عاش على ما يتيسَّر من فُتات الطعام، وفي أحلَكِ ظروفه لجأ إلى رُخصَة المضطر فأكل من لحم الحيوانات الميتة. بعد موت عائلته سار في الطرقات يبحث عن مأوى، هُوجِم أكثر من مرةٍ وكاد يموت، وفي النهاية لجأ إلى ذلك المخبأ الذي عرفه صدفة، واستطاع الحصول على حصانٍ ميتٍ وتقطيعه وإدخاله إلى مخبأه. ومع الوقت، جمَّع أدواته قطعةً تلو الأخرى وبعضًا من زجاجاتِ الماء التي عثر عليها عن طريق الصدفة في أماكن مهجورة، حتى نفد منه الماء، لتُصعِّب عليه الحياةُ الأمر. تدهورت حالُه لأيام حتى تعلَّم طريقةً للحصول على ماءٍ جديد، تلك الهبة التي امتلكها ولم يكن يعرف قيمتها، بعد عناء بحثه الطويل الذي أتى دون جدوى حتى كاد يموت، وها هو يعيش كالحي الميت يقاتل في حربٍ ضروسٍ ليبقى على قيد الحياة..

في أثناء تبارز أفكار عقله التي آلمته، وقعت عيناه على جثة صبي صغير لم يتجاوز العاشرة بعد، وقد بدا عليه تعفُّنٌ وشيك، فركضَ صوبه بهلع، ووقف أمامه للحظات متأثرًا بما آلَت إليه أحوال الدنيا، ثم كتَم أنفاسه كي يتحمَّل رائحته النتِنة. لقد مرت أيامٌ على موت ذلك الصبي، وبكل تأكيدٍ لم يعد يحمل جسده أي سوائل، وبهذا فلا قيمةَ مرجُوَّة من تلك الجثة. وعلى الرغم من أنه يدرك ذلك جيدًا، فقد فكر كثيرًا في أي طريقةٍ تُمكِّنه من الاستفادة بهذا الجسد المهترئ، كاد يتراجع عن قراره ويبحث عن جثةٍ أخرى، لكن الآوان حقًا قد فات، فإما أن يأخذها ويحللها في معمله ويستفيد منها بأي طريقة، أو أن يستمر في البحث إلى أن يقابله ملك الموت، فقد أوشك على فقد قوته وروحه معًا، ولا إشارة تدل على وجود حيٍّ أو ميت في الأرجاء. عليه أن يقرر سريعًا، إما الموت أو المحاولة

حتى الموت! وبعد تفكيرٍ مضن، عزم على تنفيذ قراره في النهاية، وحملَ جثة الصبي على العربة وسحبها راحلًا..

وصل إلى مخبأه، وقف أمامه، فتح البابَ الحديدي، وحمل جثة الصبي، ثم ألقى بها داخل عُشِّه، ليسمع صوت ارتطامها! صُعِق فألقى نظرةً إلى الداخل، لم يجد الوسادة القطنية في مكانها بالأسفل، فاستقل السلم ونزل سريعًا ووقف في وسط الغرفة. أدهشَته الحالة الرثة التي أضحَت عليها؛ بعض الأشياء تحطمت، والبعض الآخر وجده متناثرًا على الأرض كما الأعضاءِ المبتورة، فأفزعه الموقف وتبدَّلت قسمات وجهه إلى الخوفِ والهلع، وقبل أن يفكر صُدِم بمفاجأةٍ أخرى، إذ سمع صوتَ خطوات أحدهم بالجوار، فالتفت مرتعدًا صوب مصدر الصوت، ليُصعق بمن يحمل سكينًا في يده ويركض نحوه مهاجمًا!

****

تجلسُ (ماريان) على فراشها تفكِّر في الأثَر الذي خلَّفهُ كتابها المنشور، جاهدت قدميها لتقوم وأخذت تسير ذهابًا وإيابًا في شقة (أدهم) فيما عقلها يصرخ؛ إن بعض التصريحات السياسية صَدرَت بالقبض عليها، والتحقيق معها بشأن ما نشرته، وما تسببت فيه من نزاعاتٍ حكومية واندلاع حروبٍ أهلية بين الناس، وذلك بعد القبض على المسئولين في دار النشر التي تولَّت نشر الكتاب..

تملَّك الخوف منها، وكادت تموتُ رعبًا، لكنها أبدًا لن ترجع عن فعلتها، بل ستكشِف الحقيقةَ -حسب فكرها العليل- للأعمى مهما كلف الأمر..

مكَثت في شقة (أدهم) منذ ما يقارب الثلاثة أيام، لم يزُرها مرةً واحدةً لانشغاله، كان يطمئن عليها من خلال الهاتفِ المحمول. تحاول التخفِّي بعيدًا عن الأحداث، فإن عرفوا بمكانها لن يتركوها إلا جثةً ممزقة، وها هي تعيش الرعبَ متجسدًا يعُد لها الدقائق الباقية حتى يباغتها الموت من أيِّما اتجاه..

مشَت بقدمين مرتعشتين قاصدةً المطبخ، فتحت الثلاجةَ وسحبت زجاجة ماءٍ فتجرَّعت منها القليل، وتنهدت، ثم أغلقتها وهمَّت لتعود أدراجها، لولا أنها سمعت صوتَ احتكاكٍ ضعيفٍ ينحت في باب الشقة. كادت تقترب منه، لكنَّ الخوف جمَّد حركتها، أوشكت على الصراخ، إلا أنها جاهدت فركضت صوب غرفة نومها وألقت بسمعها إلى الخارج مُحاوِلةً التقاط معلوماتٍ عنْ ما يحدث. ازداد الاحتكاك، مرةً تلو الأخرى يعلو ويزداد حتى انتهى بفتحِ الباب. الفزع أصابَ قلبها فشهقت بصوتٍ كتمته بوضع يدها على فمها وصارت تتلفَّت حولها بذعر، حاولت الهرَب، التخفِّي من ذلك الذي اقتحم الشقة، إلى أن سمعت طرقَ أقدامٍ تقتحم الصالةَ وبخطواتٍ ثابتة تعود إلى بضعة أشخاصٍ متمكنين من عملهم..

أخذت تفكرُ وتفكرُ بعقلٍ مرتعد في حلٍّ لمعضلتها، ودون إرادةٍ وجدت نفسها تنبطح على الأرض وتزحف لتتخفى إلى أسفل السرير، وحين قاومَت أنفاسُها المتلاحقة خوفَها المتضاعِف، وضعت يدها على فمها تسده وحاولت تهدئتها. وبينما هي في غمرة ارتياعها، دققت بعينيها على باب الغرفة، والذي لم تمر عليه دقيقةٌ حتى فتحته أيدٍ خفية بهدوء، ثم دخلَ زوجين من الأحذية السوداء لرجلين يقتحمان الغرفة معًا بثباتٍ وروية، فكادت تصرخ، لولا أنها تمالكت أعصابها. دقائق مرَّت وهما يغزوان الغرفة يُفتِّشانِها، قلَبَا كل شيءٍ رأسًا على عقب، ورغم ذلك نفذَّا غزوهما في صمتٍ تامٍّ ولم يُحدِثا ضجيجًا..

خفتَت ضرباتُ قلبها من الترقُّب، فصارَ يخفق منهارًا بلا قوة، وتهدَّم ثباتُ حصونها المزيف..

لم يطُل الأمر، إذ تحرك أحدهما خارجًا من الغرفة، فحمدت الربَّ على إنقاذها. لكن تبقى أحدهما، أين هو؟! اختفَت قدماهُ عن نطاق رؤيتها، إنه يقف خلفها، يعبث في فراشِ السرير! مرت دقيقة، ثم اتجه صوب باب الغرفة وكاد يخرُج، لولا أن سمعَ أنفاسًا تصاعد مكتومةً وتُغالِب الهواء كي تحيا، فتوقف مكانه لحظةً عند الباب، ثم التفَت خلفه، فتدفَّقت منها دموعها رهبةً بلا استئذان، ولتحاول كبحَ أنفاسها، توقَّفَت عن التنفس..

طال وقوف ذاك الدخيل، وبعد برهةٍ تحرك فاقترب من الفراش، ووقفت قدماه أمامها مباشرةً، ثم بغتةً وفي غمضة عين، جلس القرفصاء ورماها بنظرةٍ تطقُّ شررًا، فصرخت بصوتٍ عالٍ قطَّعَ أحبالها الصوتية في اللحظة ذاتها التي مدَّ يده فيها وجذبها من شعرها حتى خرجت. حينها ولج كل الرجال المقتحمين الشقة فاندفعوا إلى الغرفةِ في آنٍ واحد، أربعةٌ عددهم، في حين لم تنفك صرخاتها تعصف بمسامعهم، ولإخراسها تلقَّت لكمةً على أنفها أردتها أرضًا وتفجرت على إثرها دماؤها..

هؤلاء كانوا بعض الرجال التابعين لساسَة البلد، والذين قرروا قتل تلك المتعجرفة التي حرَّفت بوقاحةٍ تاريخ بلدهم بما لم ينُزل به الله من سلطان، وقلَبَت الدولة فور صدور كتابها..

هبطَت على ظهرها، وأمسكَت أنفها التي تهشَّمت، لتنهال عليها الركلاتُ من كل جهةٍ تقضي عليها، حتى فزعت روحها وكادت تخرج، وأحشاؤها شرعت تتمزق، ومع ذلك لم تستطِع الصراخ لحظةً من عِظَم الألم..

وحين هدأ كل شيء، وعَمَّ الصمتُ المكان، حاولت التقاطَ أنفاسها بصعوبة بالغة، عندها طرَقَ أذنيها صوتُ اصطكاك طلقاتٍ رصاصيةٍ تُعمِّر مسدسها! فتحت عينيها بذعر، وأصدر دمُها قرارًا بالانسحاب من كل أوردتها، حين رأت أحدَهُم وقد سلَّط مسدسه المحشو بتلك الطلقات الغادِرة صوب وجهها، ليتخذ الموت دوره فيُعلنَ استحقاقه خطف روحها دون تردد.

****

التف الإخوة حول بعضهم بعضًا على هيئة دائرة، (بدر)، (أكرم)، (عمر)، (جاسر)، و(جميلة)، محاولين حماية أنفسهم من النيران التي نشبَت في الأثاث كما الوباءِ وأقسَمت ألَّن تدعه وشأنه، وتركوا والدهم مربوطًا إلى كرسيهِ دون حماية، يصرخ صرخاتٍ متقطعةٍ

باليةٍ طالبًا الماء، في حين أخذ جلده في التساقُطِ بصورةٍ مقززةٍ ومريبة. لم يلتفِتوا إليه أو حتى يُلقوا طرفَ أعينهم، فمصيبتهم أكبر من أن يبذلوا من أجله وقتًا لإنقاذه..

وقف (بدر) مرتعشًا لما شعرَ بدُنُوِّ أجله، لا يريد الموت، متمسكٌ هو بالحياة حتى آخر قطرةٍ من عمره، لن يستسلم، رغم حياته التي أصابها السواد الحالك بعد إعلان موت والده المزيف، ذلك الملعون الذي خدَعهم؛ حياته من قبل كانت مُميَّزة، كان المعلم الذي لا قدرةَ لأحد على رفضِ كلمةٍ أو أمرٍ منه، وها هو يُذَل من الرعاع الذين كانوا يهابون رؤيته قبلًا ويتقربون إليه على الدوام لالتماس البركة منه..

فكر (أكرم) في حياته البالية، لم يجد فيها ما يُحسَد عليه، اغتربَ وسافر ليهرُب من عائلته الملعونة، وها هو يموت في أحضانها. لم يتمنَّ أبدًا نهايةً كهذه، إنها أشبه بالكابوس الذي حتمًا سيفيق منه ويشهَق بألمٍ بعد التخلُّص من كل تلك الغوغاء المُقبِضة..

لم يشغل بال (عمر) حينها سوى صديقه (مصطفى) الذي فارقَه بسبب هذه اللعنة التي نهشَت عائلَته، فاكتنَز في قلبه كلَّ أنواع الندمِ وتأنيبِ الضمير. ومع اقتراب أجله، ابتسمَ براحة، فهو على وشك لقائه في الحياةِ الأخرى، لذا فليرحَل بسلامٍ وقلبٍ نقي..

تساقط الدمع من عين (جاسر)، ذلك الشاذ المشمئز الذي أخفَى حقيقته عن أهله، انفصالُه عن عائلته كان سببًا لما قاساه، ووالده الذي لم يرَه إلا عدة مرات، وإخوته المشبَّعين بالقذارة من خارجهم ودواخلهم، كل ذلك سبَّب له حالةً نفسية صعبة العلاج. حاول التعايش كبقية الشباب، أحبَّ فتاةً لكنه لم يستطِع تقبُّل الأمر، ولم يجِد ملاذًا سوى في مَا كان يفعله به أصدقاؤه، تلك الأفعال المشينة التي تتبرأ منها الفطرة السوية، فيها عثَر على ضالَّته الضليلة، وها هو على وشك الموت، فليمُت لتنتهي مأساتُه..

كادت (جميلة) أن تَسلُب أنفاسَها حقَّ الحياة منذ لحظات، ذلك بعد ما حدث لها من تُرهاتٍ وأفاعيل ملعونةٍ لن يصدقها أحد، كأنها تدفع الثمن لما اقترفته في حياتها. هي فقط أرادت أن تعيش بعيدًا عن تلك العائلة المُشينة، ولما بَعُدت استراحَت بالفعل وكان

البُعد عنهم حقًّا غنيمة، وحين اقتربت منهم مرةً أخرى، استحالَت إلى مسْخٍ دميمِ الهيئة. إذًا فلتمُت؛ الموت أرحم لها من ذاك العذاب الذي ستعيشه..

تلفتوا معًا حولهم بفزع، أصوات الناسُ وسِبابُها يقترب، والقصر على وشك أن ينهار ويتفتَّت فتذروه الريح، وفي أثناء تلفُّتاتِهم، صرخ (بدر) بصوتٍ جهور مشيرًا إلى باب القبو:

- بدروم غريب..

وقصد البابَ مهرولًا بهلعٍ باحثًا عن ملاذ، لينتبه إليه الآخرون فيتبعونه بإرادةِ الخوفِ من الموت ودافِع البقاء.

****

تهندمَت (يارا) وتزيَّنت حتى بلغت مرحلةَ الجمال القصوى، وجمَّلَت طفليها قبل أن تَحضُر الندوة التي دعَتها إليها الصحفية. وبالفعل، دخلت المكان المقصود وجلست إلى المنصة مع أكثر من عشرين سيدةٍ ورجل، كلٌّ يتحدث عن مشكلاتٍ تؤذي بني الإنسان؛ منهم مَن تكلم عن حقوق المرأة، ومَن تكلم عن الفقراء والشحاذين والمساكين، وهناك مَن أخذته الهِمَّة فتحدث بأسلوبٍ سياسيٍّ عن حقوق المواطن المهدورة. فاشتعلت المناقشاتُ وتفاعل معها الحضورُ من كل فئةٍ ونوع، وعلا الحديثُ وبلغَ مداه، حتى جاء دورُ (يارا) التي جلست وفي حضنها الطفلين، سحبَت مكبر الصوت، ثم تنهدت بعمق وكلُّ الجالسين ينظرون إليها، ثم شرعت في الحديث:

- اسمي يارا، عمري ٢١ سنة، وعندي طفلين، توأم، مش متجوزة، ولا مطلقة..

شهقَت تمتماتُ الحضورِ بالتعجب والنفور، لكن لم يُثنِها ذلك عن الاستمرار، بل تشجَّعت وأكملت حديثها:

- أنا "Single mother" رافضة فكرة الجواز، وفي الوقت نفسه عاوزة أعيش طبيعية زيكم، مش شايفة إن اللي عملته ده غلط، بالعكس، من حقي أعيش زي ما أنا عاوزة،

بعيدًا عن الدين وقوانين المجتمع الساذجة، ليه نربط كل حياتنا بمعتقدات قديمة، الدنيا بتطور وتتقدم، واحنا لسه عايشين في ماضي أجدادنا، ليه نعقد الأمور، من وجهة نظري إن كل واحد حر في اللي هو بيعمله. من ساعة ما بقيت أُم وأنا بتعرَّض لكمية تنمر رهيبة، ونفور من الناس والمجتمع، بسمع كلام كتير يجرح ويوجع، صحيح إني لسه صامدة، بحاول أعافر، وبحاول أبان "Strong"، لكني تعبت، وبدأت أنهار، أنا جاية هنا لأني مش لاقية حد يسمعني، وأظن صوتي هنا هيوصل، عاوزاكم تدعموني، وتقفوا جنبي، أنا ضعيفة، وشايفة فيكم قوتي...

عند هذه الكلمة، ما استطاعَت إكمال كلامها، لقد حدث ما هو أسوأ مما كانت تظن، إذ انسلَّ شيخٌ من بين الجالسين وخرجَ من القاعة في أثناء افتتاحها الحديث، ثم جاء بمجموعةٍ من الحجارة كوَّمها في جلبابه، ودلف إلى المؤتمر بعد أن استطاعَ الهروب من الحراس، وفي وسط الحضور، أخرجَ حجرًا كبيرًا وقذفه بكل قوته الساخطة صوب (يارا) وهو يقول:

- ارجموا الزانية..

وأصابَ الحجر المُشبَّع بالغضب جبهَتها، فسقطت بكرسيها أرضًا والطفلان معها، وألقت من فورها صرخَة أمٍ مفزوعة. هاجَ الحضور، وكاد الأمن يُهاجِم الشيخ، لولا أن بعض الشيوخ الآخرين تَصدَّوْا لهم، وركض البعض الآخر صوب (يارا) عازمين على قتلها، وانهالوا عليها ضربًا ولعنًا، حتى أوشكت أن تفقد روحها. لم يرحموها، بل انكبوا عليها متحدين بجُلِّ حنقهم، هناك مَن رجمَها بالحجارة، ومَن ضربَها بأقرب كرسيٍّ إلى يده، ومَن ركلها ولكمَها وجرَّها أرضًا. وفي أثناء الهجومِ المميت، وصراخ السيداتِ من كل حدبٍ وصوب، والأقدام التي تَخبِطُ الأرض، دهسَ الناس الطفلين دون شعور، ولم يبالِ أحدٌ لأرواحٍ صعدت إلى بارئها وقتلِ نفسٍ بغير حقٍّ حدثَ توًّا..

تسحَّبت (يارا) صوب طفليها والدماءُ تسيل منها باكية، فوصلت إليهما بعد كبير مجهود، ولما احتضنتهما اكتشفت أنهما قد أضحَيا جثثًا خامدة بلا حياة، فصرخت مستنجدةً بقلبٍ نزلَت به الصاعقة، لكنها لم تلقَ سوى الإهانة والضرب المبرح.

****

كادت السكين تخترق جسد (مهدي)، لولا أنه تفاداها وركض مبتعدًا، ليَلتفَّ صوبه الرجل بعينٍ شرسةٍ لا تُنذِر إلا بالموت. فتحَ (مهدي) فمه للتحدث، لكن الرجل لم يُعطِه الفرصة وهاجمه بقوةٍ مهولةٍ لا قدرةَ له على صدِّها..

لوَّح (مهدي) بيده أمامه كي يتفادى السكين، وقد أغمضَ عينيه لشدة الخوف وابتعدَ إلى الخلف، لكن السكين شقَّت بنصلها الحاد يدَه اليمنى من المنتصف ومرت خلال عظامه ففتَّتَتْها! اهتاجَ (مهدي) بصرخةٍ مزَّقت أحباله الصوتية مع استمرار ضغط الرجل في اللحظة نفسها، فتراجع إلى الخلف وتعرقل في جثة الصبي وسقط أرضًا، وحينها سُحِبت السكين من يده ليزداد صراخًا، وما ضاعَف الفاجعة أنَّ الرجلَ سقط عليه هو الآخر بثقله كله..

دفع (مهدي) جسدَ الرجل عنه، وحاول حماية نفسه بأن أمسك يد الرجل التي تحمل السكين المُحاذِية لوجهه. ثوانٍ مرت وأعينهما تُطلِق شعاعها متعاركةً مع بعضها بعضًا، ملامح الرجل فرِحةٌ بأنه نال صيدًا ثمينًا، وملامح (مهدي) غشيها ألم دنو الموت..

كلما مرت الثواني انهارت قوة (مهدي) أكثر، فيقترب الموت أكثر، أما المصيبة الكبرى هي شعور (مهدي) بأنه يفقد وعيه!

إنها «غيبوبة الماء»، تكاد تصيبه، وليس هو على استعدادٍ أبدًا لها..

حاول (مهدي) التماسَ نفَسٍ عميق يُنقِذه، إلا أن عيناه سبَقَتا بإسدال ستائرهما، فأدركَ من دواخله أنها لحظة الموت. هو على وشك الرحيل الآن، على وشك ترك هذه

الحياة القاسية التي أوسَعتهُ ضربًا واستنفدت روحه، لذا عليه أن يستسلم ويُحلِّق بعيدًا عنها..

عليه أن يرقُد بسلام..

رفعَ (مهدي) رايات الاستسلام، وعيناه وافقتاه على ذلك فأُغلِقَتا رويدًا رويدًا، ولما التقط نفسًا أخيرًا، أغمضَ عينيه ليتقبَّل الموت بصدرٍ رحِب، لكن غريزة البقاء بداخله رفضَت ذلك، وبشدة..

بدأت قوةُ الرجل في الانهيار، في حين لا يزال (مهدي) صامدًا رغم ما يشعر به من ألمٍ وضعفٍ وانكسار. وفي لحظةٍ خاطفة، دفعَ (مهدي) الرجل بأقصى ما فيه من قوة إلى فوق وسحب جسده من أسفله ليبتعِد عنه، فارتفع النصف العلوي من جسد الرجل بضعةَ سنتيمترات ثم هبطَ ثانيةً وبسرعة مكان (مهدي)، حينها حادت السكين عن مسارها وانغرزَت في رقبته فقطَعت أحد وَدَجَيه، فخرَّ كالجاموس المذبوح، وبذلك هدأ الثورُ الهائج فوق سكينه المنتقمة مستسلمًا..

اعتدل (مهدي) ملتقطًا أنفاسه غير عالمٍ بما حدث، وحاول الوقوف على قدميه بجسدٍ مهتزٍّ وضعيف، ثم التفت خلفه، فوقعت عيناهُ على جثة الرجل التي تُنازِع روحها للخروج من مثواها، فهرول نحوه وعدَل جسده المقلوب، ليُصعَق بنافورة دماءٍ تتصبَّب من عنقه. حاول سدَّ الجُرح بيده فيما تتساقط دموعه غصبًا، ثم قال في أثناء انغلاقِ عينَي الرجل:

- لا متموتش، أبوس إيدك متموتش، أنا مش قاتل!

أُغمِضَت عينَي صائد البشر ومُزهِق الأرواح، وأُفسِح المجال لتصعد روحه إلى السماء، فهدأ جسده الضخم وارتخت كل أعصابه. نظر (مهدي) في وجهه باكيًا بحرقة، وحين تيقَّن أنه ما عاد في يده شيءٌ يفعله، ظلَّ يصرخ هيستيريًّا دون توقف وبصوتٍ عالٍ وصلَ إلى أعتاب السماء.

****

التهَم (أدهم) الطريق أسفلَ عجلات سيارته، فرِحًا منتعشًا مُحتفِلًا بما حققه موقع الأفلام الإباحية الذي شيَّده، بعدما فضحَ عليه أكثر من رجلِ أعمالٍ مشهور، وبعضَ الساسة الذين يملكون زمامَ الدولة كلها، فهلَّل فرِحًا وشغَّل بضعة أغنياتٍ أجنبيةٍ هوجاءَ وردَّدَ خلفها كلماتها دنيئة المعاني، وهو يرقص بتشفٍّ مما فعل..

لقد قرر السفر والاحتفال في إحدى المدن الساحلية، فسلك طريقًا سريعًا تحيطه الأراضي الزراعية من كلا الجانبين، وحرق أسفَلتَه بسرعته النارية، فيما تملكت السعادةُ كلَّ ذرةٍ فيه..

وفي أثناء طيرانه اللامبالي لحدود سرعةٍ أو قوانين سير، دون أن يشعر، وبلا أي مقدماتٍ أو إنذارات، وجد حركة الدنيا من حوله تتوقف في لحظة، وشعر أنه يُحلِّق بعيدًا إلى ملكوتٍ آخر، حينها أدرك أن سيارته اصطدمت بأخرى اصطدامًا مدويًا، لتقعَ حادثةٌ كادت تفقده حياته. لكن من أين جاءت تلك السيارة التي بدا أنها مستقرة في عرض الطريق منذ مدة؟!

تهشمت واجهة سيارته، حتى إن حديدها التحم ببعضه بعضًا فتشوَّه هيكلها بصورةٍ مروعة، إلا أن بالونَ النجاة خاصته انفتح في وجهه في الوقت المناسب، فأنقذه من موتٍ مُحقَّق..

توقف كل شيء، وسكت الكون من حوله فلم يسمع إلا صفيرًا مرعبًا يدقُّ أذنيه، ودوارٌ تملك من رأسه كأن الدنيا غير ثابتة، وجسده لم يسلَم من بعضِ الكدمات والدماءِ التي لفَظَها فمه. حاول أن يتنفس كي لا يموت، ففكَّ حزامَ الأمان بشقِّ الأنفس، ثم فتح الباب المتهشم ونزل من السيارةِ مترنحًا حتى وقف بغير ثباتٍ محاولًا استيعاب ما حدث، ولما نظر صوب الجهةِ مصدرَ الضربة، وقعَت عينه على السيارة التي وقفت بالعَرضِ أمامه، ولم يكن بها أحد. مالَ بجسده كالراكع ليختلس من الهواء نفَسًا لرئتيه، ثم اعتدل، لتصطدم عيناه بمجموعةٍ من الناس ذات بدلاتٍ سوداءَ كلاسيكية، يرفعون مسدساتٍ نارية ويُصوِّبونها نحوه، فتملك منه الذعر وتراجع إلى الخلف. لحظاتٌ ثم انهالَ عليه

الرصاص مُغرِقًا المكان، ولحُسن حظه لم يُصَب، وركض مهرولًا مرتعدًا صوبَ الأراضي الزراعية، فشقَّها بقدميه، وشرع في العَدْو بأقصى قوته والدماءُ تتساقط من بعض الجراح التي سبَّبتها الحادثة، فيما يميلُ جسده كسكِّيرٍ تجرع زجاجتَي خمرٍ لتوه..

وبينما هو يفر بنفسه، إذا بالرصاص يمر من جانبه في كل مكانٍ ليصيبه بالفزع ويُضاعِف رعبَه المميت، لقد فطِن إلى أنَّه أحد الذين نُشِر لهم مقطعٌ على الموقع، والذي عندما عرفَ أن (أدهم) هو من فعل هذا، قرَّر الرد عليه بطريقته الخاصة..

ظل يركضُ متشبثًا بالزرعِ حوله يحاول الثبات، يحاول النفادَ بروحه، في حين يدوِي صوت الطلقات في كل اتجاه. ثم تأتي الريح بما لا تشتهي السفن، إذ تعرقَل في صخرةٍ ما، لينكبَّ أرضًا على وجهه، فاعتدل ونام على ظهره في استسلامٍ وانقباض من المجهول. عيناه جاحظتان، جسده يرتعشُ بلا استقرار، وصوت الطلقات النارية يعلو، يقترب، وفجأةً باغت أذنيه صوت الأقدامِ تدنو منه مُعنِّفة الأرض، إذ بدا أنهم قد علِموا مكانه.

****

«سِحرك الذي تعلمته ضعيفٌ لن يفيدك، ولكنني أردتُ أن تحاول بذاتك.. حين تعود من الموت ستكون مالكًا لقوةٍ لن يستوعبها عقلُك الآن.. فقط تنفس»

السامري إلى الأرقم

الأعور..

قديمًا بالعراق، ولمدةٍ من الزمن، سيطر بنو إسرائيل على مدينة بابل، وعاشوا فيها ملوكًا جبابرة، وفرضوا قوتهم على أهلِها، بل وعاملوهم كما العبيد..

مرت سنواتٌ طوالٌ على تلك الحال، حتى ظهر من بينهم شخصٌ يدعى (الأعور)، عجوزٌ يتكئ على عصاه ويسير محنيَّ الجسد ويظهر عليه الكِبَر، ولكنه كان داهية..

وفي يومٍ أغبر، جمع (الأعور) ثُلةً من أهل بابل بحيلةٍ ما، وخطَبَ خُطبةً طويلةً في كهفٍ يقع على أعتاب المدينة، وقد افتتحها بقوله:

- جئت كي أحرركم، لو اجتمعتم كلكم في عُصبةٍ واحدةٍ لهزيمةِ بني إسرائيل ما استطعتم الصمودَ ليومٍ واحد؛ هُم قومٌ جبارون، ولن يرحلوا عن بابل إلا بالحرب، ولكنها ليست حرب سيوفٍ ودروع، بل ستكون حرب سحر.

خرج أحدٌ من بينهم وقد بدا عليه الكِبْر ومعرفته أهل المدينة جمعاء، فصاح متسائلًا:

- مَن تكون؟!

تحرك (الأعور) إلى الأمام، ثم همس بصوتٍ خفيضٍ وصل إلى مسامعهم كلهم بطريقةٍ سحرية:

- جئتُ من اللاشيء، أُدعَى الأعور، وأنا مُخلِّصكم.

فتساءل الرجل مرةً أخرى كأن لا أحدَ غيره يُحاصِره الفضول ليُجادل:

- كيف؟!

ابتسم (الأعور)، ثم رفع عصاه عاليًا، ليطوف بجسده كأنه قد امتلك جناحين، فجحظت أعين الحاضرين وتملكهم الخوف والرعب منه، ثم قال بصوتٍ ضخمٍ جهورٍ ليزداد ارتعادهم:

- سأعلمكم السحر، وإن اتبعتم ما أمليه عليكم، ستتخذون بني إسرائيل عبيدًا لكم.

ارتعشوا جميعًا خائفين من قدرته المهولة، وكادوا يهربون، لولا أن قال:

- بعد زمنٍ سحيق، ستُذكَر بابل بأنها أرض السحر، وسيقدسون قدرتكم على المعرفة وقوتكم الجبارة، فلتتفاخروا بأنفسكم.

تفوه بكلماته، ثم عاد أدراجه، فوقف أمامهم بثبات، ليقول مبتسمًا:

- ترددوا على ذلك الكهف، لتنولوا مبتغاكم.

ثم اختفى كأن شيئًا لم يكن، حتى إنهم صرخوا مرتعدين، وركضوا خارج الكهف كالمجانين..

تناقلت الأحاديث عن (الأعور) بين سكان بابل، حتى أصبح أسطورةً مرعبةً لا يُصدِّقها أحد..

ولكن فضول المعرفة هو أساس كل حدَثٍ مهول، وقد غلَب معظمهم الفضول، فترددوا على الكهف ليبصروا (الأعور) ويعرفوه، فوقع كل من ولجَ إلى الكهف أسيرًا له، يعيش تحت رحمته، ويستقي من سحره. حتى انتشر السحر الأسود فيما بينهم، وأضحت بابل مَهْد السحر على الأرض، ولم يكن على سطح البسيطة مَن يُضاهيها أو يساويها قدرًا في ذلك الأمر..

واستخدم البابليُّون أسحارهم على بني إسرائيل، فتحولت حياتهم إلى جحيمٍ لا تهمد، وتبدلت بابل من مدينة الخير إلى مدينة الأسحار السوداء، ووقف (الأعور) على أعتابها يضحك بفخرٍ ونصرٍ مهيب.

****

تجمهَر الناسُ بأعدادٍ غفيرةٍ فوق جسر قصر النيل، ينتظرون اللحظة الحاسمة التي أعلنَت عنها (سميرة)، منذ الرابعةِ عصرًا والناس يلجون إلى المكانِ كالذباب، كأنما يتكاثرون..

دقَّت إشارات الساعة الخامسة، فظهرت (سميرة) على البُعد، كأنها قد ضبطَت ميعادها، مشَت على الجسر، وذهلتها جموعُ الناس الغفيرة التي تنتظرها، يتابعونها ويشيرون إليها، هُم يعرفونها بنقابها المميز. أخذوا يهتفون باسمها ويتحدثون عنها، فيما تقدمت هي بين أصواتهم ذات الترددات المختلفة، منها المُدافِعة والقاصفة، ومنها الحسنة والقاذفة بالسبابِ واللعنات. مشَت بلا إبداءِ أي انتباهٍ لأحد، وقد تملكت منها مشاعر التبلد فما عادت تشعر، حتى اقتربَت من سور الجسر، فتفرَّق الناس مبتعدين ليفتحوا لها المجال كأنهم يرشدونها إلى طريقها. دقَّقت بعينيها في مياه النيل الدامعة، التقطَت نفسًا عميقًا، وتذكرت كل لحظاتِ الانكسار التي قاسَتها، فاستراحت من دواخلها لما شَهِدَت خطوطَ النهاية تقترب، ولمست بطنها بأصابعها لتُلقي التحية على طفلها الذي ينمو في أحشائها، آسفةً على عدم وقوفها إلى جانبه كي ينضُج ويخرج إلى النور، لكنها علَّلت جُرمَها بأن ما تفعله مِن صالحه، إذ ستخلصه من هذه الحياةِ البغيضةِ قبل أن يصطدم بها ويفقد روحه التي لم تطأ مهدَها بعد، مرت ثوانٍ وظل الناس يحتشدون حتى انغلقَ بهم الجسر وما عادت سيارةٌ تستطيع المرور..

تمسكت (سميرة) بالسور الحديدي، شدَّت عودَها، وسرحَت في المياهِ تبتلعها بعينيها، كادت أن تنفذ وتقفز، لولا أن جذب انتباهها شابٌّ يُلقي بنفسه من الجسر، فشهق الناس بفزع وركضوا تجاهه ليشهدوا موتَه. وما تلى ذلك كان الأبشع، إذ قفز آخر بعده، ثم تبعته فتاة، وتكاثرت الأعداد المنجرفة نحو الانهيار، كأن كل مَن يتابعون (سميرة) على «الفيسبوك» قرروا الانتحار في اليوم ذاته!

زاد الهرج والمرج، تنفسَت الصعداء، وعزَمت القفز في تلك اللحظةِ تشجيعًا للباقين، بعد أن تحقَّق مرادها، لكن القدر كان له رأيٌ آخر، إذ أن أهالي بعض الذين انتحروا بسببها أمسكوا بها قبل أن تقفز، وانهالوا عليها ضربًا بكل ما أوتوا من قوة، كأنهم يعذبونها، يقتصُّون منها قبل الموت..

سقطت أرضًا، ولم يتدخل أحدٌ ليساعدها، فالمصائب تتوالى وتنفرط كحبّات العِقْد، إذ لم تتوقف أعداد الذين سلكوا طريقها فهدروا أرواحَهم وألقوا بأنفسهم، ليرسموا يومًا ستتحاكى سطور التاريخ بمدى بشاعته كأسوأ يوم مرَّ على البشرية..

انقضَّ الأهالي بالضرب على (سميرة) التي علا صراخها وانفجر بكاؤها، فاجتمعوا على ركلها، ثم مزقوا ملابسها وخلعوا نقابها ليظهر وجهها للجميع. تلك التي تتصنَّع التديُّن أمامهم، حان وقت كشفِ لسان الثعبان في فمها. صرخَت استنجادًا، لكنهم لم يرحموها قط، استمروا في ركلها ولكمها حتى انهار جسدها. وفي أثناء صياحها، أحسَّت بسائلٍ ساخنٍ ينزلقُ من بين فخذيها، مدَّت يدها بصعوبةٍ تتحسَّس ما بها، ولما رفعتها صُعِقت من الدماء التي لطَّخت أصابعها، لقد قتلوا طفلها الذي كان يتربع في أحشائها، وها هي الآن على وشك المغادرة معه، ستموتُ على يد هؤلاء الوحوش، ولا أحد يحاول حمايتها، فهي التي صلَّت للموتِ وتعبَّدت لسنين طويلة، فلتحتضنه إذًا، ولترحل من الدنيا البغيضة كما تدعي.

****

«ستحُل لعنةٌ على عائلتكَ كلها، ستكون وهمًا،
سيشعرون بالضعف، وسيحاولون استمداد أي قوةٍ من
حولهم، ليُنفِّذوا وصية ربي دون أن يدروا، فيكونوا
وسيلةً لبعثِ خادمه»

برقان إلى العطار

ما قبل النهاية..

ركض الإخوة واحدًا تلو الآخر ليقتحموا باب القبو، وتلفَّت (جابر) بهلع وجَحَدهم بعينيه وهم يتركونه، ازداد صراخه، الموت يقترب منه، وآخر شيءٍ أبصره كان عينَي (بدر) الواقف على باب القبو، والذي ابتسم له قبل أن يُغلِق الباب في وجهه تاركًا إياه يصرخ متشنجًا محاولًا النفاد بروحه. وفي أثناء تشنجه وارتعاده، سقط الكرسي المربوط فيه أرضًا، لتُضافَ إليه عقبةٌ فوق عقَباته..

قصدوا بابَ القبو السفلي، وطرقوا عليه بقوةٍ حتى كاد يتحطم، حينها أثاروا انتباه (غريب) نحو ضجَّتهم، لكن الباب ظل صامدًا ولم يتهاوَ بسهولة. ثوانٍ مرت وهم يصرخون باسم (غريب) الذي نهش عقله التفكير، كاد يتخلى عنهم، إلا أن الحبَّ والرحمةَ في قلبه منعاه، ولذلك زحَف نحو الباب بعد تفكيرٍ كبير، ومرت أكثر من دقيقةٍ يحاول الوصول حتى أهلكته محاولاته، فيما تنهار جدران القصر من كل اتجاه، حتى وصل إلى مقبض الباب وفتحه، ليندفعوا كالنملِ متفرقين، كادوا يدهسونه في الظلام، لكنهم تحاشوا وجوده، وأغلق (بدر) الباب خلفهم..

ارتموا على الأرض في أحدِ الأركان، وزحف (غريب) الذي تجاهلوه نحوهم، حتى صار بمحاذاتهم. جلس الستةُ في ركنٍ واحد، أنفاسهم تتصاعد وتتلاحق، يسمعون سبابَ الناسِ وصياحهم ونعتهم إياهم باللعنةِ التي يجب أن تزول. مرت دقائق، صوتُ أبيهم يهذي ويصرخ، النيران تشتعل لتلتهم كل شيء، ثوانٍ مقلقة، خوف، ورعب، وصوت هدمٍ يعنف الأرض، القصر ينهار، ومع صوت الحطام، صمتت صيحات والدهم، كأن شيئًا قد سقط فوقه فأخرسه تمامًا..

الانهيارُ عظيم، كل شيءٍ يتهاوى، اقتربوا من بعضهم أكثر، تلاصقوا، فمدَّ (غريب) يده ليمسك بيد (بدر) الذي يرتعش جسده رعبًا، فانتبه الأخير ليد أخيه التي احتضنت يده فبثَّته الأمان، ودون إرادةٍ من (بدر)، انتقل بيده الأخرى ليمسك يد (أكرم)، والذي فعل

المثل بدوره مع أخيه القريب منه، حتى انتهى الأمر بأن أمسكوا أيدي بعضهم بعضًا كلهم، يحاولون شحذَ الأمانِ من أنفسهم الهاوية، تلك أول مرةٍ تخفق فيها قلوب أولاد العطار تجاه بعضهم بعضًا، المرة الأولى التي يمسكون فيها أيدي بعضهم بحثًا عن الأمان، كأن الخوف واقترابُ الأجلِ قد ولَّدَ في دواخلهم الحب الذي وُئِد منذ ولادتهم. وفي أثناء صمتهم وأنفاسهم العليلة، سمعوا صوت الانهيارِ العظيم، لحظة سقوطِ القصر بالكامل، كأن قنبلةً دمرت آذانهم دون شعور..

تلك النهاية!

****

في وسط شارعٍ واسع، تجمهر أكثر من مئة شابٍ وفتاة، يهتفون بالمثليةِ الجنسية وبعمليات التحويل الجنسي، وقد ترأَّستهُم (فريدة) التي اتخذت من كتفَي أحد الشباب مجلسًا لها، فهتفت بصوتٍ عالٍ وردد الشباب خلفها، وساروا متجمهرين والناس ينظرون إليهم بفزع، أرهبهُم أن مظاهراتٍ كهذه تحدث في مِصر، كأنها دولةٌ أوروبية، حتى إن البعض شعر بأنه في حُلم، لكنها الحقيقة المطلقة..

استمرت المظاهرات لأكثر من ساعة، الناس يتجمعون حولهم، أعداد المشاهدين وصلت إلى خمس مئة مشاهد، ومع مرور الوقت، لم يستطِع الناس الصمتَ ومشاهدة الأكثر، فعزموا على تغيير تلك الفاجعة بأيديهم، ولذلك بدأ البعض في التدخل ومهاجمة المثليين الجنسيين، وساندهم البقية. وبعد بضع دقائق، اشتعل الميدانُ بالمحتجِّين على تلك المظاهرة، وهجموا عليهم يضربونهم دون رحمة. لن تنتهي تلك المظاهرات على خير، هؤلاء الشياطين سيموتون، تلك أفكار مَن يُهاجِمون..

اشتعل بركانُ حِمَمٍ من الغضب على أرض المعركة، وحاولت (فريدة) التصدي لهم، فكان من حظها النصيبُ الأكبر؛ إنها رئيستهم وصاحبة الفكرة. أمسكها بعضٌ من الشبابِ الذين تجاوز عددهم العشرة أشخاص، أسقطوها أرضًا، وضربوها بكل ما يملكون من قوة،

فعلَا صُراخها استنجادًا وظل يزداد حتى تحول إلى الصوت الحقيقي، إذ لا تَصنُّع في الألم، صوت (فارس) الذكوري قد خرج، وصاحَ بأعلاه. لم يرحمه الناس حتى بعدما سببوا في جسده جراحًا عتيدةً لا تشفى وأَدْمَوْا كل جزء منه، فقد قرروا عدم تركه إلا وهو جثةٌ هامدة.

****

كأنما بحرٌ من الدموعِ قد غرِق فيه، تكوَّم (مهدي) حول نفسه والتصقَ بالجدار، ثم تفقد الجثتين اللتين ترتميان أمامه؛ جثة الطفل التي نهشتها العفونة تمامًا، وجثة ذاك الضخم الذي حاول قتله. وبعدما أنهى مراسم العزاء الذي استمرَّ لساعاتٍ طويلةٍ أنسَته عطشه وما هو مُقبِلٌ عليه، أخذ قرارًا سيُؤنِّبه عليه ضميره مدى الحياة..

تحرك حثيثًا نحو جثة الطفل، وبجسدٍ هشٍّ على مشارِف الموت، رفعها على كتفه رغم العفن الذي التصق به، وتجاوز بها السلم حتى خرَج من مخدعه، فوضعها على العربة، ثم تحرك نحو المدافن..

باشر بدفنها، إذ إنه على أي حال لن ينتفع منها بشيء. انتهى لكن بكاؤه لم يهدأ، وعاد بعدها إلى مكانه من جديد. دخل إلى الحفرة، أغلق الباب خلفه، رتَّب المكان وأعاد تهيِئَته، ثم حضَّر الأدوات والمواد الكيميائية لصُنع الماء، وبعدما انتهى، اقترب من جثة الرجل، فسحب السكين من رقبته المنحورة وألقى بها جانبًا، ثم قبضَ على كلٍّ من قدميه بقبضتيه وسحَبه، لتبدأ عملية استخلاص السوائل من جسده، في حين لم تهدأ دموعه عن التساقط لحظة!

****

بعد أن شجع (يزن) جماعة الـ«Without Name» على المظاهرة، والذين قابلوا قراره بترحابٍ عظيم، نزلوا جميعًا وقد تجاوز عددهم الألف شخص، بعد أن كتبوا بعض اللافتات التي تحمل كلماتٍ من قبيل: «نعم للإلحاد»، «الدين يغتصب الحرية»، «فكروا قليلًا بعقولكم الصماء»، «عاملونا باحترام»..

تجمهروا في الشوارع يرفعون اللوحاتِ ويهتفون، وقد تسبب هذا الحدث في إزعاجِ الدولة كلها، إذ إن كل من رآهم شعر بجُمِّ الغضبِ والنفور منهم، وعلى العكس من ذلك، هناك مَن انضمَّ إلى مظاهرتهم كأنه قد وجد ضالته في الظهور، فبعدما أخفى إلحادَه عن الجميع، حان وقت الصراخ عاليًا والاحتجاج على كل الديانات..

ومن هنا، تجمهر الناس حولهم في الشوارع، فاشتعلت الاشتباكات، ولم تعد المظاهرة سلمية، فقد سقط الضحايا من الجهتين، من المؤمنين والملحدين، وحتى أولئك الناس البسطاء الذين مروا من جانبهم لم يسلموا ونالهم بطشُ الهجمات.

حرض (يزن) جماعته على القتالِ من أجل الحرية، وتلطَّخت الشوارع بالدماء، أكثر من ساعتين والقتال يشتعل، حتى نال بعضُ الناس من (يزن)، وفتكوا به، إذ انهالوا عليه بالضرب بأحزمتهم الجلدية ذات الرؤوس الحديدية، وتلوَّن جسده بالكدماتِ من كل صنفٍ ولون، وتفجر رأسه نازفًا الدم، فشعر بأن روحه تُزهَق، لكنه لم يستطع فعل أي شيء، فالغضبُ قد تملك من الذين يحاولون قتله، ولن يستطيع منعهَم سوى بانتهاءِ أجله.

****

«إن كُنتَ تظنُّني لا أعلمُ مُبتغاك، فعيناك تفضحان غرائزك.. بالكاد تستطيع أن تداري لُعابَك.. أنتَ مثالٌ لحيوانيةِ الإنسان. أنتَ.. أنا!»

تميم الداري..

أفاقَ (تميم الداري) في صباح يومٍ مشرقٍ والبهجة تعتلي وجهه، وقد قرَّر قبلًا أن اليوم ستكون رحلته للصيد مع ثلاثين رجلًا من الباحثين عن أرزاقهم. وبالفعل، بعد أن جهَّزوا سفينتهم، أبحروا جميعًا نحو المجهول..

لعَبَ بهم الموج شهرًا في البحر، يتخبطون مع الريح والعواصف، يأملون الحصول على طوق نجاةٍ ينقذهم، وقد تاهوا في المحيط ولم يعلموا موقعهم. كادوا يفقدون حياتهم أكثرَ من مرة، وهم لا يبتغون شيئًا إلا صيدًا وفيرًا ورزقًا حلالًا ليسدوا أفواه بطون المساكين المسئولين منهم..

وحين فقدوا الأمل، ظهرت من العدم جزيرةٌ على مرمَى أبصارهم، فالتجئوا إليها وأبحروا تجاهها..

نزل (تميم) قاصدًا الجزيرة هو وبعضٌ من أصحابه، تفقدوها فسحرَت أعينهم، قطعةٌ من الجنة تلوح أمامهم، خفقَت نبضات قلوبهم ابتهاجًا وسرورًا، وقرروا المكوث فيها بعض الوقت للاستزادةِ من خيرها..

حلَّ الليل، وفي أثناء سيرهم متأمِّلين آيات الجمال حولهم، وبينما الأمطار تشتدُّ فوقهم، والعواصف تدنو منهم، لاحظوا كيانًا غريبًا يُراقِبهم..

أشعلَ (تميم الداري) شعلةً واقترب من الكائن الذي ثَبَت في مكانه، فظهر لهم جليًّا. صرخوا جميعًا، إذ إن الكائن حشَر في قلوبهم خوفًا لم يشعروه من قبل؛ كان مُغطى بالشعر من رأسه حتى أخمص قدميه، فلا تعلم له وجهًا من ظهر، كثيف الشعر إلى درجة أنهم لم يُبصروا مثله في حياتهم. ارتجفت ألسنتهم وقالوا مرتعبين:

- ويلك! ما أنت؟

دون أن يبرز الكائن ملامحه، ردَّ عليهم بصوتٍ أنثويٍّ واثقٍ متَّزن:

- أنا الجسَّاسَة.

وقعوا فزعًا وخوفًا، وقد اشرأبَّت أعناقهم واقشعرَّت أبدانهم من أهوال ما يبصرون، ثم قالوا متلجلجين:

- وما الجساسة؟!

لم تُجِب عليهم، بل أشارت لهم إلى منزلٍ خشبيٍّ ليس بعيدًا عنهم، ثم قالت:

- أيها القوم، انطلقوا إلى الرجلِ في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق..

نفذوا من فورهم وهربوا ناحية الدير، إذ هابوها لاعتقادهم أنها شيطانة..

الأمطار غزيرة، والرعد يصرخ في كبد السماء، والأشجار تتراقص حولهم، فتحوا باب الدير مُندفِعين خلف بعضهم بعضًا، فسقطوا أرضًا متكوِّمين، وحين أغلقوا الباب، استنارَ الدير فجأةً وقد كان مظلمًا، وظهر في آخره رجلٌ عظيمُ البنيان، ضخمٌ وقوي، تبرز عروقه ويرتسم جسده بالهيبة المفزعة، شعره طويل يغطي عينيه، مُوثَق بأغلال حديدية تكبل عنقه مع يديه وتشد على ركبتيه مع بعضهما ومثلهما قدماه، إنها أشد طرق إيثاقِ الرجال، وقد كان راضٍ بحاله ومعتادًا عليها، لكنهم انتفضوا جميعًا لهيئته فقالوا صائحين:

- ويلك! ما أنت؟

فرد عليهم بصوتٍ جهورٍ مفزعٍ من خلف شعيراته الطويلة الكثَّة:

- قد قدرتم على خبري فأخبروني، ما أنتم؟

حاولوا فكَّ وثاقه، ولكنه أشار بيديه علامةً على الرفض، فابتعدوا. وردد سؤاله:

- ما أنتم؟

فقالوا مُستائين من حالهم التي تتدهور من الأسوأ إلى الحضيض:

- إننا أناسٌ من العرب...

ثم حكوا له قصتهم مفصلة، لعله يرشدهم إلى الطريق الصحيح، فقال لهم مفاجئًا إياهم بحديثٍ عجيب:

- أخبروني عن نخل بيسان.

تعجبوا من سؤاله، ولكنهم قالوا مستفهمين:

- عن أي شأنها تستخبِر؟

فأردفَ ليكتمل المراد من سؤاله في أذهانهم:

- أسألكم عن نخلها، هل تثمر؟

نظروا إلى بعضهم بعضًا إذ أثار سؤاله دهشتهم واستغرابهم، وقد كان أحدهم من أهل بيسان، فأجابه:

- نعم.

ليقول بصوتٍ عالٍ يملأه الغضب:

- أما إنها توشك ألا تثمر.

ثم سكت كأنه يستنشق الهواء ليهدَأ، وعلى إثرها استدركَ سؤاله الغريب بسؤالٍ آخر:

- أخبروني عن بحيرة طبرية.

فردوا عليه مستغربين قوله:

- ما بها؟

أردف وتقابلت أعينهم معًا في غرابةٍ شديدة:

- هل لا يزال فيها ماء؟

فردوا في نفَسٍ واحد ليفتِكوا بآماله:

- هي كثيرة الماء.

استشاطَ غضبًا حتى كاد يُحطِّم أغلاله، واندفع نحوهم صائحًا:

- أما إن ماءها يوشك أن يذهب.

شعروا بخوفٍ مهول يُهلِك دواخلهم، وتراجعوا إلى الخلف فكادوا يهربون، لولا أنهم سمعوا أصوات المطر والسماء تصرخ والعاصفة تشتد في الخارج، وتذكروا تلك «الجسَّاسة» التي تتربص بهم هناك، فقرروا المكوث على مضض. ليُجابِههم بسؤالٍ آخر تبعه عواء ذئبٍ آتٍ من الخارج كأنه قريب، فاقشعرَّت أبدانهم حدَّ السماء:

- أخبروني عن عين زغر.

ردوا عليه بصوتٍ مرتعشٍ وألسنتهم قد أثقلَها الخوف:

- عن أي شأنها تستخبر؟

فأردف ليُكمِل حديثه الناقص كي يستوعبوا سؤاله:

- هل في العين ماءٌ يزرع به أهلها؟

أجابوا وهم يشعرون من دواخلهم أن هذا الرجل ما هو إلا مخبولٌ ليس أمامهم غيره:

- نعم، هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها.

التقط نفسًا عميقًا محملًا باليأس، ثم استطرد قائلًا:

- أخبروني عن النبيِّ الأُمِّيِّ، ما فعل؟

تعجبوا، إذ إن عقيدتهم النصرانية تمنعهم من التصديق به، فاقترب (تميم) في تلك اللحظةِ منه قائلًا:

- قد خرج من مكة ونزل يثرب.

اشتعلت فتيلة الحديث بينهما وقد بدا على الرجل الغريب الاهتمام لإجاباته، فأكمل:

- أقاتله العرب؟

اقترب (تميم) منه أكثر وردَّ بعينين جاحظتين، بعدما تساءل في نفسه عن كيفية عِلم هذا المنبوذ بشخصٍ يقبع بعيدًا عنه بآلاف الأميال:

- نعم.

كأن الرجل يحفظ الأسئلة عن ظهر قلب؛ ينتظر الإجابة فيُلحِقها بسؤالٍ آخر بسرعة الضوء..

- كيف صنع بهم؟

تجلَّى العُجاب على قسمات وجههم، وأجاب (تميم) مستغربًا:

- ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

جاء صوت الرجل لأول مرةٍ ساخرًا، كأنه قد حصل على مبتغاه، وصاح فرِحًا:

- قد كان ذلك؟

ردوا جميعًا -في نفَسٍ واحد- مندهشين متعجبين وعقولهم تصرخ طالبةً الفهم:

- نعم.

تمتم الرجل بحديثٍ مع نفسه، لكن صوته وصل إلى مسامعهم:

- أما إن ذلك هو خيرٌ لهم أن يطيعوه.

ثم رفع رأسه في وجوههم، وانزاح الشعر الذي كان يغطيه، ثم قال بصوتٍ مخيفٍ وشذرات العرق تتطاير من وجهه ولعابه يتسابق مع الهواء:

- أنا المسيح الدجال، وإني أوشِك أن يُؤذَن لي بالخروج فأخرُج، فأسير في الأرض فلا أدَع قريةً إلا هبطتها في أربعينَ ليلة، غير مكة وطيبة، هما محرمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدةً منهما استقبلني ملَكٌ بيده السيف صَلتًا يصدني عنها، وإن على كل ثقب منها ملائكة يحرسونها.

بعدها، هدأ واستكان، فشُقَّ باب الدير شقًّا وطارَ إثر اشتداد العاصفة أكثر، حينها قال بصوتٍ خافت:

- ارحلوا الآنَ ولا تعودوا إلى هنا ثانيةً!

فرُّوا هاربين متجهين نحو سفينتهم، وأشاروا إلى البقية أن أبحِروا لنرحَل من هنا. وفي غمار الخوف والرعب اللذَين اشتدَّا في قلوبهم، وقف (تميم الداري) على طرف السفينة ينظر إلى الجزيرة بعينين جاحظتين، في حين وقفت «الجسَّاسة» على الشاطئ تتابع رحيلهم.

****

خرجت (مارسلين) من القاعةِ دون قطعة ملابس واحدة، تستعرضُ جسدها وتدِّعي بذلك الحرية، وتبعتها بعض السيداتِ في فعلتها، وأحضرن لافتاتٍ كتبنَ عليها «حرية»، وسِرنَ جميعًا في الميادين وأخذ الرجالِ يتفرَّسونهن بعدم تصديق، كأنه مشهدٌ طبيعي في مظاهرة أوروبية الصنع. وفي أثناء سيرهن، انضمت إليهن سيداتٌ جدد، تجاوز عددهن العشرة، فتنقلوا بين الشوارعِ تحت أنظار الناس، وتدافعت كاميرات الإعلام تصورهن لتعرضهن على العالم، حتى وصل أمرهن إلى الشرطةِ التي أرسلت بدورها مجموعةً من العساكر برئاسةِ ضابط شرطةٍ لإيقاف تلك المهزلة..

هجموا عليهن بالعصيِّ محاولين منعهن من تشويه صورة البلد، وانهالوا عليهن يضربونهن، عساكرُ أمن مركزي مغتربين ينفذون الأمر دون جدال. سقطت السيدات أرضًا وقد تكدست الكدمات على أجسادهن، ومن بينهن (مارسلين) التي انهالَ عليها العساكر

ضربًا يعاقبونها، فرفعت يديها لتحمي وجهها، ثم انكفأت على بطنها لتستمد من الأرض الحماية، لم ينتبه إليها أحد، ولم تحتضنها سوى ضربات العصيِّ التي أوشكت على سحب روحها من جسدها، كأن الأمر اقتضى قتلَ مُدَّعيات الحرية هؤلاء وناشرات الدعارةِ والفساد.

(١٢)

الناسُ يلوذون بالفرار نحو الملذات، وأنا أرسُم لهم الطريق إلى ذلك..

الطريق الصحيح هو ما كان أمامَ أعينكم وابتعدتم عنه لاعتقادكم أنه خاطئ..

أنتم ضحية اعتقادات سخيفة لوَّثت عقولكم.

وها أنا هنا..

لأثبت لكم..

أن الخطأ هو الصواب!

«لن تَكتمِل عملية ظهوري من تلقاءِ نفسها، بل حين
يظهر أولَ المُصدِّقين، وبقدراتٍ سأهبُها له، سيُكمِل
الحلقةَ المفقودة»

السامري إلى برقان

الحلقة المفقودة..

اعتدل (إبراهيم) في أثناء جلوسه على الصخرة في الكهف، ثم وقف أمامهم ماثلًا بقوة كعزم الجبال، وشحنَ رئتيه هواءً متلفتًا حوله، ثم ألقى بالعصا التي يتوكَّأ عليها، كأن جسده قد اشتدَّ عوده فاستطاعَ الوقوف دون مُسانَدة. نظر في أعينهم، وتنهَّد الأنفاس التي شحنها بعد معركةٍ ضروسٍ ساحتُها رئتيه وهو يقول:

- أساس العرق البشري، الطفرة الأخيرة، السجدة الأولى، ووجودكم كان له حسابات خاصة..

مشى بضع خطواتٍ إلى الأمام، ثم دقق في خمسةٍ منهم، بدا عليهم الكِبَر والعجز، سيدةٌ وأربعة رجال. ابتسم في وجوههم قائلًا:

- الخيط الأول، سبب الظهور..

ثم توجه نحو الثمانية الآخرين، وبدا شامخًا لا مرضَ فيه، إذ فردَ جسمه كالخيل الرهوان في أثناء قوله:

- خمسة وعشرين سنة بنفِّذ أمر واحد، وهو تهيئة أول المصدقين، المؤمنين، الرسل، الأنبياء..

تحرك الثمانية متأهبين لاستقبال ما هو آتٍ، وعلامات الدهشة تغلب محياهم، هؤلاء مَن دنَّسوا البشرَ بأفعالهم الدنيئة، وها هو يقدسهم؛ والذين تمثلوا في: زوجاته الثلاث [(سميرة)، (فريال)، و(مارسلين)]، وأبنائه الخمسة [(أدهم)، (يارا)، (يزن)، (فريدة)، و(ماريان)].

بعدما أثار (إبراهيم) مناطق التركيز في عقولهم، أطلق تنهيدةً جديدة وانتقل إلى الناحية الأخرى، صوب الخمسةِ العُجُز، الذين قاسوا ما لم يُقاسِه بشرٌ من قبل؛ (بدر)، (أكرم)، (عمر)، (جاسر)، و(جميلة). فتنفس الصعداء ثم قال:

- اللي اتكتب على الجنس البشري، تم استثناؤكم منه، وما زلتم مُفضَّلين..

خلع رداءَه الذي تخفى تحته جسده عاريًا، وسار أمامهم دون قطعة ملابس واحدة، ثم بدأ يتمتم دون النظر إليهم:

- أنا الإنسان.. عِشت كل حاجة، بكل طريقة، مرض، صحة، عجز... جربت كل المبادئ، القواعد، التقاليد، والعقائد.. كنت مسلم، كنت مسيحي، وكنت يهودي، وكنت حر.. محسيتش إن أنا عايش، حسيت إن في حاجة ناقصة، حاجة لسه مش موجودة.

ثم نظر في أعينهم بجسده العاري المكتسي بالفضاء، وقد دارَت عيناه في دوائر غير منتظمةٍ بصورةٍ مرعبة.

****

تصلَّب جسد (الأرقم) في أثناء وقوفه على الجسر، ثم وضع يديه على صدره على هيئة حرف (X) في الوضع الأوزيري كما الذي يُحنِّط عليه الفراعنة موتاهم، ونظر في أعين الناس

نظرةً أدخلت الرَّوع على قلوبهم، ثم همس بصوتٍ خفيضٍ ولكنه كان ذا ترددٍ اخترقَ آذان الجميع، فأخبرهم بما لم يفهموه، بما سيكون له أثرٌ حتمًا عظيمٌ في المستقبل القريب:

- فلينقلِب الزمان، ولتلتهموا ما تبقَّى من بطونكم، على أمل النجاة!

وبعد أن نطق كلماته، ألقى بظهره بلا التفاتٍ صوب النيل، لتبتلعه المياه في غمضة عين!

اقترب الناس مهرولين نحو السور ينظرون إليه، لكنه كان قد اختفى، وتبع ذلك حدثٌ من أبشع ما مرَّ على تاريخ «مِصر»، إذ دون سابق إنذار، وبإرادةٍ ومعجزةٍ خارجةٍ عنْ ما في استطاعة البشر، شرع منسوب المياه يقل تدريجيًّا وبسرعةٍ مهولة، وبدا أن النيل يجف. جحظت أعين الناس، وتملكهم خوفٌ رهيبٌ كاد يقتلهم رعبًا وهم يتابعون نهايتهم بأنفسهم، لكنهم لم يستوعبوا ما هم مُقبِلون عليه، حتى أوشك مجرى النيل على أن يجفَّ كليًّا. وبينما هم في ذهولٍ مما يجري، لاحَ من تحت المياه جسدٌ نائمٌ غارقٌ مفتوحةٌ عيناه عن آخرهما وكان متخذًا وضعية ملوك الفراعنة، إنه (الأرقم) الذي حضر من العدم لينشر بينهم الفزع.

****

ما زال الثلاثة عشر شخصًا يحدقون فيه، يتابعون حركاته المريبة، وطريقة سيره، ونظراته التي لا تبعَث على أي شيءٍ سوى الريب. وقف أمامهم، ثم أكمل حديثه:

- وقتها كان لازم تختفوا..

قالها بصوتٍ جهور، فارتعدت أجسادهم وأصابتها رعشةُ بردٍ بلا صقيع، إذ أخذ صوته يتضخم متبدِّلًا إلى نبرةٍ أخرى أرهبَتهم وصدَّت سير الدم في عروقهم!

****

الضربُ يزداد على أضلع (فريال)، ونزيفها طال حتى قارَب على تصفية الدماءِ من جسدها، فشعرت بالموت قادمًا يغتصب حياتها. وفي خضم المعركة الضارية، مالَ عليها أحد الذين يضربونها بعصيِّهم، فأمسك رأسها واحتواها بين يديه فيما هي مُستسلِمةٌ بألمٍ لكل ما يحدث، ورشقَ في عينيها نظرةً حادة، فاقشَعرَّ بدنها بلا إرادةٍ منها، ثم شعرَت أنها تُحلِّق في وادٍ آخر، لتجد نفسها داخل كهفٍ مظلم..

حاولت التقاط أنفاسٍ لرئتيها -بعد تلك النقلة المباغتة- لكنها خذلتها، فجلست على الأرض واهنةً ضعيفة، إلا أن ما أرهَب بدنها هو وقوف (إبراهيم) أمامها برداءٍ عجيبِ الصنع، ونظرته التي بثَّت الرعب أضعافًا في دواخلها، فارتعشت أوصالها وبردت أطرافها لشدة خوفها، في حين جحظت عيناها غير مستوعبةٍ ما حدث.

****

ضغط الرجل زنادَ مسدسه، فأطاعته على الفور رصاصةٌ ناريةٌ وانطلقتَ نحو وجه (ماريان)، والتي لم تملك سوى أن تصرخ بصوتٍ متلجلجٍ أرعَد الجمادات، وقد أبصرَت بعينيها الطلقةَ وهي تخرُج قاصدةً رأسها، فدارَت الدنيا بها كأنها تُحلِّق، لترتطم بعدها على الأرض وترى والدها (إبراهيم) جالسًا أمامها على صخرةٍ في كهفٍ مريب، فصرخت بفزع.

****

توالت الأيام في حياة (مهدي) بمللٍ مريب، لا يفعلُ شيئًا سوى ما اعتادَ عليه، وقد كثَّف رحلة بحثه بين كتبِه ومواده الكيميائية وصفحات «الإنترنت» محاولًا معرفة ما يحدث لهذا العالم البالي، حتى توصَّل إلى شيءٍ قد يكون خيطَ الوصول إلى الحقيقة بعد طول كفاح، لذلك تمسك به وشدَّ أزره في البحثِ عن حقيقته دون كلل ولا ملل، دون أن يتوقف للحظة، وفي سبيل هذا قلَّت ساعات نومه وتضاعَف تفكيره حتى كاد يقتله..

صراخٌ هادرٌ طَنَّ في رأسه بعدما أحس بقربه من الحقيقة، يسير ذهابًا وإيابًا مُشبِّكًا يديه الاثنتين خلف ظهره، في حين يتصارع فكرُه في معركةٍ عقليةٍ لن تنتهي على خير..

ولما ومَضَ شيءٌ ما في رأسه وأشعلَ فيه نيران التفكير حتى استوى وأخرج ما في جبعته، ركض مهرولًا نحو الكتب المرصوصة، وأخذ يُقلِب فيها بجنونٍ حتى استنبط منها بعض التفسيرات الدينية الإسلامية. وكتاب الإنجيل المقدس، قلَّب في صفحاته هو الآخر وشرع يقرأها كالمهوُوس، ثم ربطَ الأحداث ببعضها بعضًا، ما مرَّت عليه البشرية، وما حدث للأرض والدنيا، والتدمير الكامل الذي انتهى إلى مصيرها، تلك المأساة التي عاشَتها الأرض وما عليها..

أحاديثٌ عن النبي الأمي في الكتب الإسلامية تحكي بالتفصيل وتفسِّر ما يحدث وما سيحدث للأرض وأهلها، وكلامٌ في الكتاب المقدس عن نبيٍّ كاذبٍ سيأتي في آخر الزمان فيُضِل البشر..

لقد توصل إلى ذاك الأمر الذي أرَّق مضجعه، وأوشك على تكوين صورةٍ كاملة عنه. ركض صوب الكمبيوتر الخاص به، وفتح متصفح «الإنترنت» على «جوجل»، فارتعشَت أصابعه وهو يكتب في خانة البحث عن ذلك الذي اقتحم عقله. ساعةٌ مرت وهو يتصفح هنا وهناك، شيوخ وقساوسة، تسجيلات صوتية ومرئية، ومقالات بالآلاف، عيناه تتوسعان أكثر كلما عرفَ أمرًا بين كل ثانية وأخرى، حتى وصل إلى الذروة، ليصرخ بصوتٍ عالٍ ممسكًا رأسه قائلًا:

- المسيح الدجال! احنا في نهاية العالم، المسيح الدجال على وشك الظهور!

أصابته الصاعقة وجحظت عيناه واضطربَت أعماقه وعقله كاد يَتلَف من هول المشاعر المُرعِبة التي اجتاحَت كل دواخله الجريحة تُقطِّعها.

****

ازداد صراخ (يارا) الممسكة بطفليها، فيما استمر الضرب الذي تتعرض له حتى كاد يقتلها. فتحَت عينيها بصعوبةٍ بالغةٍ في محاولةٍ لرؤية الجثتين، فرأت أحدُ الطفلين يرفع يده ويمدها نحوها بعد أن تحوَّل إلى جثة، ولما جذب انتباهها، شعرت أن ما زالَت روحه فيه، فاستبشرَت، لكنه لمسَ جبينها بطرفِ أنامله الميتة، لتحس على إثرها باصطدامها بشيءٍ ما، ولما أدركت ما اعتراها، أبصرَت والدها (إبراهيم) واقفًا بجانبها وهي مُلقاةٌ في أرضِ كهفٍ يرتَع في الصحراء.

****

حاول (أدهم) ضمَّ جسده عليه علَّه يستتر أكثر وزحف إلى الخلف، في حين اقترب وقعُ الأقدام ودنا منه، وإذا به يشعر أنه قد صار بمحاذاته، ويُزاحُ الزرع من أمامه الآن، وبغتةً ظهر ذلك الطيف المريب وهجم عليه بقبضة واحدة، فحلَّق بعيدًا وغاب عن الوعي، ولما أفاق وجد نفسه ماثلًا أمام والده (إبراهيم) في كهفٍ عريق!

****

استسلمَت (سميرة) بين أحضان الموت واثقةً من رغبتها في إفناء عمرٍ لا تملكه وروحٍ لا حقَّ لها في إزهاقها، وأوشكت أن تُحقِّق تلك الأمنية التي طالما تمنتها. ساعدها أحدهم برفعها، فابتسمت، ثم دفعها الشخص ذاته وألقاها إلى النهر كما كان الفراعنة يلقون عروسَ النيل قربانًا للإله (حابي)، حتى تموت كما أرادت.

أغمضت عينيها قبل أن يبتلعها النيل، لكنها ما إن ارتطمت بالمياه حتى شعرت أنَّ ضربة الارتطام به أتتها قوية أكثر مما ينبغي، وحين فتحَ عينيها الذعر، وجدت النيل قد تبدَّل إلى أرضٍ صلبةٍ لكهفٍ عجيب، وعلى الأرض صخرةٌ صماء تحمل شخصًا تعرفه جيدًا، إنه (إبراهيم)!

****

يسيرُ (مهدي) متعثرًا في الموجودات بعدما علم حقيقة الأمر وأن له علاقةٌ بنهاية الزمان، تلك الحقيقة التي تعترف بأن المسيحُ الدجال على وشكِ الظهور. أكله فضوله وصار يتساءل عمَّا إذا كان سيشهَد ظهورَ ذلك الكاذب أم سيكون جثةً هامدةً حينها..

لم يُتعِب عقلَه كثيرًا؛ إن الرعب الذي يُسيطِر عليه يكاد يقتله، وكل ما شغل باله هو كيف ستمر عليه الأيام الباقية في ظلِّ هذا الخوف ينهشُ جسدَه..

تابع ما داوَم على فعله، أن يبحث بين الطرقات عن جثةٍ جديدة، فهو يُعافِر من أجل البقاء، ولكن ما اصطدَم به في هذه المرة أغربُ من أن يتقبَّله عقله..

إذ كلما حثَّ في سيره لمحَ شخصًا يسير في خطٍّ مستقيمٍ بلا أدنى التفات، فصار يتخفى من كل أحدٍ لئلا يراه، وكلما مر الوقت يرى شخصًا مختلفًا عمن قبله يسلك الطريق نفسه، كأن الناس اجتمعوا فوحَّدوا طريقهم صوب بقعةٍ محددة! شغله الفضول فقرَّر اللحاق بهم، وظل خلفهم يتتبَّع خطواتهم، حتى خرج من المدينة وشقَّ الصحراء سيرًا على الأقدام، ولما اكتمل على سيره ثلاث ساعات، أبصر مجموعةً من الناس تسير أمامه في تجمهُرٍ غريب، لا يتقاتلون، لا يتحدثون، فقط يسيرون كما الموتى الأحياء، ويبدو عليهم أنهم يعرفون جميعًا وجهتهم تمام المعرفة، مما زاده حيرةً وذهولًا..

أراد أن يتخفَّى بعيدًا عنهم، لكنه التمسَ فيهم السلامَ والهدوء، فقرر مراقبتهم، لذلك ترك العربةَ وودَّعها بنظرةٍ أخيرة؛ لقد قاسَت معه كثيرًا وحمَلت أعدادًا ليست هينةً من جثث الأموات، إلا أن وقت الفراق قد حان..

ركض نحوهم حتى لحق بهم وسار خلفهم، بدا أنهم يتتبَّعون بدورِهم خطواتِ ارتسمت على رمال الصحراء لأناس آخرين ربما سبقوهم، لا يعلمون إلى أين هم ذاهبون، وكل ما تناقَلَته ألسنتُهم فيما بينهم حتى صدَّق الجميع، كان يدور في محورٍ واحد، أن حياةً جديدةً تتراقَص في الأفق، ولذلك خرجوا إليها وعنها يبحثون..

ساعاتٌ طوالٌ مرت حاول فيها (مهدي) التماسُك ليصِل إلى خط النهاية، ولما أحسَّ بالعطش ارتشَف رشفةً متخفيًا عنهم حتى لا يقتلوه للحصول على ما بين يديه..

رحلةٌ طويلةٌ أنهكَته، انتهَت إلى تجَمهُر كبير من البشر، تجاوز عددهم المليون. لم يكن يتوقع وجودَ تلك الأعداد المهولة على قيد الحياة، وصُعِق مما أبصرته عيناه، حتى إنه توقف في مكانه لدقائق كأن على رأسه الطير، وقد بدا له أنهم يحاولون الدخول إلى كهفٍ ما!

تلفت حوله بريبة، وشاهدَ الناسَ يتسابقون مُلتحِمين ببعضهم بعضًا وهم يدفعُون أنفسَهم، فتلفَّت ببصره ذات يَمْنةٍ ويَسْرة بحثًا عن نقطةٍ يُلقي بصره إليها فيرى ما اجتمَعَ عليه الحشد المهول..

وقعت عيناه على جبلٍ قريب، ارتفاعه ليس بكبير، لكنه قرر تسلُّقه، فركض نحوه بكامل قوته، وعافر مُجاهِدًا كي يصل إلى نهايته، ثم وقفَ على قمته ورمى بصره بعيدًا، فرأى الناس يلتفُّون حول سورٍ حديديٍّ يُغلِّف كهفًا مهيبًا، وأمام الكهفِ أنارَت أمام عينيه شجرةُ تفاحٍ مثمرة وعينُ ماءٍ أبصرها بصعوبةٍ بالغة، فأخذته الصاعقة حتى كذَّب عينيه وتساءل مصدومًا..

ألَم تجِف المياه على هذا الكوكب بعد؟!

ومِن أين أتَت تلك الشجرة المثمرة وسْط كل هذا الموتِ والخراب؟!

إن الأمرَ برُمَّتِه ضَربٌ من الجنون!

فركَ عينيه مرارًا وتكرارًا، اعتقد أنه في اللحظات الأخيرة من حُلمٍ ما، لكن كل ما رآه هو عين الحقيقة وعليه تصديقها غصبًا.

****

كادت تسقط (فريدة) جثةً هامدةً بين أيدي الشباب العشرة الذين أَقسموا على النَّيْل منها وقتلِها، إذ انهالت عليها الضربات الموجعة المُبرِحة تُقطِّعها، إلى أن ركَلها أحدهم في رأسها بكامل قوته ركلةً قاضية، فشعرت بانهيار العالم وحصونه فوقها، وفجأةً توقف الضرب، لتفتح عينيها استيعابًا لما يدور، فأبصرَت والدها يجلسُ أمامها على صخرةٍ بدائية!

****

استسلم (يزن) للأحزمة التي تكالبَت عليه، وقد علم في قرارة نفسه أنَّ ما فعله قد ضاع هباءً. حاول التماسك، لكن الناس تكاثروا عليه وأشبعوه ضربًا فشعر بروحه تودُّ الفرار، وحين حاول الوقوفَ سبقه أحدهم بلكمَةٍ في وجهه، فتراجع رأسه ليصطدم بالأرض، وانقلبت السماء إلى أسفل، وفي غمضة عينٍ أبصَر أمامه والده في كهفٍ قديم.

****

احتضنت (مارسلين) الأرضَ في محاولةٍ فاشلةٍ لإنقاذ نفسها، لكنها لم تَجْنِ سوى الضرب المميت الذي كاد يهلكها، حتى شعرت بالدوار وفقدانها وعيَها، فأرْخَت جفنيها على عينيها لينتهي حفل الضرب الذي أُقيمَ على شرفها، وما إن فتحتهما حتى أبصرَت (إبراهيم) زوجها يقف أمامها.

****

«ستدفِن نفسكَ لستِّ ساعات، طعامُكَ شرابُك، دماؤكَ المشفى الوحيد.. وفي تمام السابعة، انفُخ في البوق»

السامري إلى الأرقم

السامري..

بعد أن سلَّم (الأرقم) نفسه إلى (السامري) ووافقَ على حُكمه وصدَّق وآمن أنه ربُّه، أملى عليه (السامري) الأمرَ الأخير، وهو أن يقتُل نفسه فيُسلِّم روحه قربانًا إليه، ليكون خالدًا في آخر الزمان. لم يعترض (الأرقم)، بل انقاد معصوبَ العينين وامتثل لكل حرفٍ أمره به، لكنه قبل أن ينفذ، أراد أن يعرف شيئًا..

دلف إلى كوخ (السامري)، فأبصره جالسًا مُغمَض العينين شاردًا في ملكوتٍ خاصٍّ به. اعتادَ (الأرقم) على وضعهِ هذا وعلى اختلائه بنفسه على تلك الشاكِلة، لكنه اللقاء الأخير، ودَّ أن يعرف، فسأل:

- أكُنتَ تحرك فرعون؟

أدركَ في قرارة نفسه أن الإجابةَ ستأتيه صادمة، إلا أن قلبه أخذ يدق بالبحث عن المعرفة، عن ذلك الكيان الماثل أمامه، والقادِر على فعل ما لم يستطِع عليه أعتى السحَرة وصاحبو المعجزات..

فتح (السامري) عينيه، ورمقه بنظرةٍ لا تحمل أي معنى، إذ عرِف أنه سيسأل ذلك السؤال، وسيتقلَّب على جمرٍ مشتعل حتى يعرف الإجابة، فلن ينسى تلك النظرة التي قابله بها في يوم عرض معجزة (موسى)، ولذلك قال لإنهاء الأمر:

- توجد أشياءٌ يصعب على العقل فهمها، أو تقبُّلها، نتمنى فقط لو ننساها، حتى لا نفكر فنتعب، فنتألم، فينهشنا الألم، فنُقلِّل من قدرِنا. إن الكثير من الموجودات في هذا العالم تظل مبهمة، المعرفة قليلة، وما خفيَ كان أعظم، وإن ظهر أُصِبنا بالجنون..

سكتَ لبرهة، ثم التقط نفسًا مشبعًا بعبق الحياة قبل أن يُردِف:

- أرقم.. أَنهِ مهمتك.

كالعادة، كلماته مُشفَّرة، عسيرة الفهم، حادة الذكاء ومنمقة؛ يعجز العقل أمامها. لكنَّ مَن في مثل مكانة (الأرقم)، سيفهم بكل سهولة، ولذلك لم يستعصِ عليه الاستيعاب، فنطق معترضًا:

- أفهم.. لكن أخاف أن يكون استيعابي غير صحيح، أردت فقط لو أعلم عنك كل شيء، أنتَ أغرب مَن وُجِد في هذا الكون، أنتَ الظاهرة التي ستقلب موازين الدنيا. أما أنا، فأعتقد أنني شيءٌ مهم، ولذلك سألت.

تحامَل (السامري) على قدميه ليقف، ثم شبكَ يديه خلف ظهره، وصار يذرَعَ الكوخَ غُدُوًّا ورَوَاحًا، وشرع في سَرْد جوهَر الموضوع وخلاصته:

- عندما رحل موسى من مصر بقومه، مرَّ من مدينةٍ يعبدون فيها الأصنام، فغارَ أهله وقالوا: «يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة».. غضب موسى، فما زالت معجزة شقِّ البحر حاضرةً في أذهانهم، ويكفرون.. فقال لهم: «إنكم قومٌ تجهلون، إن هؤلاء كافرون، أتتخذونَ غير اللهِ إلهًا وقد فضَّلكُم على العالمين؟»، وهنا ذكَّرهم بما مروا به وأنجاهُم منه موسى وربُّه.. الناس يا أرقَم لا يؤمنون إلا بما يرَوْن، ولذلك تلاعبتُ بعاطفتهم وصنعتُ لهم العجل كي يعبدوه، فأُبصِر بعيني ما إذا كانوا سيكفرونَ بربِّ موسى أم لا، فحدثَ ما توقعت.. كنت أستطيع حينها أن أُعلِن نفسي إلهًا، لكن هؤلاء التائهين لا يهمونني في شيء، إذ سيظلون على كُفرهِم لا يعلمون حقيقة إلهِهم مدى الحياة حتى أظهر لهم، فيكونوا أول التابعين، وحينها يؤمنون ويُصدِّقون.. موسى كان ذكيًّا، ساحرًا ماهرًا، بعد أن أوهَمَهم بمعجزة شق البحر، وبأنهم المُفضَّلون على العالمين، وأنَّ عليهم أن يصدقوا، فكَّر في عمودٍ للدين الجديد كي يسيروا على نَهجِه، فاختلى بنفسه وعادَ بألواحٍ تسمى التوراة، كتب فيها كل التعاليم الدينية، وسُمِّيت بالألواح المقدسة، وعاش بنو إسرائيل في كنفها، فشكَّلَت دينَهم.. بعد سنواتٍ طويلة، سيظهر غيره يُخبِر قومه أنَّه رسوٌل من عند الله، وسيأتيهم بكتابٍ يُسمَّى الإنجيل، وسيقول إنها تعاليمُ ربه.. وبعدها سيأتي خاتم الأنبياء، ليكتب القرآن، وهو الكتاب الأخير، ويخبر الناس أنَّه كلامُ الله المُنزَل من السماء، فيؤمن به الكثير..

إن كان عقلكَ حاضرًا في أثناء حديثي يا أرقم، فستعرف أن لكل دينٍ كتاب يُثبِت وجوده، تعاليم وأسس تَسير عليها حياة الناس، فيعبدوا الإله ويتقربوا إليه من خلال صلواتهم وقراءتهم كتابَه.. ولذلك، ما عليك معرفته قبل أن تُنفِّذ الأمر الأخير، هو أنك أنتَ يا أرقَم كتابي الذي سيقرأه الناس ليعرفوا عن الدين الجديد، الدين الذي ستسير عليه الحياة في نهاية الزمان.. لكنَّ الشيء المختلف هنا، هو أنني سأُحقِّق مُرادَهم من البداية، وهو عبادة إلهٍ حاضرٍ أمامهم، مرئي، كالأصنام التي تمنَّى قوم موسى عبادتها.. فكما قلتُ لك، الناس يا أرقم لا يؤمنونَ بما لا يرون.

التقط (الأرقم) نفسًا عميقًا أغرقَ رئتيه، ونظر في عيني (السامري) ليشعر براحةٍ عظيمةٍ وغير مسبوقة، وعلى الرغم من أنه لم يعلَم إجابةَ سؤاله الذي طرحه، فقد استراحَت دواخله واطمأنَّت بعد أن علِم مدى أهميته.. ولما همَّ بالرحيل، صاح (السامري) بصوتٍ جهورٍ أرعَشَ أوصاله قائلًا:

-أرقَم..

تقابلت الأعين مع بعضها بعضًا؛ (الأرقم) بنظراتٍ متوترةٍ خاشعة، و(السامري) بنظراتِ تجبُّرٍ وتكبُّرٍ واستعلاءٍ مقيت، ليُردف الأخير:

-لا تخَفْ، إنكَ أنتَ الأعلى!

تعمَّد إغواءَ (الأرقم) باستعمال كلمات اللهِ -سبحانه وتعالى- التي ألقاها إلى نبيِّه (موسى) وخصَّه بها وقت معجزة السحر العظيم بينه وبين وسحَرة (فرعون)، وقد عرف بها رغم أنها قيلَت للنبي وحده ولا أحدَ سمعها، فقالها بتحدٍّ خسيءٍ تنفر منه الأبدان وتقشعِر. وقد استجاب (الأرقم) الذي عماه إيمانه بـ(السامري) وابتسمَ بثقةٍ وفخر، وأخذ يزهو بهذه الهِبة العظيمة التي منحه إياها ذاك المتغطرس الفاجر، ووثق أشدَّ الوثوق أنه عندما يحين ميعاد انتهاءِ حياته، سيكون راضيًا بعد أن حقق ما لم يُحقِّقه بشري، وهو

الارتقاء إلى درجة ملاك، ليعبُد الإلهَ الذي سيهبه الخلود، ألا وهو ذلك الكافر الذي سيُضِل الكثيرين عند ظهوره.

****

«تكمُن صعوبة مهمتِك في اختيار من سيُكمِلها، في جعلِ مَن ستختاره خاضعًا لما تطلُب، مُنفِّذًا لكلِّ أمر، مُقتنِعًا بسرابِ الكنز»

السامري إلى برقان

سرابُ الكنز..

لأول مرةٍ تنبض قلوبُ أولاد العطارِ بالخوفِ على أنفسهم، وقد التفَّت أيديهم حول بعضها بعضًا يستمدون القوة، لحظاتٌ وسمعوا انهيارًا عظيمًا كأنه خليفةُ قنبلةٍ نووية، القصر يتهاوى فوق رؤوسهم، ثم ثوانٍ وشرع القبو في السقوط والانهيار هو الآخر حجرًا تلو الحجر. هاجوا بذعرٍ في أماكنهم، إنهم على وشك الموت، لكن لم يطُل الأمر، إذ تحوَّل كل شيءٍ إلى أنقاض في غمضة عين..

حينها حدثت المعجزة، اختفوا! شيئًا ما قد سحَب أرواحهم، ليجدوا أنفسهم في كهفٍ عريق، وأمامهم شخصٌ قد مرَّ وجهه على حياتهم قبلًا، منذ بضع دقائقَ فقط، وها هو يقف أمامهم مبتسمًا. تلفتوا حولهم يطمئنون على أنفسهم، لتستوعب عقولهم أنَّ (غريب) ليسَ معهم، فقط (بدر)، (أكرم)، (عمر)، (جاسر)، و(جميلة). فأيقنوا على الفور أنه دُفِن أسفل أنقاضِ القصر.

****

علا صوت (إبراهيم) حدَّ السماء حتى أوشك على تفتيتِ أسماعِهم، وقد تحولت صيغة كلماته إلى اللغة العربية الأم، إذ قال:

- حين اقتربَ موتُكم، جاءَ دور خادمي، برقان!

تشكَّل (برقان) من الفراغِ إثر لفظه باسمه، ليركَع من فوره أمام (إبراهيم) بخضوعٍ وانكسارٍ في أثناء قول الأخير:

- كل التعاليم التي تركتموها خلفَكُم ألهَمَت البشر وقلَبت كل تفكيرهم بعد رحيلكم، لم يكن وجودكم عبثًا، بل مُقدَّرٌ لكم قلبُ كلِّ الموازين، وإغراقِ بني آدم في ملذاتهم، وقد تم اختياركم على أسُسٍ خطَّها الإلهُ بأنامله. بعدها حانَ دوري، لأظهَر للبشر فأقضي على كل شيء، كي تدنو النهاية.

تصاعدت أنفاسه حادةً وتحولت إلى فحيح الثعبان، فيما أخذت قسمات جسده بالتبدُّل كأنه يزداد قوة.

****

استمرت المياه في الجفاف حتى ظهر جسد (الأرقم) كاملًا، وتوقف الأمر الذي أرهَب أبدان الواقفين، إلا أنه لم يتبقَّ غير القليل من مياه النيل، والتي ستكفي استهلاك أهل مصر لمدةٍ لن تتعدى بضعة أسابيع قبل نفادِ آخر قطرة. حينها وقف (الأرقم) فنظر فوقه إلى أعينِ مَن ارتسمت معالمُ الموت بداخلهم، ثم نطق بصوتٍ ضخمٍ هز كيانهم، فتقلقلَت أرواحهم في مخادعها مُحاوِلةً الخروج بعد ما سمعته من كلماتٍ مرعبةٍ رفعت مستويات الرهبة في قلوبهم إلى أقصاها:

- إن كنتم تظنون أنه حان وقت الفزع، تمهَّلوا؛ أوانه لم يعُد ببعيد.

وبعدها رحل من فوره بسرعةِ الضوء، فاختفى نهائيًّا وترك الناس مذهولين غير مصدقين ما حدث ومحدقين في القليل المتبقي خلفَه من مياه النيل!

****

«لقد وفَّيتُ بوعدي، وأديتُ دَوري، والآن حانَ دورك..
تنفَّس!»

برقان إلى الأرقم

النهاية..

تبدَّلت ملامح وجه (إبراهيم) إلى أخرى، وانسلخَ عنه جلده وشرع يتمزق، كأن (إبراهيم) يتهيأ ليظهَر في صورة ثعبانٍ عظيم، ثم أخذ يُتمتِم و(برقان) ما زال ساجدًا أمامه:

- عائلة العطار، البذرةُ الأولى التي أنبتَت منها النهاية، وقد عاشوا في هذا الكهف ثلاثين عامًا مُتخفِّين عن البشر، تحتَ رعايتي!

واستمرَّ جلده في الانسلاخ حتى خرج من رداءِ (إبراهيم). في تلك الأثناء، تابعَه بأعين غير مصدقة (بدر) بجسده العجوز صاحبِ الأربعة والتسعين عامًا، و(أكرم) صاحبِ الثمانين عامًا، و(عمر) الذي صار في الستينات من عمره، و(جميلة) التي قاربت على السبعينات، و(جاسر) الذي أضحى رجلًا في الواحد والخمسين من عمره. ثم استطرد (إبراهيم) حديثه مكملًا:

- عائلةُ إبراهيم.. بعد ظهوري بخمسة أعوام، بدأت في تجهيز الأنبياء، أنتم الرسُل المقدَّسون، رسالتكم هي إعادةِ تهيئة خيارات البشر الخاطئة ليكونوا على الطريق

الصحيح، وقد أديَّتم دعوتَكُم على الوجه الأكمل، لكن ذلك سلبَ مني خمسةً وعشرين عامًا..

خرجَ من رداءِ (إبراهيم)، ثم وقف أمامهم، برداءِ (الأرقم)!

ليشهقَ الكلُّ بفزع، عدا عائلة العطار التي كان لها نصيبٌ من رؤيته عند ظهوره الأول، وهو مَن أنقذهم من الانجراف تحت أنقاض القصر، فعاشوا في كنفه لثلاثين عامًا، إلا أخاهم (غريب) الذي رحلَ مع الأموات..

حرَّكَ (الأرقم) رأسه في دوائر غير منتظمة، كالبومةِ يُرهِبهم بنظراته، ثم ثبَّتَه نحو وجوههم وأردف قائلًا:

- يا عائلة إبراهيم، يا أبنائي وزوجاتي التائهين، يا أنبياءَ ورسُل البشر الضائعين..

سكتَ لجزءٍ من الثانية ليحيدَ برأسه نحو عائلة العطار، ثم استطرد:

- ويا أبناء برقان ونسلَ جابر العطار أول المُصدِّقين.. لم يكن مُقدَّرًا لكم أن تذوقوا مرارةَ العطشِ والحرمانَ من الطعام.. بعد إنقاذكُم حلَّت لعنتي على البشرِ أجمعين، لتنبثق خيوطُ النهايةِ مرسومةً بالموتِ وكسر الآدميةِ وإبادة الضعفاءِ من بني البشر..

ثم أشار بيده نحو الذين يُحاولون اقتحامَ السورِ خارج الكهف، وقد تضاعفَت أعدادهم حتى تجاوزت المليون، ثم استطرد كلماته بنبرة فحيح الثعابين:

- البشر ضعفاء، اتَّخذوا الخير طريقًا لهم، تعبَّدوا وصلُّوا وقدَّموا القرابين إلى الإله ليغفِر لهم، قلوبهم متآكلةٌ تبحَث عن الخلاص، يُرضُون الغيرَ وينسَوْن أنفسهم، طأطأوا رؤوسهم واتخذوا السلامَ طريقهم، يعطفون على اليتيم ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر.. كل تلك أوهامٌ تشبثوا بها ليظهروا بأبهى صورة.. لكن الحقيقة، هي أن بداخلهم الشرُّ متجسدًا، الإنسان يَقتُل بدمٍ بارد، ينهش مالَ اليتيم، يستبيح الضعفاء، يسرق، يحرق، يخون العهود، يزني، ويكذب.. اتخذ الخُبث منهجًا فكان الشيطانُ طالبًا.. أنا مَن أتيتُ مِن بداية الزمان لأرشدكم إلى الصواب، أنا الأرقَم خادم سيدي، أنا العبد الذليل لمولاي، أنا

الضعيف القوي، الخالد الفاني، الحي الذي مات.. أنا المَصْل المُضاد، أنا الطريق، أنا الخلاص، أنا المرشد في الحياة.. جئتكُم برسالةٍ ووجبَ عليكم اتباعها.. الخير للضعفاء، والشر لبني البشر.. هُم مَن يرسمون الطريق لأنفسهم، وما أُبصِره بعينيَّ أنهم على الطريق الخاطئ.. لذا، فقد أتيتُ حاملًا إليهم رسالةَ الإله، وهي أن الحياة في كنفه، والموت لمَن يعصيه.. فما أنتم مُقدِمون عليه الآن، النهاية.

سكتَ للحظة، وقد ارتفع صوته حتى تجاوز عنان السماء، ورسم الذهول طريقَه على وجوه الماثلين أمامه بخوفٍ يفتت قلوبهم، ثم صرخ بصوتٍ عالٍ زلزلَ أركانَ الكهف حولهم:

- أنا الأرقم..

ارتعشت أجسادهم، وارتعدت أطرافهم، وجحظت أعينهم، وفي لحظةٍ ما وفي لمح البصر، شقَّ صدرَ (الأرقم) سيفٌ ذو نصلٍ حادٍّ ولامع، فصرخَ بأنينٍ دفينٍ وبعينين خرجتا من مخدعهما، فتراجعوا كلهم إلى الخلف غير مصدقين ما يجري، وقد ارتعدَ (برقان) معهم..

ثم وبسرعةٍ هائلة، سُحِب السيفُ من جسد (الأرقم)، ليشهقَ بصوتٍ مكتومٍ وهو ما زال واقفًا على قدميه، وفي اللحظة التي تلَت ذلك، عادَ السيفُ مرةً أخرى من أسفله بين قدميه، وشُدَّ إلى فوقٍ بقوةٍ مهولة، ليُشطَر جسد (الأرقم) إلى نصفين ويسقُط كلُّ نصفٍ في جهة، فاستحال بين اللحظتين إلى جثةٍ هامدة!

وظهر على الفور من خلفه، ذلك الذي قتَله، الذي فلَق جسده، شخصٌ غير واضح المعالم، والتي كساها ذلك الرداء الذي يغطي جسده المحنيِّ كله، من رأسه حتى أخمص قدميه. ما إن أبصره (برقان) حتى لامس برأسه الأرض ولم يرفَع نظره إلى فوق، إذ انكفأ ساجدًا خاشعًا..

دارت أعينهم في محاجرها بعد الذي رأوه، ولم يكادوا يفيقون من صدمتهم حتى طارَ الرداء عن جسده مبتعدًا، ليتجلى أمامهم بهيئته كاملةً بلا نقصان؛ رجلٌ عظيمُ البنيان، ضخمٌ وقوي، تبرز عروقه ويرتسم جسده بالهيبة المفزعة، قصير، عريض المنكبين، بين قدميه تباعدٌ جلي، أحمر البشرة، طويلٌ شعره ومُجعَّد، وملامحه حادةً مرعبة، يمتلك عينًا واحدةً إلى اليسار من وجهه، عينٌ معيبةٌ غير سوية، كقطعة لحمٍ ومشوهةٌ كأنها عنبةٌ طافئة، أما العين اليمنى فممسوحةٌ كأنها لم تكن. صرخ في وجوههم بصوتٍ مهولٍ زلزلَ الكهف رعبًا:

- أنا الإلهُ خالقكم.. أنا ربكُم الأعلى..

ثم أشار إليهم بالسيف وقد بدا عليه الغضب العارم، ليقول بصوتٍ صلَّب الدمَ في أوردتهم:

- اسجدوا!

فخرَّ الثلاثةُ عشر سُجَّدًا على الفور، خوفًا ورعبًا ومهابة، وشعروا أن أقدامهم هوَت وعظامهم خرَّت هاوية دون إرادةٍ منهم، كأن شيئًا أجبرهُم على السجود. ولما استوعبوا ما يدور حولهم، حاولوا التقاط أنفاسهم المسلوبة وتهدئة أفئدتهم الخافقةُ بسرعة الضوء، فيما ارتعشت أجسادهم وعُنِّفت رؤوسهم في أثناء السجود. ظلوا على وضعهم مستسلمين، ليس لهم إرادة ولا هم قادرون، ليكونوا أول من سجدَ للإله الكاذب، للمسيح الدجال.

(١٣)

أبصرُ خوفكم، أسمَع ضجيج قلوبكم، أحسُ بعطشكم، وحاجتكم إلى الطعام..

انكساركم، ضعفكم، وما قاسيتموه..

جئت لأُزيحَ عنكم همومَكم، لأُظِلَّكم تحت جناحِ رحمتي..

يا عبادي، طلبتُم رؤية إلهكُم على مر الزمان، وها أنا أمامكم، أتيتُ إليكم بالرحمةِ والمغفرة، والماء والطعام والملاذ الأخير من مشقة التعبِ في الدنيا الفانية..

أنا الإله ربكم، أُحيِي وأُمِيت، أنشزُ العظامَ وأكسوها لحمًا..

تجري الرياح بأمرٍ مني، وتتساقط الأمطار بإشارةٍ من عصاي، بين يديَّ الحياة وحُسْن الختام، وفي البُعْد عني موتٌ وخراب تام..

صلُّوا واسجدُوا لتنولوا غفراني..

ومن يتجرأ على عصياني، سأكون أمامه جبارًا عتيًّا، وسأصبُّ عليه غضبي..

وما أدراكَ ما قسوةُ الربِّ على العباد الكافرين!

رمَى (المسيح الدجال) السيفَ المُلطَّخ بدم (الأرقم) بعيدًا، ثم تقدم صوبَ عصا (الأرقم) التي ألقاها قُبيلَ تحوُّله، وقد بانَ على خطوته عدم الاتزان والتباعد بين قدميه، فمال نحو العصا واحتواها بقبضته، لتشتدَّ وتتبدل هيئتها فتطولَ أكثر وتضحى سوداء اللون، ثم رفع رداءَه وكسا به جسدَه ليُغطي كل ملامحه، فيما ظلَّ الثلاثة عشر ساجدين بلا حراك. تقدَّم نحوهم، ووقف شامخًا أمام سجودهم، ثم شرع في الحديث:

- يا عبادي المساكين، رسُلي وأنبيائي، لقد خَلقتُكم لأجعلكم في الأرضِ خليفةً لي، لكُم سرِّي الذي لم يعرِفه غيركم، لقد كنتُ حاضِرًا منذ قديم الأزل، أَرعى عبادي المشرَّدين، تمثلتُ في قابيل لأُعلِّم البشر دفنَ موتاهم، وجئتهم كآريس لأعلمهم العبادة فيسجدوا لإدريس، وظهرتُ كالثعبانِ للفرعون القديم لأُطمئِن قلوبهم بوجودي، وكنتُ قَدَّار ابن سالف فقتلتُ ناقة صالح ليشربوا من البئر فيرتوون، وكنت الملك النمرود أضمُّهم إلى كنفي فيعبدوني، وتمثلتُ في عاكف لقومِ لوط كي أُشبِع شهواتهم وأُمتِّعهم، أنا يهوذا الذي تسبب في علو شأن بني إسرائيل بإلقائه يوسفَ في البئر، السامري الذي ضمَّ بني إسرائيل تحت لوائه وكشفتُ لهم كذب موسى، قارون صاحب كنوزِ الأرض وخالقُها، كنتُ يعوث الذي جمع السفنَ البحرية ليُكوِّن أساطيلَ تحميكم من بطش الكافرين، أنا مِحرَاب من أنقذ أصحاب السبتِ من غدرِ البحر وبطشه، جالوت مَن تظاهر بالهزيمة تضحيةً لبني إسرائيل، هادر مَن كشف لهم كفر زكريا، رشيد المرشد لقتل يحيى الذي ضلَّ عبادي عني، أنا إليانور صالبَ عيسى الذي أضلَّ قومَه، بعل التي قدَّسَها قومها فكانت لهم إلهًا، ذو النواس الحاكم الذي أحرق الكافرين، أبرهة الحبشي صاحب الجيش العتيد، أنا الأعور مُعلِّم السحر وأساسُ بابل، أنا الإله الذي قابل تميم الداري ونبَّأتُه بحضوري، وها أنا أمامكم.. أنا ربكُم الأعلى، خلقتكم، عِشتُ بينكم، وكنت لكم الراعي الذي لم يترككم للحظة.. ها

قد حان وقت ظهوري لكم، لتعبدوني فتنولوا العفوَ الإلهي وحسن الجزاء، وقد فضلتكم على العالمين فكنتم أول التابعين، سأرعاكم كما فعلتُ دائمًا، وسأكون مُرشِدكم إلى الطريقِ الصحيح.

لقد كان موجودًا منذ بدءِ الخلق، ولم يشعُر به البشر، إذ تمثَّل فيهم يُضلُّهم دون أن يشعروا، وما زال مستمرًا في إضلاله إياهم. (المسيح الدجال)، ذلك الكيان المعقد، يتمثل أمامهم الآن بكامِل هيئته وحضوره، ليفتِنَهم فيسلبهم إيمانَهم، هُم الذين تربَّعت في نفوسهم كل أنواع الشرِّ وتأصَّلت..

اختتم كلماته ثم أشار نحوهم بعصاه، فوقفوا على أقدامهم دون إرادةٍ منهم فقاموا من سجودهم خاضعين مذلولين مسلوبي الإرادة، لم يستطيعوا النظر في عينيه، فطأطأوا رؤوسهم في خشوعٍ وإجلال..

تحرك صوبَ طرفِ الكهف، وتوقفَ للحظاتٍ يشهد الحشودَ الواقفة في الخارج، أكثر من مليون شخص، البشر المتبقون على كوكب الأرض كله بعدما جرَف العطش والقحط الجزء الأكبر منهم. تقدم شامخًا بهيئة الملوكِ وبخطواتٍ ثابتة رغم تباعد قدميه الملحوظِ للعيان، بعدما أشار إلى خادمه (برقان) بعصاه كي يسير خاشعًا خلفه ويحرِّك بقدرته الثلاثة عشر ليتبعوا خُطاه..

وصل (المسيح الدجال) إلى شجرة التفاح وعين الماء، فوقف (برقان) بدوره ومن خلفه التابعين الثلاثة عشر. وفور أن لمس (الدجال) بيده ثمرةَ تفاحٍ حتى قطفَها، لتنبت غيرها على الفور مكانها، كأن الشجرة ستظلُّ شامخةً مُثمِرةً أبدَ الدهر، لا ينتهي خيرها ولا تعطب بذورها..

أمسك التفاحةَ في يده، وسار حتى اقترب من سورِ الكهف، فيما كان الناس واقفين ينظرون إليه بتعجبٍ ورهبةٍ وخوفٍ وتساؤلاتٍ عِدة، ومن بينهِم (مهدي) الذي يحاول التلصُّص من بعيدٍ واختلاسَ النظر. ثوانٍ مرت و(الدجال) لم يتفوَّه بكلمة، حتى هاجَ

الناس يضربون على السور ناظرين إلى التفاحةِ في يده، ثم بغتةً ألقى بها، لتمر من فوق السور صوبَهم..

تابعها الناس بأعينهم لاهثين كالكلابِ نحو عظْمةِ الحياة، وفور أن سقطَت وسْطهم ركضوا نحوها بفجَعٍ وجشع وسُعارٍ مُضْطَرِم. هنا أشار (الدجال) بعصاه نحو التفاحة، فتكوَّن حولها عمودٌ أسطوانيٌ شفافٌ صلبٌ مرتفعٌ بطولِ رجلين، والتمعَ كحجابٍ حاجز، وما إن تدافع صوبه الناس حتى ارتطموا في ذلك العمود الصلد كالجدار، لم يستطيعوا الوصول إلى التفاحة، فيما أخذ قطرُ العمود في التوسُّع حتى أضحى باتساعِ دائرةٍ تكفي عشرين شخصًا داخلها، كأنه يحاول اختبارَ قوة صمودهم..

هياج..

ترقُّب..

خوف..

تعجب..

وكثيرٌ من القلق..

التفاحةُ تتغنَّى بحمرتها الشهية أمام أعينهم لكنهم لا يستطيعون الوصول إليها أو حتى اشتمام عبيرها اللذيذ، مرت دقيقةٌ كاملةٌ قبل أن يشير (الدجال) بعصاه، فاختفَت التفاحةُ بما حولها كأن الهواء قد التقَمها دفعةً واحدة، ليسقط على الفور الناس المتكئون على الجدار العازل..

وعادوا إلى ما كانوا عليه فيحاولوا اقتحام السور..

تراجع (الدجال) ليقف بجانب الشجرةِ وعين الماء من جديد، ثم أشار إلى السور بعصاه، فتهاوى متحطمًا وتهدَّم على الأرض، ليهيج الناس راكضين كالمجانين نحو الداخل، غير مصدقين انهيارَ ذلك العازل الذي أهلكَ ضَعفَهم، وما إن اقتربوا من الشجرة وعين الماء

حتى أعاد (الدجال) الكرَّة فأشار بعصاه نحوها، ليتكون سورٌ شفافٌ من الفراغِ يفصِل بينه وبينهم، فاصطدم به الناس وصاحوا عاليًا مُحتجِّين باكين مُترجِّين. هنا تكلم (الدجال) لأول مرةٍ ليصل صوته إلى الجميع:

- تريَّثوا..

سكتَ للحظات، ثم أردف بصوتٍ جهور تخشع له الموجودات:

- أبصرُ خوفكم، أسمَع ضجيج قلوبكم، أحسُ بعطشكم، وحاجتكم إلى الطعام.. انكساركم، ضعفكم، وما قاسيتموه.. جئت لأُزيحَ عنكم هومَكم، لأُظِلَّكم تحت جناحِ رحمتي.. يا عبادي، طلبتُم رؤية إلهكُم على مر الزمان، وها أنا أمامكم، أتيتُ إليكم بالرحمةِ والمغفرة، والماء والطعام والملاذ الأخير من مشقة التعبِ في الدنيا الفانية.. أنا الإله ربكم، أُحيِي وأُمِيت، أنشزُ العظامَ وأكسوها لحمًا.. تجري الرياح بأمرٍ مني، وتتساقط الأمطار بإشارةٍ من عصاي، بين يديَّ الحياة وحُسْن الختام، وفي البُعْد عني موتٌ وخراب تام.. صلُّوا واسجدُوا لتنولوا غفراني، ومن يتجرأ على عصياني، سأكون أمامه جبارًا عتيًا، وسأصبُّ عليه غضبي.. وما أدراكَ ما قسوةُ الربِّ على العباد الكافرين.

أنهى كلماته، ثم فتح فرجةً في الحاجز الذي صنعه، ليمر من خلاله رجلٌ نحيلُ الجسدِ ضعيفٌ يسيرُ متخبطًا وعلى وشك السقوط، وفور مروره أُغلِق الحاجز من جديد. فأشار (الدجال) إلى الرجل الذي أخذ يتلفت حوله متوجِّسًا متأمِّلًا رحمةً تنزل عليه، وقال:

- أقبِل يا عبدي..

خطا الرجل نحوه بعينين تزوغانِ ناظرًا صوب الشجرةِ وعين الماء، وما إن دنا من (الدجال) حتى ضربه بعصاه فشقَّه إلى نصفين على مرآى من الجميع، ومن خلف الصفوف وقف (مهدي) يتابع المشهد بقلبٍ واهِن يتشقق خوفًا. وبعد أن شُقَّ جسد ذاك المسكين إلى شطرين كلٌّ في جهة، أشار (الدجال) بعصاه صوب البقعة التي وقعَ فيها، فتكوَّنت حوله هالةٌ وامضة، وأخذت عظامه تلتئم، وعادت دماؤه المُهرقَة إلى مجراها في عروقه،

والتحمَت نسائل لحمِه من جديد، ثم نُفِخَت فيه الروح، ليشهقَ الرجلُ بصحوةِ الحياة ويلتقط أنفاسه بصعوبةٍ كأنه عداءٌ قد ركضَ ألفَ ميل، ولما استوعَب أنه ما زال مُقيَّدًا في سجلات الأحياء، قال (الدجال):

- اسجُد، كي تنول بركتي، ولتأكل من الشجرةِ وترتشف ماءَ الإله.

نظر إليه الرجل بعينين مذبذبتين كما إيمانه الذي انتفض وراح ضحية فُجْرٍ ملعون، ثم جثا على ركبتيه بأنفاسٍ تتلاحق لاهثة، ودون أدنى تفكيرٍ خرَّ على الأرض ساجدًا!

حينها فقط، تنفسَ (الدجال) بارتياحٍ ولاحَت على وجهه اللعين ابتسامةٌ واسعة، وأشار إليه بعصاه أنْ قِف على قدميك، ثم قال:

- اذهَب لتنعم بجنانِ الأرض، وقد غفرتُ لك ذنوبك لتنعَم بجنانِ السماءِ بعد الموت.

فهرول الرجل ولهثَ صوبَ عين الماءِ في غير تصديق، وشرب حتى كادت تُميته كثرة الشرب، فيما رفضَ عقله صدمة ارتوائه بالماء وكاد يحاربه على ذاك الدخيل الذي ولجَ إلى جسده فتغلغل إلى كل خلاياه الظمأى، وما إن تشبَّع ماءً حتى سارعَ نحو شجرة التفاح فقطف ثمرتها، لتنبُتَ أخرى عَقِبها في الحال. أخذ يلتهمها بنهَم، في حين تابعه (الدجال) بزهوٍّ وانتصار، حتى التهم أكثر من خمسِ ثمراتٍ في دقيقةٍ واحدة!

وبينما الرجل ملهوٌّ في حاله، تابعه الناس بأعين ضعيفةٍ ومنكسرة، يرجُون الدخولَ ليُخرِسوا صراخ بطونهم الخاوية الثكلى، فنظر إليهم (الدجال) وصاح بصوتٍ عالٍ أرعَد ما فوقَ الأرض وما تحتها:

- أيها العبادُ المطيعون، أيها المساكين، فلتتبعوني أينما أخطو؛ أنا الحقيقة، أنا النهاية، أنا الخلاص، ستنولون العفو، ستُحرَّرون، فلتتحضروا!

هدأَ برهةً ثم تقدم خطوتين، وفرَد ذراعيه كأنه يضمُّ الجمعَ أمامه إلى أحضانِ رحمته، ثم قال بصوتٍ جلجلَ آذانهم وزلزل كيانهم:

- إن أردتم النجاة، فاسجدوا، لتنولوا ما نالَه عبدي هناك.

دوَى أمرُه كالرعد في سماء عقولهم، فمرت ثوانٍ يستوعبون، يفكرون في ذلك الذي عبر خلال الجدار فنال الشرابَ والطعامَ وتنعَّم بجِنان الساحر (الدجال)، وبعدما صرخت أرواحهم استنجادًا، خرُّوا واحدًا تلو الآخر وخشعوا يسجدون، لا يملكون شيئًا من زمام أمرٍ بطاعته مرهون، إما الموتُ أو البقاءُ في أسرِ دجالٍ ملعون، وإذا خُيِّروا بينهما فالحياةَ سيختارون، وأيَّ شيءٍ من أجلها سيفعلون..

في مشهدٍ مريبٍ ينهشُ الأذهان ويُهلِك البصائر، وفي حضرةِ (الدجال) المهيبة، سجدَ الجميعُ في آنٍ واحد معًا، مؤمنين بأنه الإله. وفور سجودهم، ظهرَ من بينهم جسدُ (مهدي) واقفًا مرتعدًا، يتلفَّت حوله برعبٍ وقلقٍ مما أبصرته عيناه؛ لقد فتنهُم (الدجال) فتنةً عُظمى، وسجد جميع من في الأرضِ له، فكفروا بالله الواحدِ الأحد. لقد كفرَ الجميع، إلا هو، الوحيدُ الذي لم يسجُد، فرصَدته عينُ (الدجال) الجاحدة، لتتقابل أبصارهما وقد ارتسمَت بعلاماتِ التضاد كلها، بين خوفٍ من (مهدي)، وغضبٍ من (الدجال)، وكلِّ أنواع الجبروتِ والضعفِ المهزوم..

وما إن أبصر (مهدي) «ك ف ر» المحفورةَ بين عينيه، حتى التف بجسده إلى الجهة العكسية، وفرَّ متجاوزًا أجسادَ الساجدين، فركض كما لم يركض من قبل، ظل يركض، ويركض، وشعر أنه يحتاج إلى أن يركض حتى يطوي العالم كلَّه أسفل قدميه. وعلى الرغم من أنَّ (الدجال) يمتلك سرعةً عاتيةً لو أراد أن يصلَ إليه بعد أميالٍ لتطلب منه الأمر فقط خطوةً واحدة، فإنه لم يُحرِّك ساكنًا، بل تركه يُطلِق العنان لقدميه ولم يوقفه، كأنه بذلك يرفع رايةَ التحدي بينهما.

وبعد أن قطعَ (مهدي) شوطًا، التفت خلفَه، فرأى الناس يتدافعون نحو شجرة التفاح وعين الماء، بعد أن رفع (الدجال) الحاجز، وما أرعدَه وقوف الأخير على أعتاب الكهف، لا يرمي بعينيه إلى شيءٍ سوى إليه، فتملَّك الخوفُ منه واجتمعَ عليه الرعبُ وأصابَه الهلع،

لكنه تابعَ ركضه محاولًا النجاة بنفسه من تلك الفتنة التي وطأَت قلوب البشرِ الأحياءِ على الأرض أجمعين..

لم يملك (مهدي) شيئًا حينها، سوى الركض، سوى الفرار، سوى اللَّوذِ بإيمانه من لعنةٍ مستطيرة..

فولَّى هاربًا بقدمين خائرتين لكنهما عنَّفتا الأرض كقطارٍ لا قدرةَ لأحدٍ على اللحاقِ به..

ركض بأقصى ما يملك من قوة، وقد قرر في نفسه أنه سيظلُّ يركض حتى تموتَ أنفاسه أو تستسلم، ولن تستسلم.

إلى اللقاء في الجزء الثالث

عن الكاتب

الكاتب: محمد صاوي.

السن: ستة وعشرون عامًا.

المؤهل الدراسي: ليسانس الحقوق - جامعة عين شمس.

أعماله الورقية السابقة:

- سجين البرزخ.
- بهطيش (العقد السفلي).
- الأرقم [الجزء الأول].
- مدينة الرؤوس المعلقة [العدد رقم (11) من سلسلة الأرشيف].
- أرض الخراب [الجزء الثاني من (مدينة الرؤوس المعلقة)].

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/Mohamed.Sawy93

شكر خاص

إلى «الأب» الذي رحل عن دنيا النفاق إلى جنان الآخرة، أفتقدكَ في كل ثانية ولا أفكر في شيءٍ سواك. كُن بخير، واطمئِن على كومِ لحمٍ تركتَه خلفكَ في عاتقي، سأُكمِل طريقًا سلكتَه قبلي ولن أشتكي. أحبك يا أبي، ولن يهدأ قلبي إلا بلقائك.

إلى «الأم» التي تحمِل على كتفيها حملًا كبيرًا لا يتحمله بشر. لا تخافي، سأظل إلى جانبك سندًا وحِصنًا لا ينهار، سأكون نعمَ الابن، وسأرعاكِ أبد الدهر، فقط اطمئني ولا تحزني.

إلى «دينا»، الأخت التي تملك قطعةً من قلبي. أحبكِ كروحي، وسأظل دائمًا النورَ المضيء لكِ في ظُلمةِ الدنيا، سأكون دومًا هنا، الحضن الذي ينتظرك.

إلى «ريهام»، الأخت التي أحبها أكثر من نفسي. كوني بخير، فأنا سندُك، ولا تجزعي من الحياة، أعلم أنها بغيضةٌ ومقلقة، لكنني هنا، إلى جانبك.

إلى «حبيبة»، الأخت التي امتلكَت موهبتي نفسها، الكتابة والتعبير عنْ ما يختلِج قلبها. أحبك، وسأشجعكِ حتى تُصبِحي في يومٍ ما أفضل مني. اعلمي أنَّ كلماتي لن توفيكِ حق قلبك الطيب والرقيق، اعلمي أن حضنكِ هو الملاذ من موجعات الدنيا بالنسبة إلي، أحبك.

إلى «ياسمين»، آخر العنقود، الجميلة التي أجد في حضنها نفسي. أعشقُ كل تفاصيلك، خجلك، وجنتيك عندما تحمرَّان، وخفة دمكِ التي لا يمتلكها أيٌّ منا، أحبك بكل ما يحمله قلبي من مشاعر دافئة.

إلى «عليّ»، ابن أختي الذي خطف القلوب فور مجيئه. أتمنى أن أراكَ عظيمًا محققًا نجاحًا باهرًا عندما تكبر، فأفتخِر بك. أنتظر اللحظات التي ستكبر فيها ونتسامر معًا، أحبك يا قطعةً من قلبي.

إلى «شريف أوشي»، صديق العمر الذي لم يتركني للحظة. تأكد أنني سأظل الجدار الذي يسندكَ أبد الدهر، أحبك يا أغلى ما أملك. لا تحزن ما دمتُ إلى جانبك، سأحمل عنك كل أحزانك، وسأكون نعم الأخِ مهما حييت.

إلى «هند محمود»، المصححة اللغوية والأخت العزيزة، أشكركِ على مجهودك العظيم، لولاكِ لما خرج العمل بهذه الصورة. أعلم أن كلمات الشكر كلها لن توفيكِ حقك، لكن ما أردتُكِ أن تعرفيه هو أنني محظوظٌ بك مصححةً لغويةً ومحررةً أدبيةً لأعمالي، بحثتُ في الوسط الأدبي كله فلم أجِد من لهُ نصف قدرتكِ العظيمة في جهدك المبذول، باركَ الله عملكِ وأدامَ نعمته عليك.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

ن للنشر والتوزيع

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007